زدني علماً

ketab.me

أندريه جيد

Twitter: @abdullah_1395
27.6.2014

دوستويفسكي

مَقالات وَمحاضَرات

ترجمة
الياس حنا الياس

منشورات عويدات
بيروت - باريس

@ketab_n
Follow Me

أندريه جيد

دوستويفسكي

مقالات ومحاضرات

ترجمة
الياس حنا الياس

منشورات عويدات
بيروت - باريس

Twitter: @abdullah_1395

دوستويفسكي

مقالات ومحاضرات

Twitter: @abdullah_1395

للمؤلف
في سلسلة ماريان

- قوت الأرض/ ٢٤٠ صفحة/ ١٩٨٤
- مزيفو النقود/ ٥٢٨ صفحة/ ١٩٨٤
- السامفونيا الراعوية/ ١٢٨ صفحة/ ١٩٨٥

Twitter: @abdullah_1395

© منشورات عويدات ـ بيروت
جميع حقوق الطبعة العربية في العالم وفي البلدان العربية
خاصة محفوظة لدار منشورات عويدات ـ بيروت ، بموجب
اتفاق خاص مع دار غاليمار Gallimard ـ باريس .

الطبعة الأولى ١٩٨٨

Twitter: @abdullah_1395

إلى جاك ريفير

Twitter: @abdullah_1395

« دوستويفسكي » هو الوحيد الذي أفادني شيئا في علم النفس
كان اكتشافي له يفوق أهمية ، اكتشافي « ستاندال »

نيتشه

Twitter: @abdullah_1395

دوستويفسكي
من خلال رسائله

(١٩٠٨)

Twitter: @abdullah_1395

إلى « بيير - دومينيك دوبوي »

هامة « تولستوي » الضخمة لا تزال تنشر ظلها على الأفق ! لكن - كما هي حال السائر في الجبال ، كلما أوغل في البعد راحت عاليات القمم تطلع من خلف تلك المنخفضة ، - بدا لبعض الرائين أن « دوستويفسكي » بدأ يطلع من الظل ، وأخذت قامته تمتدّ فوق هامة « تولستوي » العملاقة ! إنه القمة التي لا يزال يحجبها الضباب ، العقدة الخفية في السلسلة . وهذه هي اليوم بعضٌ من أخصب المصادر تجد فيه المَعين الذي بوسع أوروبا أن تشبع منه تعطشاتها المستجدة !

هو ، لا « تولستوي » ، من ينبغي ذكره إلى جانب « إبسن » و« نيتشه » ، وقد لا يكون « دوستويفسكي » في مستواهما فحسب ، بل ربما كان أعظم شأناً منهما أيضاً .

منذ ما يقارب الخمسة عشر عاماً كان « دو فوغه » يقوم ببادرته الكريمة ، فيحمل إلى فرنسا ، على طبق من فضة بلاغته ، المفاتيح الحديدية للأدب الروسي . وحين انتهى إلى « دوستويفسكي » لم يجد مفراً من الإعتذار عن « وحشيّة » هذا الكاتب . ومع أنه اعترف له بشيء من النبوغ ، إعترافاً مشوباً بالحذر ، فإن إنزعاجه من شطحاته

Twitter: @abdullah_1395

الكثيرة ، دفعه إلى الإعتذار من القارىء مقرّاً أن « اليأس قد تملّكه من محاولة جعل هذا العالَم مفهوماً من عالمنا نحن » . وبعدما توقف وقتاً لا بأس بـه أمام مؤلفـاته الأولى التي قـدّر أنها ، إذا لم تثر الإعجاب فيمكن ، على الأقل ، أن تسْلَم من الرفض ، ركّز على **الجريمة والعقـاب** ، معلناً للقـارىء ـ الملزم بتصديق كـل ما يقـول لإفتقاره إلى ترجمة أخرى ـ أن « قريحة « دوستويفسكي » توقفت عن النمو مع هذا الكتاب » ، وأنه « كثيراً ما حاول معاودة التحليق ، لكنه كان كمن يحوّم في دائرة من الضباب ، ويخوض في سماءٍ كثيرة التقلب والإضطراب » ؛ وبعد أن يَعْـرض خصائص **الأبله** عـرضاً واهياً ، يتكلم عن كتاب **المسكونون** ، فإذا هو « كتـاب غامض ، سيّىء البنيان ، مضحك عموماً ، ومحشوٌ بنظريات شديدة الإلتباس والتعقيد» ؛ من ثمّ يأتي إلى **صحيفة أديب** ، فيرى في الكتاب « أناشيد غـامضـة يعجـز عنهـا التحليـل ، ويقف دونها النـظر» . **الأزليـة مريم** [1] ، لا يرد لها ذكر عنده . كما أنه لا يشير إلى **الروح الخفيّ** ، بـل يكتب : « لم أشرْ إلى روايـة عنوانها **النمـو** ، لأنها تقصّر عن سابقاتها تقصيراً شديداً » ، ثم يمضي في قحته فيقول : « لن أقف كذلك عند **الإخوة كارامازوف** ؛ فالذين تمكنوا من متابعة هذه الرواية اللامتناهية حتى . . نهايتها هم ، بشهـادة الجميع ، قلة ضئيلة » . ويخلص إلى القول : « مهمتي ينبغي أن تنحصر في لفت الإنتباه إلى

---

(١) الكتـاب الـذي يعتبـره الأديب المـدقّق « مـارسيـل شـوب » رائعـة « دوسـتويفسـكي » .

Twitter: @abdullah_1395

الكاتب ، الشهير في بلده ، غير المعروف عندنا ، وفي تمييز الأجزاء الثلاثة (؟) من مؤلفاته ، التي تجلو مظاهر نبوغه المختلفة ، وهي **الناس البسطاء** ، **ذكريات من بيت الموتى** ، **والجريمة والعقاب** .

لذلك ، نجد أنفسنا حائرين في تحديد موقفنا من الرجل : أهو مستحق الشكر لكونه أول من عرّفنا بالكاتب ، أم هو مستوجب السخْط لأن الصورة جاءت مجتزأة ، ناقصة ، ومشوّهة تشويهاً مخزياً هذه العبقرية العجيبة ! لكننا نرى أن منشىء **الرواية الروسية** قد أساء إلى « دوستويفسكي » أكثر مما أفاده . صحيح أنه لفت إليه الأنظار ، لكنه ، من ناحية ثانية ، قصر اهتمامه على ثلاثة من كتبه ، رائعة دون شك ، لكنها ليست الأبلغ دلالة عليه ، ولا هي التي يتوقف إعجابنا به عليها . يبقى أن « دوستويفسكي » قد يبدو لذوي الفكر الصالوني صعب الإكتناه من القراءة الأولى . . . « لا يدعك ترتاح ، فهو متعب كالأحصنة ذات الدماء الحارة . . . أضف حاجتك إلى إيجاد نفسك في ما تقرأ . . . ماذا تكون النتيجة ؟ تركيز في الإنتباه . . . وانهيار في المعنويات . . . ، الخ » ؛ لم يكن بين عامة الناس كبير خلاف حول رباعيات « بيتهوفن » الأخيرة ، (يقول « دوستويفسكي » في إحدى رسائله : « كل ما يلج الفهم بسرعة ، لا يستغرق وقتاً طويلاً ») .

صحيح أن هذه الأحكام التقييمية قد أعاقت ترجمة كتب « دوستويفسكي » ونشرها ، وأخّرت انتشارها بين الناس ، كما أوْهنت عزيمة الكثير من القراء ، مما سوّغ لـ « شارل موريس » ألا يقدّم لنا

Twitter: @abdullah_1395

سوى ترجمة مجتزأة[1] لـ **الإخوة كارامازوف** . لكن هذه الأحكام لم تَحلْ ، لحسن الطالع ، دون ظهور الآثار الكاملة ، جزءاً في إثر جزء ، وعلى يد عدة ناشرين [2] .

---

(١) سبق لمكتبة شاربانتيه أن قامت بترجمة شبه كاملة للإخوة كارامازوف بفضل جهود بيانستوك وتروكه .

(٢) لم يتبق للترجمة سوى بضع قصص لا أهمية لها ، ومن دواعي سرورنا تقديم لائحة بالترجمات حسب تواريخ صدورها : **الناس البسطاء** (١٨٤٤) . ترجمة فكتور درلي . بلون ونورّي ، ١٨٨٨ . ـ **المزدوج** (١٨٤٦). ترجمة بيانستوك وورث. ماركير ، ١٩٠٦ . ـ **امرأة الغير** (١٨٤٨) (وبعض القصص) . ترجمة ألبرين ـ كامينسكي وش . موريس . بلون ، ١٨٨٨ . ـ **مراحل الجنون** (قلب ضعيف ، ١٨٤٨) . ترجمة ألب ـ كامينسكي . برّن ، ١٨٩١ . ـ **اللص الشريف** (١٨٤٨). ترجمة ١٨٩٢ . ـ نتوشكانسفانوفا (١٨٤٨). ترجمة البرين ـ كامينسكي . لافيت ، ١٩١٤ . ـ **روح طفولية** (١٨٤٩) . ترجمة البرين كامينسكي ، فلاماريون ، ١٨٩٠ . ـ **مذكرات مجهول** (ستبانشيكوفو ١٨٥٨) . ترجمة بيانستوك وتروكه . ماركير ، ١٩٠٥ . ـ **حلم العم** (١٨٥٩) . ترجمة البرين ـ كامينسكي . بلون ١٨٩٥ . ـ **ذكريات من بيت الموتى** (١٨٥٩ ـ ١٨٦٢) . ترجمة نايرو. بلون ، ١٨٨٦ . ـ **مهانون ومذلون** (١٨٦١) . ترجمة همبرت . بلون ، ١٨٨٤ . ـ **الروح الخفي** (١٨٦٤) . ترجمة ألبرين كامينسكي وش. موريس بلون ، ١٨٨٧ . ـ **المقامر والليالي البيض** (١٨٤٨ ـ ١٨٦٧). ترجمة البرين ـ كامينسكي . بلون ، ١٨٨٧ . ـ **الجريمة والعقاب** (١٨٨٦). ترجمة فكتور درلي . بلون ، ١٨٨٤ . ـ **الأبله** (١٨٦٨) .

Twitter: @abdullah_1395

ومع ذلك ، فإذا كان « دوستويفسكي » لا يزال، حتى الآن ، يشق طريقه بصعوبة بين القراء ، وإذا كان قراؤه ينحصرون في نخبة شديدة التميّز ، ولم يكن الجمهور من أنصاف المثقفين ، أنصاف الجديين هو وحده الذي ينفر منه ، هؤلاء الذين لا يمكن لمسرحيات « إبسن» أن تصل إلى أفهامهم ، لكنهم يستطيعون تذوق أنا كرنينا وحتى الحرب والسلم ، ـ أو هذا الفريق الآخر من الجمهور الذي يفقد وعيه أمام زرادشت ـ ، إذا كان الأمر كذلك ، فمن التجني تحميل « دو فوغه » مسؤولية ذلك كله . إن لتعثر انتشار مؤلفات

= ترجمة فكتور درلي . بلون ١٨٨٧ . ـ **الأزلية مريم** (١٨٦٩) . ترجمة البرين ـ كامينسكي ، بلون ١٨٩٦ . ـ **المسكونون** (١٨٧٠ ـ ١٨٧٢) . ترجمة فكتور درلي . بلون ، ١٨٨٦ . ـ **صحيفة أديب** (١٨٧٦ـ ١٨٧٧) ترجمة بيانستوك وج .أ.نو. شاربونتيه ـ فاسكل ، ١٩٠٤ . ـ **المراهق** (١٨٧٥). ترجمة بيانستوك وفينيون . **المجلة البيضاء** (**فاسكل**) ، ١٩٠٢ . ـ **الميلاد الروسي** (١٨٧٦) . ترجمة كرزيروخي . بريدوم ، في شاتودين ، ١٨٩٤ . ـ **الإخوة كارامازوف** (١٨٧٠ ـ ١٨٨٠) . ترجمة أولى : البرين ـ كامينسكي وش . موريس . بلون ، ١٨٨٨ ؛ ترجمة ثانية : بيانستوك وتروكه . شاربونتيه ، ١٩٠٦ .

قصص ظهرت منفردة : « المبكرون » ، مقتبسة عن **الإخوة كارامازوف** . ترجمة البرين ـ كامينسكي . هافارد ، ١٨٨٩ ؛ فلاماريون ، ١٨٩٧ . ـ « كروتكايا » ، من **صحيفة أديب** . ترجمة البرين ـ كامينسكي . بلون ، ١٨٨٦ [سلسلة توقفت عام ١٩٠٨] .

Twitter: @abdullah_1395

دوستويفسكي أسباباً أكثر دقة تكشف دراسة رسائله عن معظمها . لذلك ، لست بمتكلم اليوم عن الآثار الكاملة لدوستويفسكي ، بل سأتحدث فقط عن الكتاب الأخير الذي صدر عن ماركيز دوفرنس في شباط من العام ١٩٠٨ (الرسائل) .

Twitter: @abdullah_1395

(١)

نتوقع العثور على إله . فإذا نحن أمام إنسانٍ بائس ، تعب ، مريض ، محروم ، بصفة خاصة ، من هذه الميزة الزائفة التي يعيبها هو كثيراً على الفرنسيين ، ألا وهي البلاغة . سأسعى جهدي ، في كلامي على كتاب بهذه الصراحة ، أن الزم الأمانة ، ولا شيء غير الأمانة . وإذا كان ثمة من يأمل أن يقع ، هنا ، على لوْن من ألوان الفن أو الأدب ، أو أية متْعة أخرى من متع الفكر ، فأشير عليه، منذ الآن، بألا يتابع القراءة .

إن نصّ هذه الرسائل غالباً ما يأتي ناقصاً ومشوَّشاً ومفتقراً إلى حسن الصياغة ؛ وقد عرفنا ، بفضل « بيانستوك » الذي أهمل التأنّق في الكلام ، كيف نداري كل محاولة لتدارك هذه الثغرات الخاصة جداً . . .[١] .

---

(١) لذلك ، سنعتمد في استشهاداتنا كافةً ، النصَّ الذي اعتمده « بيانستوك » آملين أن تعبّر هذه الثغرات والأخطاء ـ المزعجة كثيراً بعض الأحيان ـ عن روح النص الروسي .

Twitter: @abdullah_1395

اعترف أن القراءة الأولى لهذا الكتاب غير مشجعة . فهذا « هوفمن » ، المترجم الألماني لدوستويفسكي ، يقول أن اختيار الناشرين الروس للرسائل لم يكن الأفضل [1] ؛ وليس بالحجة المقنعة القول أن وقعها سيكون مختلفاً لو اختلف الإختيار . الكتاب ، كما هو الآن ، غزير الصفحات ، مثيرٌ للضيق [2] ، لا

---

(١) يقول « هوفمن » : يتضح لنا ، خصوصاً بعد أن نمعن النظر في رسائل دوستويفسكي الحميمة ، أن أرملة الشاعر ، أنّا غريغورييفنا ، وأخاه الأصغر ، اندره دوستويفسكي ، لم يحسنا اختيار الرسائل التي دفعاها إلى النشر ، وأنه كان بوسعهما استبدال العديد منها ، كتلك التي لا تعالج سوى شؤون مالية ، بأخرى اكثر صميمية وفائدة ، دونما إخلال بالأمانة . فإن ما لا يقل عن أربعمئة وأربع وستين رسالة ، من دوستويفسكي إلى زوجته الثانية ، أنّا غريغورييفنا ، لم يكن قد نُشر أيّ منها بعد .

(٢) مهما بلغت ضخامة هذا الكتاب ، فقد كان يمكن ، بل كان ينبغي جعله أضخم . مأخذنا على « بيانستوك » أنه لم يقْرن الرسائل التي نشرت في البدء ، بتلك التي أخذت تظهر ، بعد ذلك ، في مجلات مختلفة . لماذا لم ينشر مثلاً سوى الرسالة الأولى من الرسائل الثلاث التي ظهرت في نيفا (نيسان ، ١٨٩٨) ؟ لماذا لم ينشر رسالة أول كانون الاول من العام ١٨٥٦ في فرانجل ، على الأقل المقاطع التي كشف الستار عنها ، والتي يروي فيها دوستويفسكي قصة زواجه مبدياً أمله في الشفاء من وسواس علة جسمية يتوّهمها ، عن طريق هذا الإنقلاب السعيد في حياته ؟ وخاصة رسالة ٢٢ شباط ١٨٥٤ الرائعة التي ظهرت في الـ روسْكايا سْتارينا ، والتي ظهرت ترجمتها (البرين و ش. =

Twitter: @abdullah_1395

لعدد الرسائل التي يحتويها ، بل للنواقص الفادحة التي تعتري كلاً منها . لم يطالعْنا أديب من قبل ، كما اعتقد ، برسائل على هذا القدر من الرداءة وانعدام العناية . إن دوستويفسكي ، رغم إجادته « مخاطبة الآخرين » ، يلجْمه الإرتباك حين يتكلم عن نفسه ، وكأن الأفكار ، تحت ريشته ، لا ترد متتابعةً ، بل تنصبّ عليه دفعة واحدة .

من هنا هذا الدَفْق الغزير الذي ما أن يُضبَط ويُوجَّه حتى يفرخ تعقيداً في تضعيف الرواية . والأديب المعروف بصلابته وتشدّده ، الذي يعمل قلمه حذفاً وإعادة ، صفحةً صفحة ، في كل قصة من قصصه دونما كلل حتى يحفر في كل منها العُمْق الذي يتوخّاه لها ، ـ نجده هنا يترك القلم على سجّيته ، تاركاً

= موريس) في مجلة **الشهرة** ، ١٢ تموز ١٨٨٦ ، وهي الأهم بين رسائله جميعاً ؟ وإذا كنا نهنّئه على تذييله الكتاب بـ **الالتماس لدى الامبراطور** ، المقدمات الثلاث لمجلة **فيرميا الرحلة إلى الخارج** حيث نقع على بعض الفقرات التي تتعلق بفرنسا ، وأخيراً بـ **بحث في البورجوازية**، فلماذا لم يضف مرافعته المؤثرة: **دفاعي** التي كتبها أثناء قضية بتراشفسكي ، وظهرت في روسيا منذ ثمانية أعوام ، ونشرتْ ترجمتها الفرنسية (فريدريك روزنبرغ) **مجلة باريس** ؟ قد يكون في بعض الملاحظات التوضيحية ، من هنا وهناك ، ما يساعد على قراءة هذا الأثر ، كذلك القول في بعض التقسيمات التي تصل ، بين حقبة وأخرى ، ما بين الفجوات الكبيرة من الإنقطاع والصمت .

Twitter: @abdullah_1395

الإستدارك ينوب عن كل ما يمكن أن يطرأ من خلل ، وذلك في سرعة متناهية ما أمكنه ذلك ؛ ولا أفضل من هذا، لقياس المسافة بين الأثر ومنشئه. الإلهام ! يا لها من خدعة رومنطيقية ! أيتها الآلهة السهلة ! أين أنت ؟ ـ « الجَلَد الطويل » ؛ لم تكن كلمة بيفون مناسبة في موضع آخر مثلما هي ـ في هذا الموضع !

كتب إلى أخيه ، أول عهده بالكتابة ، يقول : « أي مذهب هو مذهبك يا صديقي ، وكيف تُرسم لوحةٌ دفعةً واحدة ؟ متى تمّ لك الإقتناع بذلك ؟ صدقني أن العمل ، والعمل الشاق المستمر هو وحده المعوَّل . صدقني أن مقطوعة من بضعة أسطر ، رقيقة ، أنيقة من شعر بوشكين، لا تبدو وكأنها صيغت دفعة واحدة ، إلا لأنها خضعت ، تحت قلمه ، لفترة طويلة من التشذيب والتعديل . إن كل ما يأتي عفو الخاطر يأتي مفتقراً إلى النضج . قد يقال أننا لا نقع ، في مخطوطات شكسبير ، على أي أثر للحذف ؛ وجوابي أن وجود الكثير من الثغرات والنواقص لديه إنما يعود لهذا السبب ، فلو أنه بذل فيها جهداً أكبر لجاءَتْ أفضل مما هي عليه . . . ».

هذه هي لهجة رسائله جميعاً . أفضل ما في أويقاته المُلهمة ، وأجود ما في سليقته ، يردّه دوستويفسكي إلى المثابرة على العمل . لم يكن يجد لذة في كتابة الرسائل ، ويشير دوماً إلى «نفوره الرهيب من كتابة الرسائل ، نفور عجيب لا يمكن

Twitter: @abdullah_1395

دفعه » . يقول: « الرسائل من الأمور السخيفة ، ولا يمكنها ، بأي حال ، أن تفي بالتعبير عن الذات » ، وأكثر من ذلك : « أكتب لك في كل أمر ، ومع ذلك ، أرى أن أهم ما في حياتي الروحية والفكرية ، لم يجد طريقه إليك ، لا بل إنني لم أستطع أن أعطيك أية فكرة عنه . هذا ما دمنا نتوسل المراسلة . إنني لا أجيد كتابة الرسائل ، ولا أحسن الكتابة عن نفسي ، كما لا أملك التعبير عنها تعبيراً رزيناً » . وفي مكان آخر يقول : « ليس بوسعنا أن نودع الرسالة شيئاً على الإطلاق . لهذا ، لم أغبط يوماً مدام « دو سفينيه » ، فقد كانت تجيد كتابة رسائلها » ، أو يقول هازلاً : « إذا ذهبت إلى الجحيم فسأُدان لأنني كنتب أكتب عشرات الرسائل في اليوم » ، ـ وأظنها الدعابة الوحيدة في هذا الكتاب القاتم .

لم يتصدَّ للكتابة إذاً إلا بدافع من ضرورة قصوى . كل واحدة من رسائله (إذا استثنينا تلك التي تعود إلى السنوات العشر الأخيرة من حياته ، التي تختلف لهجةً عن غيرها ، وستكون لنا عودة خاصة إليها) ، هي بمثابة صرخة تقول أنه لم يعد يملك شيئاً البتة . لقد خارت قواه . . . إنه يستجدي . هل أقول صرخة ؟ لا ، بل هي أنَّةُ أسى ، رتيبة النفَس ، عميقة القرار . إنه يسأل دونما حِذْق للسؤال ، دون فخْر أو سخرية ، يسأل ولا يجيد السؤال ، يتوسَّل ، يستحثّ ، يعيد الكرة ،

Twitter: @abdullah_1395

يصرّ ، ثم يسهب في تفصيل احتياجاته . لقد ذكّرني بقصة ذلك الملاك الذي أتى فال ـ دو ـ سبوليت ، في زيّ مسافر تائه ، وأخذ يطرق باب الأخوية [1] الحديثة العهد طرقاً عنيفاً متواصلاً حتى اغتاظ منه الإخوة ، وخاطبه الأخ ماسّيو (أعتقد أنه دو فوغه) الذي فتح له أخيراً بقوله : « من أين أنت آتٍ حتى تقرع الباب بهذه الهمجية ؟» . وحين سأله الملاك : « وكيف عليّ أن أقرع ؟ » ، كان جواب ماسّيو : « تضرب على الباب ثلاث ضربات متقطعة ، ثم تنتظر . يجب أن تترك لمن يأتي ليفتح الباب الوقت الكافي لإتمام صلاته ، فإذا انقضى الوقت ولم يأتِ ، تعيد الكرّة » ـ « ذلك أنني كنت على عجلةٍ من أمري » ، أجابه الملاك .

يقول في إحدى رسائله : « أنا في حالة من العوَز تكاد تدفعني إلى الإنتحار » . ـ « لا أستطيع تسديد ديوني ، وليس بوسعي أن أسافر دون مال ، لقد تملكني اليأس كليّاً » ـ (يقول أحد أبطاله : « هل تفهم جيداً ما معنى ألاّ يملك الإنسان ثمن تذكرة سفر ؟ ») ـ ، « كتبت إلى أحد الأقارب أسأله ستمئة روبل ، فإذا لم يرسلها انتهى أمري » . إن رسائله كلها مليئة بهذه الشكاوى ، فكيفما قلّبتها تجدها أمامك . . . أحياناً ، يعاوده هذا

---

(١) جمعية دينية (المترجم) .

Twitter: @abdullah_1395

الإلحاح ، بسذاجة ، كل ستة أشهر فيقول : « لا يمكن أن يكون المال ضرورياً إلى هذا الحد إلا مرة واحدة في العمر » .

كان دوستويفسكي ، في أواخر أيامه بمثابة الثمل بهذا الخضوع الذي كان يحسن حَقْن أبطاله به ، هذا الخضوع الروسيّ الغريب الذي لا يُستبعد أن يكون مصدره مسيحياً أيضاً ، ولكنه خضوع - كما يؤكد « هوفمن » - كامنٌ في أعماق كل نفس في روسيا ، حتى في النفوس التي انعدم فيها الإيمان المسيحي ، وهو خضوعٌ لن يتوصل الغربيّ مطلقاً إلى فهمه على حقيقته ، ما دام يعتبر عزّة النفس فضيلة : « لماذا يرفضونني طالما أنني قنوع وأصلّي بتواضع » .

لكن ، ربما خدعتنا هذه الرسائل بتركيزها الدائم على جانب اليأس لدى إنسان لا يكتب إلا في لحظة يأس ؟ . . . لا : فما من مبلغ من المال ، مهما عظُم ، إلا واستنفدته الديون ، حتى أنه ، في الخمسين من عمره ، كان صادقاً حين قال : « أفنيت حياتي في العمل لكسب المال ، وطوال عمري كنت أعيش الفاقة باستمرار ، وأعيشها اليوم أكثر من أي وقت مضى » . إنها الديون . . . أو القمار ، الفوضى أو هذا السخاء الفطري اللامحدود الذي دفع رفيقه في العشرين ، ريازنكامب ، إلى القول : « دوستويفسكي هو من الذين يجعلون الحياة رغيدة لمن

Twitter: @abdullah_1395

حولهم من الناس ، بينما يبقون ، هم ، طيلة حياتهم ، يعانون الفاقة » .

ها هو يكتب في الخمسين من عمره : « هذه الرواية المقبلة (**الأخوة كارامازوف** التي لم ينهها إلا بعد تسع سنوات) ، تعذّبني منذ أكثر من ثلاث سنوات . ومع ذلك ، لم أباشر بكتابتها بعد ، لأنني أتوخّى ذلك دونما تعجّل له كما هي الحال مع آل تولستوي ، أو تورغنييف ، أو غونتشاروف . اريده ، هذه المرّة ، كتاباً متحرّراً من أسْر توجهه إلى حقبة محدّدة من الزمن » ، لكنه يقول دون جدوى : « لا أجد مبرراً للعمل الذي يُنْجز سريعاً طلباً للمال » . مسألة المال هذه ، وتخوّفه من التخلّف عن إتمام العمل في وقته المحدَّد ، عاملان دائما التأثير في عمله : « أخشى ألا يكون الأثر جاهزاً ، أخشى التأخر . لم أكن أقصد أن أفسد الأمور بسرعتي . صحيح أن التصميم قائم ومدروس، ولكن العجلة قد تتلف كل شيء »

هذا التخوّف ، يتولّد عنه إرهاق هائل لأنه ، ولو كان يضع عزّة نفسه على محكّ هذا الوفاء المضني ، فإنه يفضّل أن يهلك من التعب على أن ينشر عملاً ناقصاً . في أواخر أيامه ، أصبح بإمكانه القول : « لقد قمت ، خلال حياتي الأدبية كلها ، بالوفاء بتعهداتي خير قيام ، لم أقصّر فيها مرة واحدة ، ولم أكتب يوماً طلباً للمال فحسب ، وإتماماً لالتزام أخذت نفسي به» .

Twitter: @abdullah_1395

قبل هذا الكلام ، وفي الرسالة ذاتها يقول : « لم أسخّر مخيلتي مطلقاً للمال ؛ لم أجهد نفسي أبداً في اختلاق موضوع توصّلاً الى هدف محدّد سلفاً . لم أكن ارتبط بعهد ـ أو بعقد مالي ـ ما لم يكن الموضوع حاضراً في ذهني قبل ذلك ، وما لم أجد رغبة حقيقية في الكتابة ، شعوراً مني بضرورة الخوض في هذا الموضوع » ، بحيث أنه حين يكتب في إحدى رسائله الأولى ، وهو في الرابعة والعشرين ، قائلاً : « مهما يكن من أمر ، فقد آليت على نفسي أن أصمد بثبات ، وألا أسخّر قلمي لأحد ، ولو انحدرت إلى أقصى حدود الحرمان . الكتابة « تحت الطلب » تقتل ، تفقد الإنسان كل شيء ؛ أريد لكل أثر أن يأتي جيداً من ذاته » ، ـ حين يردُ لديه مثل هذا الكلام ، يمكننا القول ، دونما كثير فطنة ، أنه ، رغم كل شيء ، قد التزم كلامه .

لكنه بقي ، طوال حياته ، على اقتناع أليم أنه لو توفّر له المزيد من الوقت والحرية ، لكان بإمكانه أن يدفع فكره إلى آفاق أرحب : « ما يؤلمني أشدّ الألم ، أنني لو كنت استنفد في كتابة الرواية سنة من الزمن ، ثم أمضي شهرين أو ثلاثة في النسخ والتنقيح ، لكان الأمر مختلفاً تماماً » . هل هو وَهْم ؟ من يدري ؟ فلو توفّر له الوقت المطلوب ، فماذا ستكون النتيجة ؟ إلامَ كان يتطلع ؟ ـ لا شك أنه كان يبحث عن المزيد من

Twitter: @abdullah_1395

البساطة ، عن ترابط أمْثَل بين التفاصيل . . . إن الجيّد من آثاره ، كما هي أمامنا الآن ، يرقى ، في كل جزء منه تقريباً ، إلى قمة من الدقة والوضوح يصعب تجاوزها

كم بذل من جُهْد للوصول إلى هذا المستوى ! « لا يأتي دفعة واحدة إلا ما يتعلق بلحظات الإلهام ، وما سوى ذلك فمن مآتي العمل الدائب الشاق » . كتب إلى أخيه الذي كان ، كما يبدو ، يأخذ عليه عدم قدرته على الكتابة **بسهولة** ، ظاناً أن أخاه يقصد القول : **بسرعة** ، وأنه يلومه على عدم « الإنسياق مع الإلهام » ـ وكان حينذاك لا يزال في الشباب ـ ، كتب إليه يقول : « واضحٌ أنك تَخْلط ما بين الإلهام ،أي الإبداع في شكله الأوليّ الخاطف ، أو حركة النفس (وهذا ما يحصل غالباً) ، والعمل . مثلاً ، يتراءى لي مشهد ما في هذه اللحظة ، فأدوّنه كما تراءى لي ، مأخوذاً بحضوره . تنقضي أشهر بعد هذه الرؤية أو تنقضي سنة وأنا أعمل فيه . . . صدقني أن النتيجة تأتي أفضل ما يمكن ، شرط أن يهبط الإلهام ؛ طبيعيٌ أنه دون حلول وحيه ، لا يمكن ابداع أي شيء » . هل أعتذر لكم لإكثاري من الإستشهادات ، أم أن الإمتنان سيطغى إذا ما تركت الكلام لدوستويفسكي أطول وقت ممكن ؟ « في البدء ، أي قبل انتهاء السنة المنصرمة بقليل (الرسالة مؤرخة في تشرين الأول ، ١٨٧٠) ، كنت اعتبر هذا الأمر مدروساً ومنتهياً ، وكنت أنظر

Twitter: @abdullah_1395

اليه نظرة ازدراء (المسكونون) . ثم يأتيني الإلهام الحقيقي ، وإذا بي أتعلّق بهذا الأثر فجأة ، واتشبّث به بكلتا يديّ ؛ ثم رأيتني أجري القلم على ما كنت سطرته فيه » . ويقول أيضاً : « لم أقمْ ، طيلة العام (١٨٧٠) ، سوى بالحذف والتعديل . . . لقد تغيّر التصميم عشر مرّات على الأقل ، وأعدت كتابة القسم الأول كله . منذ ثلاثة أشهر كنت في حالة يأس ، ثم انتظم كل شيء دفعةً واحدة ، وأمسى غير قابل للتغيير » . ودوماً ، تستحوذ عليه هذه الفكرة : « لو توفّر لي الوقت للكتابة دونما استعجال ، أو أجل محدد ، لكان من الممكن الإتيان بعمل جيد » .

هذا القلق ، وهذا التبرّم بالذات ، كان يعانيهما مع كل كتاب :

« الرواية طويلة ؛ تضم ستة أقسام (الجريمة والعقاب) . في نهاية تشرين الثاني ، كنت قد انهيت قسماً كبيراً منها ، لكنني عدت فأحرقت كل شيء . أعترف الآن أن ما كتبته لم يكن يروقني . كان هناك إطار جديد ، ومخطط جديد يراودان مخيلتي ، فأعدت الكرّة. أنا الآن أعمل ليل نهار ، ومع ذلك أتقدم ببطء » . وفي رسالة أخرى يقول : « أنا أعمل ، لكن لا إنتاج البتة لا عمل لي سوى تمزيق ما أكتب. لقد شارفت هاوية اليأس » . وفي موضع آخر : « لقد جعلتني كثرة العمل بليداً .

Twitter: @abdullah_1395

أشعر أن عقلي متعطّل تماماً » ، وأيضاً : « أنا قائم على العمل في هذا الكتاب (ستاريا روسّا) كالمحكوم بالأشغال الشاقة ، صادفاً عن أيام الشباب التي ينبغي أن أتمتع بها ، فأنا منكبّ على العمل ليلاً ونهاراً » .

إن مقالة بسيطة أحياناً ، تسّبب له من العناء بقدر ما يسبّبه كتاب بأكمله . ذلك أن بوابة فكْره الحديدية تبقى مستعصية عليه أمام الأمور الصغيرة ، كما أمام الكبيرة منها :

« ما زلت أتهرّب منها حتى الآن (مقالة لم يُعْثر عليها عن ذكرياته مع بيلنسكي) لكنني أنْهيتها أخيراً صارفاً بأسناني . . إن كتابة عشر صفحات من رواية ، لأسهل من كتابة هاتين الصفحتين . لقد أعدت كتابة هذا المقال اللعين خمس مرات على الأقل ، وكنت ، في أثناء ذلك ، أدخل عليه التعديل تلو التعديل حتى أتممته أخيراً كيفما اتفق . . . لكنّ رداءته تدمي الفؤاد » . إنه ، ولو أدركته قناعةٌ عميقة بقيمة أفكاره ، يظلّ متبرماً ، طامحاً إلى الأفضل حتى في أفضل كتاباته .

« نادراً ما أقع على ما هو أكثر حدّة واكتمالاً وأصالةً من هذه الرواية (كارامازوف) . أقول ذلك دونما غرور . لأنني لا أقصد بهذا الكلام سوى الموضوع والفكرة ، ولا شأن لي بالتنفيذ ،

Twitter: @abdullah_1395

فأمره يعود إلى الله . وقد أفسده أنا كما كان يحصل في الغالب . . . » .

« مهما يكن ما أكتبه تافهاً وكريهاً، فإن فكرة الرواية والعمل الذي أخصها به ، هما ، بالنسبة إلي ، أنا الكاتب التعيس، أغلى ما في هذا الوجود .

حين كان يعمل في **الأبله** كتب يقول : « إن استيائي من روايتي هذه يبلغ حدّ القرف . إنني ألزم نفسي بالعمل ، وأحمّلها فوق وسعها . لقد أصبح قلبي ضعيفاً . حالياً ، أقوم بجهد أخير لإتمام القسم الثالث . إذا وفّقت في ترتيب الرواية أستردّ أنفاسي ، وإلا وقعت في الضياع » .

كان قد أنهى الكتب الثلاثة التي عدّها دو فوغه قمة إنتاجه ، وأنهى أيضاً **الروح الخفي** ، **الأبله** ، **والأزلية مريم** ، حين كتب ، وهو منكبٌّ على مؤلَّفٍ جديد (**المسكونون**) ، يقول : « لقد آن الأوان أخيراً للخوض في أمور جدّية » .

وفي رسالة كتبها سنة وفاته إلى الآنسة ن . . . ، التي يراسلها للمرة الأولى : « أعلم أنني ، ككاتب ، أقع في كثير من الأخطاء ، لأنني في الطليعة ، وأنا غير راضٍ عن نفسي البتة . تصوّري أنني في بعض من أويقات الإختبار الذاتي ، غالباً ما اكتشف بأسىً ، أنني لم أوفق إلى التعبير عن جزءٍ من عشرين

Twitter: @abdullah_1395

مما كنت أريد ، وربما أستطيع التعبير عنه . إن ما ينتشلني من هذا العَجْز هو الأمل المألوف في أن يمدّني الله يوماً بالقوة والإلهام الكافيين ، وأن أصل إلى مستوى من التعبير أكثر اكتمالاً ، وأنْ أقوى ، باختصار ، على عَرْض كل ما يضجّ به قلبي ، وتزخر به مخيلتي » .

لكم هو مختلف عن « بلزاك » بيقينه وشوائبه الرفيعة ! و« فلوبير » ، هل تُراه عانى ، هو الآخر ، تطلّباً بهذه الحدّة ، أو قاسى صراعات بهذه القسوة ، وإسرافاً في العناء بمثل هذا الهَوَس ؟ لا اعتقد ذلك . ان تطلّب « فلوبير » يتجاوز به إطار الأدب . وإذا كانت حكاية كدّه تحتلّ مكان الصدارة في رسائله ، فلأنه مفتون بهذا الكدّ نفسه ، ولأنه ، بعيداً عن أن يجعل من هذه الصفة موضوع تبجّح ، قد وَجد في الكدّ ما يدعو إلى الفخر . وهو ، من ناحية ثانية ، قد أهمل كل ما تبقى ، معتبراً الحياة « شيئاً كريهاً للغاية ، الوسيلة الوحيدة لاحتماله هي تجنّبه » .

أما دوستويفسكي فلم يهمل شيئاً ؛ فهو متزوج ، وله أولاد ، يحبّ عائلته ولا يحتقر الحياة أبداً . ها هو يكتب عند خروجه من السجن : « على أي حال ، لقد كنت حياً ؛ تعذبت بالفعل ، لكنني ، رغم هذا العذاب ، كنت أحيا » . ومع أن تفانيه في سبيل فنّه كان بعيداً عن الغطرسة ، وينقصه الوعي والتصميم ،

Twitter: @abdullah_1395

فان ذلك لم يحل دون أن يأتي أكثر مأساوية وجمالاً يستشهد بقول لـ « تيرنس » إذ يرفض أن يفوته شيء مما يتعلق بالإنسان : « ليس من حق الإنسان أن يجهل ما يجري على سطح الأرض ، أو أن يشيح بوجهه عنه ، ولذلك أسباب خلقية رفيعة .

إن دوستويفسكي لا يتهرّب من آلامه ، بل يتحملها بكل ثقلها ووطأتها . يكتب ، حين يفقد زوجته الأولى وبعد أشهر أخاه ميخائيل : « ها أنا ألفيت نفسي وحيداً فجأة . شعرتُ بالرهبة . صارت الحياة لا تطاق . لقد انشطرت حياتي شطرين : الماضي ، من جهة ، مقترناً بكل ما من أجله حييت ، ومن جهة ثانية المجهول الذي لا أتبيّن في سرابه خفْقة قلب واحدة ، أستعيض بها عن الغائبين . لم يبقَ ثمة ما أحيا من أجله . هذا هو الواقع بعينه . علاقات جديدة ؟ مجرَّد التفكير في هذا يثير الهَلَع في نفسي . هكذا ، شعرت للمرة الأولى أنني لا أملك ما يحلّ محلهما ، وانني ما أحببت سواهما في هذه الدنيا ، وأن حباً جديداً ليس غير وارد فحسب ، بل لا ينبغي له أن يرد » . لكن ، بعد خمسة عشر يوماً يكتب : « بقي لي من كل ما احتفظ به في نفسي من قوة وطاقة ، بعضُ من نشاطٍ مضطربٍ غامض ، قريبٍ من اليأس . أنا في حال غير سوية على الإطلاق ، ينوشها الإضطراب والمرارة ، وفوق كل

Twitter: @abdullah_1395

ذلك ، أنا وحيد ! . . . ومع هذا ، يبدو لي أنني أتهيَّأ للحياة باستمرار . . . أمرٌ مضحك أن يمارس الإنسان حيوية الهررة ! أليس كذلك ؟ » كان له من العمر حينذاك أربع وأربعون سنة ، وبعد أقلّ من سنة ، تزوّج من جديد .

الثامنة والعشرين من عمره ، كان في السجن الإحتياطي منتظراً نَقْله إلى سيبيريا، كان يصرخ : « أرى الآن أنني أملك في ذاتي من المؤونة للحياة ما يتعذّر نفاده » . وفي السادسة والخمسين ، يكتب من سيبيريا أيضاً ، ولكن بعدما أنهى الأشغال الشاقة وتزوّج الأرملة ماري دميتريفنا : « ليس الحاضر كالماضي . إنني أضع في عملي الكثير من التفكير والجهد والنشاط . هل يعقل أن أبذل ، خلال ست سنوات ، مثل هذه الجهود ، وأبدي مثل هذه الشجاعة في الكفاح ، مع ما رافق ذلك من آلام تفوق الوصف ، ألا أستحق أن أحصل من المال على ما يعيلني وزوجتي ؟ تبّاً للحياة ! لا أحد يقدّر قيمة قواي . أو يدرك مستوى امكاناتي ، وإن اعتمادي ، على وجه الخصوص ، هو على هذه القوى والإمكانات ! » .

لكن البؤس ليس هو الشيء الوحيد الذي عليه أن يكافح ضده !

« أعمل بعصبية معظم الوقت ، وطوال الوقت ، يلازمني الألم

Twitter: @abdullah_1395

والغمّ . حين أكثر من العمل ، ينتابني المرض حتى تظهر أعراضه في جسدي » . « الأيام الأخيرة ، عملت ليلاً ونهاراً ، رغم نوبات المرض » . « تستنفدني النوبات ، وبعد كل واحدة ، تلزمني أربعة أيام لتستقيم أفكاري من جديد » .

لم يكن دوستويفسكي ليتجاهل مرضه ، فإن صراعه مع « داء النقْطة » كان شديداً ومتواتراً ، حتى أن المرض كان يصرعه بحضور كثير من الأصدقاء اللامبالين ، يعرض لنا « ستراكوف » في مذكراته أحد هذه العوارض دون أن يدرك بما يفوق به إدراك دوستويفسكي نفسه ، أن إصابة الإنسان بداء الصرع تعرّضه لنوع من الشعور بالخجل ، أو حتى بـ « النقص » المعنوي أو العقلي يختلف عن الشعور الناجم عن وجود عقبةٍ في العمل يصعب التغلب عليها . حتى أن دوستويفسكي كتب إلى إحدى المجهولات من اللواتي يراسلهنّ للمرة الأولى معتذراً عن تأخره في الردّ ، يقول بكل بساطة وعفوية : « تعرّضت من دائي لثلاثة عوارض ما لم يحصل بهذه القوة إلا نادراً جداً . وبعد انفكاك هذه العوارض عني أفقد قدرتي ، يومين أو ثلاثة أيام ، على العمل والكتابة ، أو حتى على القراءة ، لأنني أكون قد تحطمت نفساً وجسداً . لهذا السبب الذي بتيً تعرفينه الآن ، أرجو أن تقبلي إعتذاري لتخلّفي في الرد على رسالتك هذا الوقت الطويل » .

Twitter: @abdullah_1395

هذا المرض ، الذي كان يعاني آلامه قبل نقله إلى سيبيريا، ازداد سوءاً في سجن الأشغال الشاقة ، وما أن خفّت حدّته قليلاً ، في أثناء إقامة قصيرة في الخارج ، حتى عاد فتفاقم من جديد . كانت النوبات تأتيه أحياناً على موجات متباعدة ، لكن أكثر عنفاً . « عندما تنأى المسافة بين نوبة وأخرى ، ثم تدهمني نوبة على حين غرّة، تحاصرني سويداء غريبة ، وأغرق في القنوط . في الماضي (رسالة في الخمسين) ، كانت هذه الحالة تستمر أياماً ثلاثة بعد النوبة ، أما الآن فأصبحت تدوم سبعة أيام أو ثمانية » .

كان يحاول ، رغم عوارض المرض ، أن يتشبث بعمله ، فكان يجهد نفسه مدفوعاً بالوفاء بالتزاماته : « أعلن نيسان موعداً لتسليم ما تبقّى (من **الأبله**) ، ولم أكتب منه بعد سوى فصل عديم الأهمية . ماذا أرسل لهم ؟ لا أدري . أول أمس ، صرعتني نوبة ، من أكثر النوبات عنفاً . ومع هذا ، قمت البارحة بالكتابة في جو عابق بالجنون » .

« ولكن ، للأسف ، أصبحت في وضع لا يسمح لي بالعمل السريع كما في السابق » . إنه يشكو ، في مناسبات عدّة من ضعف الذاكرة وعقم المخيّلة . وفي الثامنة والخمسين من عمره ، قبل موته بسنتين ، يكتب : « ألاحظ منذ زمن بعيد ، أنني كلما تقدّمت في السنّ ، ازداد عملي تعثراً . في هذا الجو،

Twitter: @abdullah_1395

لا تسلْ عن الأفكار السوداء التي لا تنفع معها المؤاساة . . . » . بيد أنه منكبٌّ، مع ذلك ، على كتابة **الإخوة كارامازوف** .

السنة الماضية ، وفي أثناء نشر رسائل « بودلير » انتفض السيد « مندسْ » محتجاً على ذلك احتجاجاً لا يخلو من مبالغة ، مستنداً في ذلك إلى مبررات أخلاقية . . الخ . خطرتْ في بالي ، وأنا أقرأ رسائل دوستويفسكي ، هذه الكلمة الرائعة المنسوبة إلى المسيح نفسه ، والتي كشف النقاب عنها حديثاً : « حين تسيرون عراة من جديد ، ولا تشعرون من عُرْيكم بالخجل ، عندها تعرفون ملكوت الله » .

ثمة دوماً ادباءٌ من ذوي الشعور « المُرْهَف » والإحتشام السريع ، يفضّلون ألاّ يروا من العظماء إلا نصفهم الأعلى ، ويثورون لنشر الأوراق الحميمة والرسائل الخاصة . ويبدو أنهم لا يرون من هذه الرسائل الا ما يمكن أن يجنيه ضيّقو الأفق من لذة خادعة إذ يرون أن العظماء يستوون وإياهم على مستوى واحد من الضعف . حينذاك ، يبدأ الكلام على إفشاء الأسرار ، وإذا كان الأديب ذا أسلوب رومنطيقي ، فإنه يحكي عن « انتهاك حُرْمة القبور » ، وفي أدنى الإحتمالات ، عن **التطفّل** « المؤذي » . يقولون : « ما لنا ولحياته ! المهم هو الأثر » . - بالتأكيد ! لكن المدهش (وهذا الرأي هو زبْدة تجارب غنية) ، **أن يكون أنجز هذا الأثر على الرغم من تلك الحياة** .

Twitter: @abdullah_1395

بما أنني لم أضع نصب عينيّ كتابة سيرة حياة دوستويفسكي ، بل قصدت إلى رسم صورة له بالعناصر التي توفّرها رسائله ، لم أشر ، لهذا السبب ، إلا إلى العوائق المركبة في طبيعته ، والتي يمكنني ، استناداً إليها ، أن أتبيّن أسباب هذه التعاسة الدائمة ، الوثيقة الصلة به ، التي يبدو أنها تستجيب لمتطلبات طبيعته . . .

لكن كل شيء تألّب عليه ؛ منذ البداية ، اختير هو ، رغم طفولته السقيمة ، للخدمة العسكرية ، بينما أعفي أخوه ميخائيل ، الأصلب عوداً ، من الخدمة . ثم ألقي القبض عليه وحكم بالإعدام على الشبْهة . وقد نجا بما يشبه المعجزة من الإعدام ، وأرسل إلى سيبيريا ليمضي فيها عقوبته حيث بقي عشر سنوات : « أربعاً منها أمضاها في الأشغال الشاقة ، والستّ الباقية في الجيش ، في سميبالاتينسك . هناك ، تزوّج من أرملة السجين أيسّاييف ، دون أن يكون بينهما ، كما اعتقد[1] ذلك الحب الكبير ، بالمعنى الذي نفهمه عادة من هذه العبارة ، بل

---

(١) « آه ، يا صديقي ! كانت تحبني حباً جماً ، وكنت أبادلها هذا الحب . ومع ذلك ، لم نكن سعداء معاً . سأخبرك بكل هذه الأمور حين أراك في ما بعد . يكفي أن تعلم أنه ، رغم تعاستنا الكبرى معاً . (بسبب طبعها الغريب ، بوساوسه وشذوذه المرضي) ، لم يكن حبنا ينقطع ، بل كنا ، كلما ازداد شقاؤنا ازداد تعلّق أحدنا بالآخر . مهما يبدو الأمر غريباً ، فلقد كان كذلك » (رسالة إلى « فرانجل » بعد وفاة زوجته) .

Twitter: @abdullah_1395

كان حب يحمل في ثناياه إضافة إلى العطْف الطاغي، الشفقة والحنان، كما يقترن بحاجةٍ إلى تفانٍ ما، وبنزوع طبيعي إلى تحمل الأعباء وعدم التراجع أمام أية مسؤولية.

وكان لهذه المرأة ولدٌ كبير خامل لا يصلح لشيء، بقي مذّاك عالةً عليه. «إذا سألتَني عن نفسي، فبمَ أجيبك؟ ـ أحمل هموم ربّ البيت، وأصطحبها معي أينما ذهبت. لكنني أعتقد أن ساعتي لم تأتِ بعد، ولا أريد أن أموت». إنه يحمل أيضاً هموم عائلة أخيه ميخائيل، التي خلّفها له بعد موته. وعلى عاتقه صحف ومجلّات تبرز إلى الوجود كلما توفّر في جيبه بعض المال، وبالتالي متسع من الوقت يسمح له بالاهتمام بها، وبإدارتها [1]. «كان ينبغي إعتماد تدابير حازمة. بدأت أنشر في ثلاث مطبوعات في آن واحد. لم أبخل بمالٍ أو صحّة أو جهد، كنت أدير كل شيء وحدي: أقرأ الأوراق الأولية (البروفات)، اتصل بالمؤلفين وبالرقابة، أصحح المقالات، أبحث عن المال، وأبقى منتصباً على رجليّ حتى السادسة صباحاً، ولا أنام سوى خمس ساعات، نجحت أخيراً في تنظيم المجلة، لكن الوقت كان قد فات». لم تنج المجلة من الإفلاس. «الأسوأ من ذلك، أنني، رغم هذا العمل

(١) «ليدافع عن الأفكار التي يخال انه يملكها» كما يقول «دو فوغه».

Twitter: @abdullah_1395

المُضني ، لم أكن أتمكن من كتابة كلمة واحدة للمجلة . لم يكن إسمي يظهر على صفحاتها ، ولم يكن الناس يعرفون أنني أنا من يدير المجلة ، لا في المقاطعات ولا في بترسبورغ» .

ما همّ ! إنه يستعيد نشاطه ، يصرّ على المتابعة ، ويعيد المحاولة . لا شيء يغلّ عزيمته أو يقف في وجهه . على أنه كان عليه ، في السنة التي سبقت وفاته ، أن يمضي في الكفاح ، لا ضد الرأي العام الذي كسبه نهائياً إلى جانبه ، بل ضد حملات الصحف : « انظروا كيف عاملتني الصحافة ، كل الصحافة عندنا ، بسبب ما قلته في موسكو (خطبة عن بوشكين) ، وكأنني قمت بعملية سرقة أو احتيال في أحد البنوك . إن أوخانتسف نفسه (محتال شهير في ذلك الوقت) ، لم يتلقَ من الإهانات ما تلقيت .

دوستويفسكي لا يطلب مكافأة من أحد ، كما أن سلوكه ليس ناجما عن الكبرياء أو الغرور الذي يتميّز به الكتّاب . لا أدلّ على ذلك من الأسلوب الذي استقبل به نجاحه الباهر في بداية حياته الأدبية : « مضت ثلاثة أعوام على عملي في الأدب . إنني في ذهول تام ، لا أتبيّن شيئاً ولا وقت لديّ للتفكير . لقد خلقوا لي شهرةً تدعو إلى الشك ، ولا أدري إلامَ يطول هذا العذاب» .

Twitter: @abdullah_1395

إنه متنقع تمام الإقتناع بقيمة أفكاره التي تمتزج بقيمته كإنسان وتذوب فيها . يكتب إلى صديقه فرانجل قائلاً : « ماذا صنعت لك حتى تبدي نحوي كل هذا الودّ ؟» . وفي أواخر أيامه يكتب إلى امرأة مجهولة : « تعتبرينني إذاً من الذين يغيثون القلب ، ويروّحون عن النفس ، ويطردون الألم ! كثيرون هم الذين يكتبون إليّ بهذا المعنى . أما أنا فمتأكد أنني خليقٌ بإثارة الخَيْبة والنفور أكثر من أي شيء آخر » . ومع ذلك ، فحين يكتب إلى أخيه من سيبيريا، يظهر جلياً أية رقّة هي تلك التي تعمر حنايا هذه النفس الموجعة :« أحلم بك كل ليلة ، ويدهمني قلقٌ امْرُعب عليك . لا أريدك أن تموت . حبيبي . أريد أن أراك مرةً بعْد في حياتي ، وأعانقك . بحق المسيح ، طمئنّي عن صحتك ؛ هل أنت بخير؟ اتركْ مشاغلك وهمومك كلها ، واكتبْ إليّ في الحال ، في هذه اللحظة ، لأنني ، إذا لم تفعل ، أفقد عقلي » .

تُرى ، هل سيجد دوستويفسكي هنا بعض العَوْن ؟

« إكتب إليّ سريعاً ، وبالتفصيل؛ كيف ألفيت أخي (رسالة إلى البارون « فرانجل » من سميبالا تينسك في ٢٣ آذار ، عام ١٨٥٦) ماذا يقول عني ؟ في الماضي ، كانت يحبني حبّاً عظيماً ، وقد بكى وهو يودّعني . ترى ، هل خمدت عاطفته نحوي ؟ هل تغيّرت طباعه ؟ كم سيكون هذا محزناً !... هل نسي الماضي

Twitter: @abdullah_1395

برّمته ؟ لا أحتمل التصديق . ولكن ، كيف أفسّر انقطاعه عن الكتابة إليّ سبعة أشهر أو ثمانية [1] ؟ . . . ثم إنني أرى أن مودّته قد خبتْ وهذا يذكّرني بزمن مضى ! لن أنسى مطلقاً ما قاله لـ خـ . . . الذي أبلغه طلبي إليه أن يهتمّ بأمري : « **الأفضل له أن يبقى في سيبيريا** » . صحيح أنه قال هذا ، لكنه يعود فيلتمس نسيان هذه العبارة الجارحة . فرسالته الرقيقة إلى ميخائيل التي أوردت مقطعاً منها منذ قليل ، كتبت بعد هذه الأخيرة . ولا يمضي طويل وقت حتى يكتب إلى « فرانجل » :

---

(١) بقيت أخبار أهله منقطعة عنه طيلة السنوات الأربع التي قضاها في سجن الأشغال الشاقة . وفي ٢٢ شباط ١٨٥٤ ، أي قبل إطلاقه بعشرة أيام ، كتب إلى أخيه أولى رسائله من سيبيريا ، الأولى التي نعرفها ، وهي رسالة رائعة لم أعثر عليها ، بكل أسف ، بين مجموعة « بيانستوك » : « أخيراً أصبح بوسعي محادثتك مدة أطول ، وبثقة أكبر ، كما يخيّل إليّ . . . لكن ، قبل كل شيء ، دَعْني أسألك ، بحق السماء ، لماذا لم تكتب إلي ، حتى الآن ، كلمة واحدة ؟ لم أتوقّع ذلك منك يوماً ، لكم كنت أشعر ، وأنا قابع في وحدة سجني ، باليأس القاتل حين أفكّر أنك قد تكون رحلت عن هذا الوجود ، وكنت أمضي ليال بأكملها مفكراً بمصير أولادك ، وألعن القدر الذي يمنعني من أن أمدّ لهم يد العون . . هل حال أحدٌ بينك وبين الكتابة إليّ ؟ ولكن هذا مسموح به . فالسجناء السياسيون يصلهم جميعاً العديد من الرسائل في العالم . لكنني أعتقد أنني اكتشفت السبب الحقيقي لصمتك ؛ إنه خمولك بالفطرة . . . » .

Twitter: @abdullah_1395

« قلْ لأخي أنني أضمّه بين ذراعيّ ، وأطلب إليه أن يسامحني عن كل ما سبّبت له من آلام . قلْ له أنني أجثو أمامه على ركبتي » . أخيراً ، يكتب إلى أخيه نفسه في ٢١ آب ١٨٥٨ (رسالة لم ترد لدى « بيانستوك ») : « حين أسمعتكَ في رسالة تشرين الأول من السنة الماضية الشكاوى ذاتها ، أجبتني بقولك أن قراءتها كانت أمراً جدّ شاق عليك . . لا تحقد عليّ يا ميشا بحق السماء . فكّر أنني ، كحصاة مُهْملةٍ . . . وأن طباعي كانت دائماً سوداوية مريضة وتميل إلى التشكيك . فكِّر في كل هذا والتمس لي العذْر إذا ما كانت شكواي غير محقّة ، أو إذا افترضت أموراً لا وجود لها . أنا نفسي مقتنع تماماً أنني كنتُ على خطأ » .

لا ريب أن « هوفمن » كان على حق . فالقارىء الغربي لن يروقه هذا الإعتذار المثخن بالتواضع ، لأن أدبنا قد وضع في أذهاننا أنّ من نُبْل الطباع ألا تُغْفر الإساءة .

ـ ماذا يقول إذاً ، هذا « القارىء الغربي » ، حين يقرأ : « تقول أنت أن جميع الناس يحبون القيصر . أما أنا فأقول : إنني أعبده » ؟ كان دوستويفسكي لا يزال في سيبيريا حين كتب هذا . هل هي السخرية ؟ لا ؛ إنه يؤكد على هـذا المعنى في عدة رسائل : « الإمبراطور طيّب لا حدود لطيبته ، سَمْح لا حدود لسماحته » . وحين جاء ، بعد عشر سنوات من النفْي ، يلتمس

Twitter: @abdullah_1395

لنفسه السماح بالعودة إلى سان ـ بترسبورغ ، ولصهره « بول » العمل في المعهد الرياضي ، في آن معاً ، يكتب : « فكرّت في أنه إذا رفض لي طلباً فلربما قبل الآخر ، وإذا لم يتكرّم الإمبراطور بالسماح لي بالعيش في بترسبورغ ، فقد يسمح توظيف بول ، لئلا يرفض لي كل شيء » .

أمرٌ محيِّر ولا ريب أن يبلغ الخضوع بدوستويفسكي هذا الحد ، وهو موقف لا يفيد منه العدميون ولا الفوضويون ولا حتى الإشتراكيون [1] . ماذا ؟ لا صرخة تمرّد ولو خافتة ؟ وإذا لم تكن ضد القيصر ، الذي ربما كان من الفطنة احترامه ، فعلى الأقل ضد المجتمع ، وضد هذه الزنزانة التي أفنت أيامه ؟ ! استمعوا إليه يتحدث عنها : « لن أخبرك بما طرأ على نفسي ومعتقداتي ، على فكري وقلبي ، في غضون هذه السنوات الأربع ، فالحديث يطول . لكن التأمل المستمر الذي كنت أهرب إليه من واقعي الأليم ، لم يكن عديم الجدوى . تحدوني الآن آمالٌ وأمانٍ لم أكن أتبيّنها في ما مضى [2] » .

وفي موضع آخر : « أرجوك ألا تفسح لنفسك مجال التصوّر

---

(١) Nihilistes, Anarchistes, Socialistes.

(٢) رسالة إلى ميخائيل بتاريخ ٢٢ شباط ١٨٥٤ ، وهي غير واردة في كتاب « بيانستوك » .

Twitter: @abdullah_1395

انني لا أزال غارقاً في الكآبة والشكوك كما كنت في ترسبورغ في السنوات الأخيرة . مضى كل هذا إلى غير رجعة والله المعين » .

وأخيراً، وبعد مدة طويلة ، يرد هذا الإعتراف العجيب في رسالة إلى س .د. جانوفسكي تعود إلى سنة ١٨٧٢ (دوستويفسكي نفسه هو الذي أشار إلى الكلمات البارزة) : « كنت تكنّين لي الحب ، وتعتنين بي ، أنا المريض في عقلي (لأنني تحققت منه الآن)، قبل رحيلي إلى سيبيريا، حيث تمّ لي الشفاء » .

لا أثر لأي إحتجاج كما نرى ! بل الإمتنان هو الطاغي ! إنه أيّوب الذي تسْحقه يد الله . دون أن تطفر من قلبه كلمة تجديف . . لكنه شهيد يدفع إلى التخاذل . فأين هو الإيمان الذي يحيا من أجله ؟ وأية قناعات هي تلك التي يعتنق ؟

ـ لربما ، إذا ما تفحّصنا آراء دوستويفسكي كما تتراءى في ثنايا رسائله ، تتحصّل لدينا الأسباب ـ التي بدأت ظلالها تلوح ـ لهذه الخيبة ، لهذه الخطوة المفتقدة ، ولمطهر المجْد الذي لا يزال يتعثّر في جنباته . .

Twitter: @abdullah_1395

(٢)

يقول دوستويفسكي ، وهو غير الحزبي والذي يخشى الروح الحزبية المولِّدة للإنقسام : « الفكرة التي تشغلني أكثر من غيرها ، هي معرفة النقاط التي يمكن أن نلتقي عندها جميعاً ، إلى أية فئة إنتمينا ، ومعرفة على أية أسس تقوم المشاركة في الأفكار » . كان يعمل ، وهو المقتنع اقتناعاً عميقاً بأن « التناقضات الأوروبية كافة إنما تجد حلّها في الفكر الروسي » . كان يعمل بكل قواه ، وهو « الروسي الأوروبي الهرم » ، كما كان يسمّي نفسه ، لهذه الوحدة الروسية حيث ينبغي أن تذوب الأحزاب كافة ، مدفوعة بمحبة عارمة للوطن والإنسانية .

كتب من سيبيريا يقول : « نعم ، أشاطرك الرأي في أن روسيا ستكمل دور أوروبا ، بوحي من رسالتها بالذات . اتّضح لي هذا منذ زمن بعيد » . إنه ينظر إلى الشعب الروسي كـ « أمة خالية » بإمكانها أن تتصدر الاهتمامات المشتركة للإنسانية جمعاء . وإذا كان قد زاغ عن الواقع في تقديره أهمية الشعب الروسي (وهذا ليس رأيي مطلقاً) ، بسبب قناعة مبتسرة ليس

Twitter: @abdullah_1395

إلاّ ، فإنّ هذا لايعود إلى تبجّح شوفيني ، بل ، كما يعتقد هو ، إلى الحدس النافذ الذي يتحلى به كروسي ، في وعيه الأسباب والدوافع التي تقف وراء الأحزاب التي تمزق أوروبا . وحين يتحدث عن بوشكين يفخر بـ « مَلَكة المعاناة الشاملة » عنده ، ثم يضيف : « هذا الإستعداد يشاطره إياه شعبنا كله . من هنا كونه قومياً » ، ويعتبر النفس الروسية « الأرض التي تلتقي عليها كافة الإتجاهات الأوروبية وتتصالح » . ويهتف عالياً : « أين هو الروسيّ الحقيقي الذي لا يتجه تفكيره ، قبل كل شيء إلى أوروبا ! » . ويمضي في هذا التيار حتى يصل إلى هذا القول العجيب : « إنّ المتشرّد الروسيّ محتاجٌ للسعادة الشاملة حتى يسكن خاطره » . إنه يوجّه أنظاره دوماً إلى الخارج ، من وحي اقتناع « إن الطابع المستقبلي للتعطّش الروسي ينبغي أن يكون شاملاً إلى أقصى حد ، وأن الفكرة الروسية ربما أصبحت مصهر كل الأفكار التي تعمل أوروبا على نشرها بكثير من الجد والإندفاع بين قومياتها المختلفة » . إن أحكامه السياسية والإجتماعية ، المتعلّقة بفرنسا وألمانيا ، هي ، بالنسبة إلينا ، أهم ما ينبغي التوقف عنده من هذه الرسائل . لقد تنقّل بين ايطاليا وسويسرا وألمانيا ، ومكث في كل منها مدّة ، إستجابة لرغبته في التعرف إلى هذه البلدان في البداية ، ومن ثم استجابة لوضعه المالي : فإما أنه لم يكن يملك من المال ما يكفي لمتابعة السفر ،

Twitter: @abdullah_1395

وإيفاء ديونه الجديدة ، وإما أنه خشي أن يجد في روسيا ديوناً قديمة في انتظاره ، فيعود إلى السجن . . .

يقول (في التاسعة والأربعين) : « حالتي الصحية لا تحتمل السجن ، ولو لستة أشهر . . . خاصة أنه لا يعود بوسعي متابعة العمل » .

لكنه ، خارج روسيا ، يستشعر الحنين إلى جوّ بلده وشعبه ، ولا يجد الإنسجام أو الراحة في أي بلد آخر . « نيقولاس نيقولايفيتش، لا أستطيع أن أشرح لك كم هي شاقة حياة الغربة ، بالنسبة إلي » ما من رسالة كتبها ، من الخارج ، إلا وتحمل الشكوى نفسها : « يجب أن أعود إلى روسيا . هنا ، السأم يسحقني » . فكأنه كان يستمد من موطنه مباشرةً الغذاء الخفيّ لمؤلفاته ، وكأن النُسْغ الذي يمدّ أفكاره بالحيوية ، جفّ منذ أن اقتلع من أرضه ، فها هو يكتب : « آه ، نيقولاس نيقولايفيتش ! لا أجد لذة في الكتابة ، وإذا كتبت ، فبألم كبير . لا أدرك لهذا الأمر معنى ، إنما اعتقد أنها الحاجة إلى روسيا . ينبغي أن أعود مهما كلّف الأمر » . وفي موضع آخر : « أنا محتاج إلى روسيا ، لأتمكن من العمل والتأليف ، أشعر ، بوضوح ، أننا أينما عشنا ، في دريسْد (في ألمانيا) أو في أي مكان آخر ، فالأمر سيّان ، لأنني سأكون دوماً في بلد غريب ، بعيداً عن وطني » . يكتب أيضاً : « لو تدري إلى أية درجة

Twitter: @abdullah_1395

أشعر أنني طفيلي وغريب ! . . . أصبحت غبياً بليدَ الذّهن ، وفقدت عوائد روسيا . لا أثر هنا للهواء الروسيّ أو للشعب الروسيّ ، أما المهاجرون الروس فلا أفهمهم على الإطلاق . إنهم قوم مجانين » . ومع هذا ، ففي جنيف ، تمّت كتابة **الأبله**، **الأزلية مريم** ، **المسكونون** ! « إنك تتفوّه بكلام نادر في ما يخصّ عملي هنا . في الواقع ، سأبقى متخلفاً ، لا عن العصر بل عن معرفة ما يجري في الوطن (من المؤكد أنني أعرف اكثر منك ، لأنني أقرأ يومياً ثلاث صحف روسية ، من ألفها إلى يائها ، وتصلني مجلتان) ، ولكنني منفصل عن **المجرى الحسي للوجود** ، لا عن فكرته فحسب ، بل عن جوهره بالذات . وكم لهذا من تأثير على العمل الفني ! » .

هذه « المشاركة الشاملة » يرافقها إذاً شعور وطني مضطرم يعزّز من اتساعها ، وهذه الوطنية ، في ذهن دوستويفسكي ، عنصر مكمّل لتلك المشاركة ، لا يمكن الإستغناء عنه . وهو ينتقد هؤلاء الذي كانوا يُعْرَفون هناك ، آنذاك ، بـ « التقدميين » ، دون كلل ولا مُهادنة ، وهم (حسب تعريف « ستراكوف ») ، « ذلك الصنف من السياسيين الذي كان ينتظر اغتناء الثقافة الروسية عن طريق التمثّل السريع لما تأخذه عن الغرب ، لا استناداً إلى تطور داخلي للثقافة الوطنية » .

ـ « الفرنسي هو فرنسي في الإعتبار الأول ، والإنكليزي

Twitter: @abdullah_1395

انكليزي ، وغاية كل منهما أن يبقى هو نفسه . وهنا تكمن قوته » . إنه يثور ضد هؤلاء الذين يقتلعون الروس من أرضهم ، ويستبق « بارّس » في تحذير الطالب من أنه « إذا انقلع من المجتمع وتخلّى عنه ، لا يسير في اتجاه الشعب ، بل في اتجاه آخر غريب هو **الأوروبيانية** [1] ، في إتجاه السيطرة المطلقة لمفهوم الإنسان العالمي الذي لم يكن له وجود على الإطلاق ، فهو ، إذ يحتقر الشعب ويتنكّر له ، يفقد صلته به » .

وكما يتحدث «بارّس» عن « الكانطية المضلّلة» ، كذلك دوستويفسكي في مستهلّ مجلّته [2] : « مهما تكن الفكرة الواردة غنية ، فإنها لا تتجذّر فينا ، ولا تتكيّف مع مناخنا ، وبالتالي لا تفيدنا فعلياً ، إذا لم تنبعث ذاتياً من صميم حياتنا القومية انبعاثاً طبيعياً وعملياً ، يستشعر الجميع ضرورته ، ويقرّون عملياً بالحاجة إليه . لم تُبْنَ أمة من العالم ، ولم يُشَدْ مجتمع مستقر ، إستناداً إلى معطيات مستوحاة من الخارج . . . » ولم أجد لدى «بارّس» ما يوازي هذا الإعلان صدقاً وصراحة .

لكنني آسف أيضاً لعدم عثوري ، « لدى « بارّس » على إشارة إلى أن قدرة الإنسان على الإنسلاخ عن أرضه فترةً ،

---

(١) Européisme .

(٢) مقدمة مجلة **العصر** ، نشرها بيانستوك كتتمة للرسائل .

Twitter: @abdullah_1395

تخلّصاً من تسلّط الأفكار المسْبقة هي دليل وجود شخصية فائقة القوة ، كما أن تمكّنه من النظر إلى البلدان الأخرى بتسامح هو من أعظم عطاءات الطبيعة وأنبلها . أولا يتكهنّ دوستويفسكي بما يؤدي إليه هذا المذهب من ضلال ؟ « يستحيل أن تقنع الفرنسي بالتخلّي عن اعتبار نفسه أفضل إنسان في العالم . إنه لا يعرف عن العالم إلاّ الشيء اليسير ، ولا يهمّه أن يعرف . إنها سمة مشتركة يتميّز بها جميع أفراد الأمة تميّزاً شديداً » .

ثمة أمر يختلف فيه دوستويفسكي مع بارّس اختلافاً بيّناً هو الفردية . ويرى نيتشه إنه مثل رائع يبرهن كم يكون ضئيلاً أحياناً الشعور بالزهو والإكتفاء الذي يرافق الإعتقاد بقيمة الأنا . ها هو يكتب : « أصعب الأمور أن يبقى الإنسان هو نفسه في هذا العالم » ، و« لا ينبغي أن يُفني الإنسان حياته في سبيل أي هدف كان » . لأنه يعتقد أنْ لا سبيل إلى خدمة الإنسانية دون وطنية ، لا بل دون فردية . وإذا كانت هذه التصريحات قد جذبتْ إليه بعض أتباع «بارّس»، فكم من الأتباع غيرهم أبعدتهم عنه ونفّرتهم منه .

الشأن نفسه مع هذه العبارات : « الفكرة الجمالية ، في العالم الإنسان الجديد ، فكرة مضطربة . فالقاعدة الأخلاقية للمجتمع التي تعتمدها الوضعية ، لا تقصّر عن الوصول إلى النتيجة فحسب ، بل تعجز عن التعريف بنفسها أيضاً ، وتغرق في

Twitter: @abdullah_1395

الرغبات والمثل . هل ثمة بعد نزْر يسير من الوقائع لا يدلّ على أن المجتمع لا يبنى هكذا ، وأن هذه السُبُل ليست هي التي تقود الى السعادة ، وأن السعادة ليس هذا منشأها ، كما هو الرأي حتى الآن ؟ ولكن ، ما مصدر السعادة ؟ يمكن الإتيان بكثير من المؤلفات دون الوقوع على النقطة الرئيسية ، وهي أن الغرب أضاع المسيح . . . والغرب يتداعى لهذا السبب ، ولهذا السبب وحده » . أي فرنسي كاثوليكي لا يصفّق قبل أن يصطدم بهذه الجملة المعترضة التي أغفلت ذكرها في البدء : « أضاعوا المسيح ، **والسبب هو الكثلكة** » . أي كاثوليكي فرنسي يسمح لنفسه ، عندها ، بالتأثر بدموع الإيمان التي تفيض بها هذه الرسائل !؟ وعبثاً يحاول دوستويفسكي أن يعلن للناس « مسيحاً روسياً ، مجهولاً في العالم ، يقوم الإيمان به على مبادىء ارثوذكسيتنا . فالكاثوليكي الفرنسي يرفض الإستماع حتى حين يتعلق الأمر بأرثوذكسيته هو ، وعبثاً يضيف دوستويفسكي : « هنا تكمن ، في رأيي ، قدرتنا المدِّنة ، ومن هنا ننطلق لبعث أوروبا من رقادها ، وهذا هو جوهر قوتنا المستقبلية » .

إذا كان دوستويفسكي قد وفّر لـ « دو فوغه » أسباب اعتباره « عدوّاً للفكر ، وللحياة الغنية » ، ومناصراً « للحماقة والخياد والسلبية » ، الخ ، فانه ، في رسالة له الى أخيه لم ينشرها بيانستوك ، يقول : « سيقال لي : إنهم قوم بسطاء ، لكن

Twitter: @abdullah_1395

البسطاء من الناس مدعاة للحذر أكثر بكثير من المعقّدين».
يكتب مرة الى فتاة شابة ترغب في القيام بـ «عمل نافع» وعبّرت له عن رغبتها في أن تصبح ممرِّضة أو قابلة : «إذا اعتنى الإنسان بمتابعة التحصيل ، فإنه يعدّ نفسه لعمل مئة مرة أكثر نفعاً» ، ثم يضيف : «أليس من الأفضل أن تتابعي تعليمك العالي ؟ إن معظم أصحاب الإختصاص عندنا هم ، **في الحقيقة ، من ذوي الثقافة المحدودة** . . . وطلابنا وطالباتنا ، في غالبيتهم ، يفتقرون إلى الثقافة تماماً. فأي نفع يرجى للإنسانية منهم ؟ بالطبع ، لست محتاجاً إلى هذه العبارات لكي أدرك أن «دو فوغه» كان مخطئاً ، فكلنا معرَّض لمثل هذا الخطأ .

لا يسمح دوستويفسكي لنفسه بالإنجراف السهل في تيار تأييد الاشتراكية أو معارضتها ، وإذا كان «هوفمن» محقاً في قوله : «الاشتراكية ، بمعناها الإنساني الأوسع ، كانت هي عقيدة دوستويفسكي على الدوام» ، فإننا نقرأ في إحدى رسائله «الإشتراكية تفتك بأوروبا ، فإذا لم نتداركها سريعاً ، قوّضت كل شيء» .

إن دوستويفسكي ، المحافظ غير التقليدي ، القيصري - الديمقراطي في آن ، المسيحي دون التزام بالكثلكة ، الليبرالي دون «تقدمية» ، يظلّ ذلك الأديب الذي **لا تدري من أية زاوية تنظر اليه** . فكل حزب واجدٌ لديه سبباً للسخط . لم

Twitter: @abdullah_1395

يقتنع يوماً بأن الدور الذي يقوم به هو في مستوى عقله ، وبأن عليه ، في سبيل الغايات المباشرة ، أن يحني هامته ، ويشوّه هذه الوسيلة الشديدة الحساسية . يقول : « بخصوص هذه الميول الممكنة جميعاً ـ وهو الذي أشار إلى الكلمات البارزة ـ التي اختلطت بحركة ترحيب بي ، كان بودي أن أكتب مقالة ، أشرح فيها الإنفعالات التي أحدثتها هذه الرسائل . . . ولكن ، حين أمعنت في التفكير ، أدركت فجأة أنه يستحيل عليّ اعتماد الصدق التام في كتابتها ، وأي نفع يعود لها بعد ذلك ؟ »

ما معنى هذا ، لا ريب أن ما يقصده هو هذا : لكي يكتب هذه المقالة بطريقة ملائمة ترضي الجميع وتؤمّن له النجاح ، عليه أن يخون فكره ، ويبّسطه فوق ما يحتمل ، وأن يدفع قناعاته إلى أبعد من الحدود التي تسمح بها طبيعتها . وهذا ما لا يرضاه دوستويفسكي . أمّا ما يرضاه ، مدفوعاً بفردية معتدلة إلى نزاهة فكرية ، فهو إظهار هذا الفكر متكاملاً في شكله المعقد ، وما من سبب لإخفاقه في فرنسا أقوى من هذا السبب الخفيّ القاهر .

لست أرمي إلى أن المعتقدات العظيمة تحمل معها عادةً نقصاً في البراهين ، بل هذه المعتقدات تستغني بذاتها عن البراهين . كذلك ، فإن « بارّس » أعقل من أن يغيب عنه أن إيضاح أية فكرة من كافة جوانبها ، ليس هو الذي يمهّد لها سرعة

Twitter: @abdullah_1395

الإنتشار ، بل التركيز على جانب واحد منها ودفعه إلى الواجهة .

ينبغي أن تكون الفكرة وحدها في المقدمة ، لكي تحقق النجاح ، أو أن من الأفضل ألا نضع في المقدمة إلا فكرة واحدة . إن العثور على صيغة جيدة لهذه الفكرة غير كاف ، فالمهم ألاّ نخرج عن إطار هذه الصيغة . إن سواد الناس ينفرون مما يرهق العقل ، ولا يهمهم أن يعرفوا ، من كل إسم ، إلا دلالته العامة . فإذا ما سمعوا باسم باستور، أراحهم أن يتبادر إلى ذهنهم فوراً : أجل ، داء الكلب ؛ نيتشه ؟ ـ الإنسان المتفوق ؛ كوري ؟ ـ الراديوم ؛ بارِّس ؟ ـ الأرض والموتى ؛ كينتون ؟ ـ البلاسما ؛ تماماً كما كان يقال : بورينبوس ؟ ـ الخردل ؟ . أما بارمونتيه [1] ، « مخترع » البطاطا ، فقد ذاع صيته بفضل هذا الصنف وحده من البقول ، وكأننا مدينون له بكل أنواع الخضار .

قدِّر لدوستويفسكي أن يعرف النجاح في فرنسا ، منذ ما ابتدع « دو فوغه » « شعاراً » للمذهب الذي ألغاه مبثوثاً في ثنايا الفصول الأخيرة من **الجريمة والعقاب** ، مختصراً إياه في صورة معبِّرة ، وأسماه « دين الألم » . لكن هذه الصورة لم تكن لتحوي

---

(١) خبير زراعي ، وصيدلي عسكري فرنسي ، عمّم زراعة البطاطا في فرنسا ، القرن الثامن عشر (المترجم) .

Twitter: @abdullah_1395

صاحبها ، فكان لا بدّ له من أن يفيض عنها في كل اتجاه . فهو ، وإن كان يعنيه « أمر واحد : معرفة الله » ، فإن معرفة الله هذه كان يريدها أن تتوزع عمله الأدبي بكل ما فيها من تعقيد إنساني مسكون بالقلق .

إبسن ، هو الآخر ، لم يكن من السهل تقييده في إطار . كذلك كل الذين آثارهم تسأل أكثر مما تؤكد . إن النجاح النسبي لمسرحيتي إبسن : **بيت الدمية** و **عدو الشعب** ، ليس مردّه إلى جودتهما الفائقة ، بل إلى أن إبسن قد انتهى فيهما إلى ما يشبه النتيجة . فالجمهور لا يرضى عن الكاتب الذي لا يوصله إلى حل واضح جليّ ، ويعتبر ذلك منه موقفاً مترددا يعبِّر عن بلادة في الفكر ، أو عن وَهَنٍ في المعتقد . وهو ، إذ يعجز عن إكتناه الفكر ، لا يحكم على هذا المعتقد إلا من خلال ما يتوفّر له من حرارة التأكيد واطّراده وأحاديّة وجهته .

لن أحاول الآن تحديد مذهب دوستويفسكي تحاشياً للإطالة . لذلك ، سأقصر بحثي على تبيان التناقضات التي يأخذها عليه الفكر الغربي البعيد عن هذا التوْق إلى التوفيق بين الأضداد . إن دوستويفسكي لعلى قناعة راسخة بأن لا تعارض ، عمقياً ، بين القومية والأوروبيانية ، بين الفردية وإنكار الذات . إنه يعتقد أن الأحزاب المتعارضة تبتعد عن الحقيقة بالمقدار نفسه ، إذْ أن كلاً منها لا يتعامل مع هذه المسألة الحياتية إلّا من وجهة

Twitter: @abdullah_1395

واحدة . وليُسمَح لي ، مرةً أخرى ، بالرجوع إلى كلام لدوستويفسكي يكشف من موقفه ما لا يقوى على كشفه الشرْح والتحليل[1] : « أفينبغي أن يهمل الإنسان ذاته لكي يجد السعادة ؟ هل محو الذات هو طريق الخلاص ؟ العكس تماماً هو الصحيح . ليس على الإنسان أن يحفظ ذاته فحسب ، بل أن يدفع شخصيته إلى درجة أرقى من الدرجة التي بلغتها في الغرب . أعني أن التضحية الإرادية المتألّقة بالوعي الكامل ، الخالية من كل إكراه ، هذه التضحية في سبيل المجموع ، هي ، كما اعتقد ، مؤشّر لبلوغ الشخصية أقصى درجات النموّ والتفوّق والسيطرة على الذات ، أقصى درجات حرية الإختيار . . . إن شخصية بلغت من النموّ شأواً بعيداً ، مقتنعةً تماماً بحقها بأن تبقى هي ذاتها ، غير خائفة على حالها . . . لا يمكنها أن تصنع شيئاً لذاتها ، بل إن عملها يقتصر على التضحية بالذات في سبيل الغير ، آملةً في أن يبلغ الغير مرتبة الحرية والسعادة التي بلغتها هي ؛ إنها سنّة الطبيعة ، وكل إنسان سويّ يسعى إلى تحقيقها » .

هذا الحل ، علّمه إيّاه المسيح : « من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها ، ومن أهلك نفسه من أجلي يجدها » .

---

(١) اقتطعه من فصل عنوانه « بحث في البورجوازية » من رحلة إلى الخارج ، أحسن بيانستوك صنعاً بنشره مع ترجمة هذه الرسائل .

Twitter: @abdullah_1395

وحين يعود إلى بترسبورغ ، شتاء ١٨٧١ - ٧٢ ، في الخمسين ، يكتب إلى يانوفسكي : « يجب الإعتراف أن الشيخوخة تقترب . مع ذلك ، ليس الهرم هاجسي ، بل إنني أتهيّأ للكتابة من جديد (كان يعدّ **الإخوة كارامازوف**) ، وأريد أن أنشر شيئاً يبعث الرضى في النفس . لا أزال انتظر من الحياة بعض الأمور ، ومن الممكن الحصول عليها جميعاً . أما بَعْد ، فمن ناحيتي ، أنا في سعادة تامة » .

هذه السعادة، هذا الفرح الذي يتجاوز الألم، هو ما نحسّه منبثاً في حياة دوستويفسكي وفي مؤلفاته كافةً ، وهذا ما أحسن نيتشه تنسّمه من أجوائه ، وما آخذ على « دو فوغه » عدم تنبهه له مطلقاً .

إن رسائل هذه الفترة من حياته تتميّز بانعطافات حادة ! فلم يعد يتوجه برسائله إلى مواطنيه في بترسبورغ، بل إلى مجهولين ، جمعته بهم الصدفة ، يكتبون إليه طلباً للثقافة أو التأسّي أو العَوْن . ولو شئت التمثل لشملت كل ما ورد في هذا الكتاب من رسائل ، فمن الخير الرجوع إلى الكتاب لأن هدف هذا المقال إنما هو هداية القارىء إليه .

وأخيراً ، وبعد أن أزاح دوستويفسكي عن كاهله عبْء الهموم المادية ، استجمع نشاطه مجدداً ، ووجّه اهتمامه ، في

Twitter: @abdullah_1395

أواخر أيامه ، إلى إدارة **صحيفة أديب** التي لم تكن تصدر بصورة منتظمة . في تشرين الأول من سنة ١٨٨٠ ، أي قبل وفاته بثلاثة أشهر ، كتب إلى أكساكوف الشهير يقول : « أعترف لك ، كصديق ، بأنني ، منذ اعتزمت اصدار الصحيفة من مطلع السنة المقبلة ، رحت أبتهل إلى الله ، جاثياً على ركبتيّ ، لكي يمنحني قلباً نقياً وعبارة نقية بريئة من الخطيئة ، عارية من الحسد ، وعاجزة عن انزال الضرر بأحد» .

هذه **الصحيفة** التي لم يعثر فيها « دو فوغه » إلا على « أناشيد غامضة ، يعجز عنها التحليل ، ويقف دونها النقاش » ، وجد فيها الشعب الروسي شيئاً آخر ، وأمسى بوسع دوستويفسكي ان يرى حلم الوحدة الروحية متحققاً في عمله هذا ، دونما حاجة إلى التوحيد القسري المتعسف .

وحدة الشعور هذه تجلّت ، في أروع صورها ، حين انتشر خبر وفاته . وإذا كانت « العناصر المخرِّبة قد صمّمت على الإستئثار بجثته » فسرعان ما نرى أن « موته قد ألّف بين الأحزاب المتباعدة ، والأعداء المتباغضين ، والفرق المتنافرة ، في حركة انصهار غير متوقعة تعرفها روسيا ، كلما ألهبت مشاعر أبنائها مسألةٌ وطنية ، وبمشاركة حماسية لا مثيل لها » .

هذا ما كتبه « دو فوغه » . ويسرّني ، بعد كل التحفظات

Twitter: @abdullah_1395

التي أبديتها حول دراسته ، أن أستشهد له بهذا الكلام النبيل : « كما كان يقال عن قدماء القياصرة من أنهم « يجمعون الأراضي الروسية حول شخصهم ، فإن ملك الفكر هذا ، قد جمع حوله قلب روسيا » .

هذا التوحيد للطاقات، هو ما يمارسه حالياً على أوروباً بطيئاً خفياً، خاصة في ألمانيا حيث تتضاعف طبعات كتبه باستمرار، وفي فرنسا حيث يتذوق الجيل الناشىء آثاره بصورة أفضل من تذوق جيل «دوفوغه» لها، ويقرّ بفضله ومزاياه.

إن الإسباب الخفية التي أخّرت انتشار شهرة دوستويفسكي ، هي ذاتها التي أمّنت لهذه الشهرة في ما بعد ، ديمومةً أكثر رسوخاً . . .

Twitter: @abdullah_1395

الإخوة كارامازوف (*)

(*) كتبت هذه المقالة ، قبل عرض مسرحية « جاك كوبو » و« ج . كرويه » المستوحاة من رواية دوستويفسكي .

Twitter: @abdullah_1395

« دوستويفسكي ، هو الوحيد الذي أفادني شيئاً في علم النفس » . هذا ما يقوله نيتشه .

إن الحظ الذي لاقاه دوستويفسكي عندنا كان فريداً . ويبدو أن « دو فوغه » الذي كان يعرّف الفرنسيين بالأدب الروسيّ ، منذ حوالى عشرين سنة ، قد هالته ضخامة هذا العبقري ، فتدارك الأمر معتذراً بأدب ، لبعد دوستويفسكي عن متناول العامة . وكان الناس ، بفضله ، قد أحبوا « تورغييف » ، وأعجبوا ، عن ثقة ، ببوشكين وغوغول ، وأفسحوا مجالاً واسعاً لتولستوي . أما دوستويفسكي . . . فكان ، قطعاً ، « روسياً » للغاية ، وقد نبّه « دو فوغه » إلى الخطر . . . وبصعوبة رضي أن يوجّه فضول القرّاء الأول إلى اثنين أو ثلاثة من مؤلفات دوستويفسكي التي اعتبرها أسهل تناولاً ، وأيسر فهماً . ولكنه ، بعمله هذا ، حرم القرّاء من أكثر آثاره دلالةً وأكثرها صعوبة في الوقت نفسه ، ويمكننا أن نقول اليوم إنها أكثرها جمالاً . قد يرى البعض أن هذه الحيطة كانت ضرورية ، كما هي الحال مع

Twitter: @abdullah_1395

السامفونيا الراعوية [1] التي كان ينبغي أن يعتاد الجمهور عليها ويتأقلم في أجوائها بتؤدة ، قبل أن تقدَّم له **السمفونية مع الجوقة** ؛ وإذا كان من الخير ، في الماضي ، تأجيل المقاربات الأولى ، وقصرها على **الناس البسطاء** ، **بيت الموتى** ، وعلى **الجريمة والعقاب** ، فقد آن الأوان اليوم لأن يلج القارىء عالم الروايات الرائعة : **الأبله** ، **المسكونون** ، وخاصة **الإخوة كارامازوف** .

هذه الرواية كانت آخر ما كتبه دوستويفسكي ، وكان مفترضاً أن يفتتح بها سلسلة من الروايات حال الموت دون إنجازها . كان دوستويفسكي ، آنذاك ، في التاسعة والخمسين . وقد كتب :

غالباً ما أكتشف بأسىً أنني لم أوفَّقْ إلى التعبير عن جزء من عشرين مما كنت أريد ، وربما أستطيع ، التعبير عنه . لكنّ ما ينتشلني من هذا العجز ، هو الأمل المألوف في أن يمدّني الله يوماً بالقوة والإلهام الكافيين ، وأن أصل إلى مستوى من التعبير أكثر إكتمالاً ، وأن أقوى ، باختصار ، على عرض كل ما يضجّ به قلبي ، وتزخر به مخيلتي .

كان من العبقريات النادرة التي تتقدم ، من أثر إلى أثر ، في

---

(١) قصة لأندريه جيد وقد صدرت في سلسلة « ماريان » الناشر .

Twitter: @abdullah_1395

حركة مطّردة من النمو ، لا تنقطع إلا حين يفاجئها الموت . لا أثر للتخاذل في هذه الشيخوخة الفوّارة ، كما في شيخوخة رمبراندت أو بيتهوفن اللذين يطيب لي أن أشبّهه بهما ، فالفكرة لدى كل منهما في ترسّخ متوثّب دائم التصاعد .

قبل أن يباشر دوستويفسكي كتابة **الإخوة كارامازوف** ، ودون أي أثر لمسايرة الذات ، وهو من نعرف عنه التطلّب المستحيل والتذمّر المستمر ، ـ مع أنه يعي قدره حقّ الوعي ـ كانت اختلاجة فرح خفيفة تعلن النبأ : لقد عثر أخيراً على موضوع في مستواه ، وفي مستوى نبوغه .

يقول :

نادراً ما يحصل أن أقع على موضوع بمثل هذه الجدّة والإكتمال والأصالة .

هذا الكتاب كان الأثير لدى تولستوي وهو على فراش الموت . والمترجمون الأول ، وقد راعتهم ضخامة هذا الكتاب ، لم يقدموه إلينا كاملاً : فقد سلخت عنه ، كيفما اتفق ، فصولٌ بأكملها ، بدعوى الوحدة الخارجية ، حتى إنها ألّفت كتاباً بمفرده بعنوان **المبكرون** . وإمعاناً في تضليل القارىء ، أبدل اسم كارامازوف باسم شستومازوف. ومع ذلك ، جاءت ترجمة على حظ وافر من الجودة ، ولا أزال أفضّلها على تلك التي جاءت

Twitter: @abdullah_1395

بعدها . ويرى البعض ، آخذين في الإعتبار الحقبة التي ظهرت فيها هذه الترجمة ، أن الجمهور لم يكن ، حينذاك ، لم يكن على قدْر من النضج يؤهّله لاستيعاب تحفة أدبية بهذا الغنى . لذا ، فمأخذي الوحيد على هذه الترجمة هـو أنها أغفلت الإعتراف بالنقص الذي فيها .

مضت سنوات أربع على نشْر الترجمة الجديدة لـ « بيانستوك » و« نو » . ميزة هذه الأخيرة أنها أبرزت ، في مجلد أصغر حجماً ، التناسق العام للكتاب ، أي أن الأقسام التي كانت الترجمات الأولى قد حذفتها ، اعادتها هذه الترجمة إلى أماكنها . لكن هذين المترجمين لجآ إلى تكثيف الفصول تكثيفاً صارماً ، وأكاد أقول إلى تجميدها ، إذ عرّيا الحوار من تلعثمه واختلاجته المؤثرة ، وأهملا ثلث الجمل أحياناً ، وأحياناً كثيرة كانا يقفزان فـوق مقاطـع بأكملها ، تعتبر من أجود المقاطع وأبلغها دلالةً . والنتيجة ؟ ـ أسلوب جاف ، خـالٍ من الظلال ، كرسْمٍ نُقِش في الزنْك ، أو كمحـاولة لنقـل أحد تصـاوير رامبـراندت البليغـة بـالقلم العادي . لكم ينبغي أن يكون هذا الكتاب غنياً بالمزايا ، ليبقى محتفظاً بروعته رغم كل التشويه الذي لحق به . إنه من نوع الكتب التي يمكنها ، ككتب ستاندال ، أن تنتظر ساعتها بصبر ، لتوضع موضعها الصحيح ؛ ويبدو أن ساعة هذا الكتاب قد أزفت أخيراً .

Twitter: @abdullah_1395

في ألمانيا، تتابعت الترجمات لكتب دوستويفسكي، وكل ترجمة جديدة تفوق سابقتها في الدقة والإخراج. كذلك انكلترا المعروفة ببطء تحركها، لم ترْضَ أن تتخلّف عن غيرها. فها هو «أرنولد بنّتّ»، في إعلانه عن الترجمة التي أعدّها كونستانس غارنتّ، في مجلة **العهد الجديد**، ٢٣ آذار الفائت (١٩١١)، يتمنّى على القصصيين والروائيين جميعاً أن يقتفوا خطى «أعظم آثارٍ ابدعتها مخيلة وخطّها قلم على الإطلاق». ويخصّ **الإخوة كارامازوف** بالقول: «هنا، يصل الإنفعال إلى حدوده القصوى. يعرض لنا هذا الكتاب دزينة من الصور الجبَّارة، الهائلة الجبروت».

ومن يدري؟ فقد تكون هذه «الصور الجبَّارة» تعنينا نحن قبل غيرنا، وقد لا يكون لصوتها أن يبدو، في الماضي، بمثل الإلحاح الذي يبدو به اليوم! فالإخوة الثلاثة، ايفان، ديمتري، أليوشا، المختلفون المتحدون في آن، الذي يجثم على أنفسهم ظلّ خادمهم وأخيِّهم[1] سمردياكوف التعيس أينما حلّوا؛ ايفان المثقف، ديمتري الشهواني واليوشا الصوفي، هؤلاء الثلاثة هم نزلاء هذا العالم الخُلقي الذي يشيع الأبُ الهرم فيه فراغاً مخزياً - وأعلم أنه سبق لهم أن مارسوا تسلّطاً علنياً على كثير من

(١) أخ غير شقيق، من جهة الأب أو من جهة الأم(Demi-frère).

Twitter: @abdullah_1395

الشبان ـ، لكن صوتهم لا يبدو غريباً عنا أبداً. إن ما نسمعه من حوارٍ بينهم إنما هو في داخلنا يدور. ومع ذلك، فإن بنية هذا الأثر لا تضيق بأية رمزية مفتعلة. إن أي عمل عادّي، وأية «علّة» غامضة ينهض عالم النفس إلى استجلائها، تصلح ذريعة أوليَّة لتأليف هذا الكتاب؛ ما من كائن أثبت وجوداً من هذه الصور المعبّرة التي لا تحيا لحظةً خارج واقعها الضاغط.

والآن، وبعدما وصلت هذه الشخصيات إلى خشبة المسْرح (ليس بين كل ما أبدعه الخيال، وبين أبطال التاريخ كافة ما هو أحقّ منها بذلك)، علينا أن نرى هل نميِّز أصواتهم المشوَّشة من النبرات المتقنة للممثلين.

علينا أن ننظر هل تمكّن مقتبس الرواية من أن يَعْرض لنا، دون تشويه كثير، الأحداث الضرورية المفضية إلى العقدة حيث تلتقي هذه الشخصيات وتتجابه. فإذا ما وفّق إلى ذلك كان بارعاً وفي غاية الذكاء، ويكون قد تفهَّم، ولا ريب، أن اللجوء إلى الطريقة المألوفة في المسرح ـ أي تقسيم المسرحية إلى مشاهد ورواية الأحداث البارزة ـ، لا يكفي للوفاء بمتطلبات المسرح، بل ينبغي، قبل ذلك، التمكّن من الرواية، ومن ثمّ إعادة تأليفها واختصارها، وبعد ذلك، إعادة تركيب عناصرها من منظور مغاير.

Twitter: @abdullah_1395

وأخيراً، يتوجب معرفة إذا ما كان المشاهدون الذين لم يسبقْ لهم أن دخلوا في جوّ هذا الأثر، على استعداد لمشاهدته بما يلزم من الإنتباه. ومن المستحسن، بالتأكيد ألاَّ يكون «ذلك الإعتداد الغريب والجهل العجيب» اللذين كان يسوء دوستويفسكي وجودهما لدى المثقفين الروس، ألاَّ يكونا بين صفات هؤلاء المشاهدين. لقد كان يطمح، حينذاك، إلى «قطع طريق السلبية عليهم، ودفعهم إلى التفكير وإلى الشك».

وما أكتبه هنا، ليس له أي هدف آخر.

(الفيغارو، ٤ نيسان، ١٩١١)

Twitter: @abdullah_1395

كلمة أُلقيتْ في فيو ـ كولومبيه
في الذكرى المئوية لمولـد
دوستويفسكي

Twitter: @abdullah_1395

المعجبون بدوستويفسكي كانوا ، لسنوات خلتْ ، قلّة ضئيلة . لكن ، وكما هي الحال عندما يكون المعجبون الأول من النخبة ، يتضاعف عددهم باستمرار ، وكما ترون ، فإن قاعة الـ فيو. كولومبيه لأصغر بكثير من أن تتسع لهم جميعاً هذا اليوم . سأنظر ، أول الأمر ، في الأسباب التي حالتْ ، حتى الآن ، دون تغلغل هذه الآثار الرائعة في عقول البعض ؛ فأفضل وسيلة للتغلب على أي إشكال ، هي أن تعتبره صادقاً وتحاول أن تتفهّمه على هذا الأساس .

إن ما عبناه على دوستويفسكي ، بصورة خاصة ، باسم منطقنا الغربي ، هو ، كما اعتقد ، الطابع اللاعقلي المتردد ، اللامسؤول ، في الغالب ، الذي تتميّز به شخصياته ، وهو كل ما يرسم على سيمائهم من تجهّم وذهول . قد يقال : إن ما يصوّره دوستويفسكي لا يمثّل واقع الحياة ، إنْ هو إلا أضغاث أحلام . إن هذا الكلام ، في رأيي ، بعيد كل البعْد عن الصواب . لكن ، لنسلّمْ بصحته الآن ولا نكتفيَنّ بالإجابة ، مع

Twitter: @abdullah_1395

« فرويد » ، إن في أحلامنا من الصدق أكثر مما في وقائع حياتنا ؛ بل إنني أرى من الأفضل الإستماع إلى دوستويفسكي نفسه في كلامه عن الأحلام ، وعن الأمور اللامعقولة ، والمستحيلات الصريحة التي تزخر بها مناماتنا ، وتسلّم بها في الحال دون أن تفاجأ ، في حين يكون عقلك على درجة من النشاط غير مألوفة . «لماذا، حين تستيقظ وتستعيد نشاطك ، تشعر غالباً ، وأحياناً بحيوية نادرة ، إن المنام حين يتبخّر ، يحمل معه ما يشبه الأحجية التي يستعصي عليك حلّها ؟ إن غرابة الحلم تدفع البسمة إلى شفتيك ، وفي الآن نفسه ، يبادرك شعور بأن في هذا النسيج اللامعقول فكرةً ما ، بل فكرة واقعية ، وإن في داخلك شيئاً ما دفيناً ، تحمله في قلبك منذ البدء ، وتشعر أن هذا الحلم قد جاءك بنبوءة كنت تتوقّعها . . »
(**الأبله** ، الجزء الثاني ، ص: ١٨٥)

أقوال دوستويفسكي في الحلم ، سنطبّقها على كتبه هو ، لا لأنني أقرّ بالتشابه بين هذه القصص ولا معقولية بعض الأحلام ، بل لأننا نشعر ، في الحلم كما في القصة ، وحين الإنتهاء من الكتاب ـ وفي الوقت الذي يرفض فيه عقلنا قبوله كلياً ـ ، نشعر أنه قد مسّ نقطة فينا خفيّة ، « تدخل في صميم حياتنا الحقيقية » . ويخيّل إليّ أن رفض البعض نعبقرية دوستويفسكي، استناداً إلى الثقافة الغربية، يجد تفسيرا له في

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

ـ حيث تتحرك بذور لنيتشه ـ، مستوحىً من انتحارها، لأن عليها أن تقتل نفسها خلال ربع ساعة، وإذ نستمع إلى كلامها، لا ندرك أبداً هل تفكّر هكذا لأنها ستقتل نفسها، أم أنها ستقتل نفسها لأنها تفكر هكذا. وثمة أيضاً شخصية الأمير مويشكين، وهي أغرب شخصيات دوستويفسكي، التي نراها مدينةً بأكثر حدسياتها سموّاً، لقرب إصابتها بنوبةٍ من داء الصرع. ما يهمّني من هذه الملاحظة الآن هذه النتيجة: على الرغم من أن روايات دوستويفسكي ـ هي أكثر الروايات ـ أكاد أقول المؤلفات ـ غنىً بالأفكار، فإنها ليست مجرَّدة مطلقاً، وإنما تبقى، حسب علمي، أكثر الروايات ـ المؤلفات اغتناءً بالحياة.

لذا، فمهما جنحت شخصيات دوستويفسكي نحو التصويرية، تبقى محتفظة بطابعها الإنساني ولا تحوّم في الرمزية. هذه الشخصيات ليست نماذج كما هي في مسرحنا الكوميدي الكلاسيكي، بل أفراد تميّزهم فرادة خاصة، كأعرق ما في شخصيات ديكنز، وتُستوفى فيهم براعة التصوير كأوفى ما تكون. إستمع إلى قوله:

ثمة أناس يصعب التعبير عن حقيقتهم دفعة واحدة، في أبرز ما يتميّزون به. هؤلاء هم من نسمّيهم عادة بـ « العاديين » أو « الأغلبية »، والتي تتكوّن منهم، في الواقع،

Twitter: @abdullah_1395

الأكثرية الساحقة من الجنس البشري . ينتمي إلى هذه الفئة الواسعة من الناس ، كثير من شخصيات هذه القصة ، خاصة غابرييل أردالیونوفيتش .

إنها شخصية يجد صعوبة خاصة في رسم خطوطها ، فماذا في وسعه أن يقول عنها:

من زمن المراهقة ، وغابرييل أردالیونوفيتش يؤرقه شعورٌ ملازم بضآلة شأنه ، ترافق هذا الشعور رغبة جارفة في أن يقنع نفسه بتفوقه . كان طافحاً بالشهوات الجامحة ، ويملك أعصاباً متوفزة بطبيعته ، كما أنه كان يثق بقوة رغائبه لأنها كانت تتصف بالعنف . إن رغبته المجنونة في أن يحقق لنفسه كياناً متميزاً كانت تدفعه أحياناً إلى تجريب حظه في أمور في غاية الطيش . لكن بطلنا كان يجد نفسه دوماً ، وفي اللحظة الأخيرة ، أعقل من أن يقدم على أعمال كهذه . وكان هذا يدخل السأم إلى نفسه .

هذه واحدة من أكثر الشخصيات تواضعاً . أما الشخصيات الأخرى ، أي النماذج العظيمة ، فلا يُقْدم دوستويفسكي على رسمها بنفسه ، بل يدعها ترسم نفسها بنفسها ، من خلال السياق ، في صورة دائمة التحول ، لا تكتمل على الإطلاق. إن شخصياته الرئيسية هي في حالة تكوّن دائم ، ويظل خروجها من الظل خروجاً جزئياً . ملاحظة عابرة : الفرق العميق في هذا

Twitter: @abdullah_1395

الأمر ، بينه وبين بلزاك الذي يصبّ اهتمامه الرئيسي دوماً على تظهير الشخصية تظهيراً صافياً ؛ بلزاك يرسم شخصيته مثلما يرسم دافيد لوحته ، أما دوستويفسكي فيعتمد التصوير على طريقة رامبراندت ، لكن تصاويره تأتي ، غالباً ، على درجةٍ من الرقيّ والإكتمال لا تكاد تسمح لنا بتبيّن ما وراءها أو ما حولها من عمق فكري . وهذا ما يدفعني إلى الإعتقاد أن دوستويفسكي لا يزال ، إلى الآن ، أعظم كتاب الرواية .

Twitter: @abdullah_1395

محاضرات أُلقيت في « فيو ـ كولومبيه »
نشـرت في المجلة الأسبوعية

لم أكن أظنّ أنني سأعيد كتابة هذه المحاضرات التي اعتمدت في تدوينها على الملاحظات التي سبق وأُخذتْ عنهـا ، مع إجـراء بعد التعديل هنا وهناك . وجلّ ما كنت أخشاه ألاّ يعوّض الترابط الذي ردته لها عمّا فقدتْه من الطبعية .

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

(١)

قبيل الحرب ، كنت أعدّ لـ **منشورات** « شارل بغوي » ، كتاباً عن حياة دوستويفسكي ، على نسق حياة **بيتهوفن** وحياة **ميكل ـ أنج** ، لرومان رولان . أقبلت الحرب ، فاضطررت إلى وقف العمل بهذا الكتاب . وقد شغلتني ، مدّةً طويلة بعد ذلك ، همومٌ واهتمامات أخرى ، وكنت أوشكت أن أهمل هذا المشروع ، حين طلب إليَّ « جاك كوبو » مؤخراً أن أتكلّم في حفلة إحياء الذكرى المئوية لمولد دوستويفسكي ـ في « فيو ـ كولومبيه » . عندها ، عدت إلى ملاحظاتي تلك ، فوجدت ، بعد هذه المدّة ، أن الأفكار التي حمّلتها إياها لا تستحق الإهمال ، لكن ربما كان الترتيب الزمني الذي ألجأتني إليه السِيْرة ، غير ملائم لعرضها . هذه الأفكار التي يضفر منها دوستويفسكي ، في كلٍّ من كتبه العظيمة ، ما يشبه الجديلة الكثّة التي يصعب حلحلة عقدها ، أغلب الأحيان ، لكنها تتكشّف أمامنا من كتاب إلى آخر ، هذه الأفكار هي موضع اهتمامي لا سيما أنني تبنّيتها كأفكاري الخاصة . لن أنجو من التكرار، إذا ما عرضت لكتبه الواحد تلو الآخر، لذلك ،

Twitter: @abdullah_1395

أفضّل أن ألجأ إلى طريقة أخرى تقوم على تتبع أفكاره من كتاب إلى آخر ، محاولاً استخلاصها ، وفهمها ، ومن ثمّ عرضها عليكم ، بأقصى ما يسمح به غموضها من وضوح . إن أفكار دوستويفسكي هي أفكار عالم نفس ، وعالم اجتماع ، وباحث أخلاقي في آن معاً ؛ إنه يجسّد كل هذه الصفات دفعة واحدة ، مع احتفاظه بصفة الروائي قبل كل شيء . على هذه الأفكار تدور حواراته . لكن ، بما أن هذه الأفكار لا ترد في شكلها الخام ، بل هي دائمة اللصوق بالشخصيات التي تعبّر عنها (ها هنا ، بالتحديد ، مكمْن غموضها ونسبيتها) ، وبما أنني ، من ناحية ثانية ، أرغب بدوري في تحاشي التجريد ، وفي إعطاء هذه الأفكار وجهها الملموس قدر الإمكان ، ـ أودّ ، في البدء ، أن أقدّم لكم دوستويفسكي كشخص ، وأنْ أحدثكم عن بعض حادثات حياته التي تكشف عن طباعه ، وتتيح لنا رسْم صورةٍ عنه .

كنت مصمِّماً أن أضع مدخلاً للسيرة التي كنت أعدّ لها قبيل الحرب ، يكون موضوعها الفكرة السائدة بيننا عن الرجل الشهير. ولتوضيح هذه الفكرة، كنت سأقيم مقارنة ما بين «روسّو» و «دوستويفسكي بعيدة كلّياً عن الافتعال: الواقع أن في طبيعتيهما من وجوه الشبه ما أتاح **لاعترافات** « روسو » أن تترك على دوستويفسكي بصمات واضحة . بيد أن «روسو» كما يخيّل

Twitter: @abdullah_1395

إليّ ، كان مفتوناً ، منذ البدء ، بـ **بلوتارك** . وقد خلق « روسّو » **للرجل العظيم** صورة من ذاته لا تخلو من المبالغة ؛ كان يضع نصب عينيه تمثالاً لبطل خيالي جَهد ، طوال حياته ، للإقتراب منه . كان يحاول أن يظهر كما كان يرغب لنفسه أن تكون . إنني أعترف بصدق تصويره له ، لكن تفكيره كان متجهاً إلى ذاته ، كما أن الغرور هو الذي كان يملي عليه هذا التصوير .

العظمة الفارغة ، يقول لابرويير ، هي عظمة نفور ، مُتعذرة . فهي تتحاشى الظهور أو الإقتراب ، لأنها تشعر بالنقص الذي فيها . وإذا عرّضت نفسها للغير فذلك لا يدوم إلا المدّة الكافية لإثبات ذاتها ، والتي لا تسمح بكشف حقيقتها ، أي ضآلتها الحقيقية .

واذا كان من غير المقبول أن أتعرّف إلى « روسّو » بين هذه الأسطر ، فإن فكري سرعان ما يتجه إلى دوستويفسكي حين أقرأ :

العظمة الحقيقية طليقة ، ناعمة ، أليفة ، وشعبية ؛ إنها لا تضنُّ بنفسها ، ولا تفقد شيئاً حين رؤيتها عن قرب ، بل كلما تعرّفنا إليها أكثر ، ازداد إعجابنا بها . إنها تنحني بطيبة نحو من هم أقل شأناً منها ، ثم تستعيد استقامة قامتها دون جهد . تتخلّى عن نفسها أحياناً ، تهملها ، تتحلّل من امتيازاتها ، مع الإحتفاظ بقدرتها على استعادتها دوماً ، وتثبيت قيمتها .

Twitter: @abdullah_1395

. الواقع أن دوستويفسكي لا يصطنع ولا يتكلّف ، كما أنه لا يعامل نفسه كإنسان متفوق . ما من تواضع أرفع إنسانيةً من تواضعه ، ولا أعتقد أن إنساناً متكبراً يمكن أن يفهمه على حقيقته .

إن كلمة « تواضع » تتردد باستمرار في رسائله وفي مؤلفاته :

« لماذا يرفضونني ؟ لا سيما وأنني غير متطلب ، وأصلّي بتواضع » « رسالة في ٢٣ تشرين الثاني ، ١٨٦٩) ، « لست ألحّ ، إنني أسألها بتواضع » (٧ كانون الأول ١٨٦٩) ، « توجّهت بالطلب الأكثر تواضعاً » (١٢ شباط ، ١٨٧٠) .

« غالباً ما كان يذهلني بتواضعه » ، يقول المراهق متحدثاً عن والده ، وحين يسعى إلى إدراك نوعية الصلات بين أمه وأبيه ، وطبيعة الحب بينهما ، يتذكر ما قاله والده : « لقد تزوجتني تواضعاً [1] » .

اطّلعت مؤخراً على مقابلة مع « هنري بوردو » أدهشتني فيها هذه الجملة : « في البدء ، على الإنسان أن يسعى إلى معرفة ذاته » . الذي أجرى المقابلة أساء فهم المقصود ـ من المؤكّد أن الأديب الذي يفتّش عن ذاته يتعرّض لخطرٍ جسيم ، خطر أن

---

(١) المراهق ، ص : ٣ .

Twitter: @abdullah_1395

يجدها . فحين يجد ذاته ، تصبح كتاباته باردة ، على صورته ومثاله ، ولا يعود ينبض فيها أي سؤال . يصبح محاكياً لنفسه . إن معرفة الأديب، مسالكه وحدوده ، تفضي به إلى عدم تجاوزها أبداً . لا يعود يخشى أن يحيد عن الصدق بل عن المنطق . إن الفنان الحقيقي هو الذي يبقى على الحدّ بين الوعي واللاوعي في العملية الإبداعية . إنه لا يعرف بالتحديد من يكون ، ولا يصل إلى معرفة نفسه إلا عبر ما ينتج ، وبما ينتج ، وبعد أن ينتج . . . لم يبحث دوستويفسكي عن نفسه مطلقاً ، بل بذلها في مؤلفاته بلا حساب . لقد تغلغل في كلٍ من شخصيات كتبه ، فنحن نتعرف إليه في كل واحدةٍ منها ، وسنرى في الحال ، كيف يخفق إخفاقاً ذريعاً حين يتكلم عن نفسه ، وأية بلاغة هي بلاغته حين يبث أفكاره عبر الشخصيات التي يهبها الحياة ؛ وهو إنما يجد نفسه حين يهبها الحياة . إنه يحيا في كل منها ، وهو حين يستسلم لتنوّع هذه الشخصيات ، إنما يحتمي بها من تناقضاته الذاتية بالدرجة الأولى .

لا أعرف كاتباً أغنى من دوستويفسكي بالمتناقضات والمتعارضات ، وبالنسبة إلى « نيتشه » ليس من هو أغنى منه « بالعداوات » . ولو أنه اشتغل بالفلسفة بدل اشتغاله بالرواية ، لكان عليه دون ريب أن يسعى إلى « تَعْقيل » أفكاره ، ولفقدنا عندها أفضل ما يتحلّى به .

Twitter: @abdullah_1395

إن الأحداث التي حفلت بها حياة دوستويفسكي ، مهما تكن مأساوية ، تبقى أحداثاً سطحية . فالإنفعالات التي تزخر بها ذاته هي التي تهزّ كيانه هزّاً عنيفاً . إلا أنه ، في ما وراء ذلك ، يبقى دوماً تلك المنطقة الحصينة التي لا تقوى الأحداث ولا الإنفعالات على اختراقها . ثمة جملة صغيرة لدوستويفسكي تكشف ، إذا ما أقرنّاها بنص آخر له ، ما نحن بصدده .

يقول في بيت الموتى :

ما من إنسان يحيا دون غاية معينة ، ودون سعي لتحقيق هذه الغاية ، فما أن يضيع الإنسانُ غايته والأمل ، حتى يحوّله القلق والغمّ إلى وحش . . .

لكن دوستويفسكي ، كما يبدو ، قد ضل السبيل إلى هذه الغاية ، فها هو يضيف :

غايتنا جميعاً كانت الحرية ، والخروج من السجن [1] .

كان هذا عام ١٨٦١ . هذا هو إذاً ، ما كان يقصد بالغاية . من المؤكد أنه كان يعاني الأمرّين في هذا السجن الرهيب (أمضى أربعة أعوام في سيبيريا وستة في الخدمة الإجبارية). كان يتألم ، لكنه ، ما إن عاد إلى الحرية ، حتى

---

(١) ص : ٣٠٣ .

Twitter: @abdullah_1395

أدرك أن الغاية الحقيقية، والحرية التي كان يطمح إليها ، إنما هي شيء أعمق من الإنتقال من سجن صغير إلى سجن أكبر . وفي سنة ١٨٧٧ ، يكتب هذه الجملة الغريبة :

ما من غاية تستحق أن يفني الإنسان حياته من أجلها [١] .

لكل منا إذاً ، في رأي دوستويفسكي ، مبرِّر للحياة ، سام خفيّ ـ خفيّ في الغالب حتى علينا نحن ـ مختلف تماماً عن المبرّر الخارجي الذي ينسبه معظم الناس لحياتهم .

لنحاول ، أول الأمر ، استجلاء ملامح تيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي الشخصية ، أن صديقه ريسنكامب يصفه لنا كما كان في العشرين من عمره سنة ١٨٤١ فيقول :

وجه مستدير ممتلىء ، أنف خانس [٢] قليلاً ، شعر كستنائي فاه قصير ، جبهة عريضة وحاجبان ضئيلان يؤويان عينين سنجابيتين عميقتي الغور ، وجنتان شاحبتان تغطيهما حُبيبات النمش ، سحنة سقيمة ترابية اللون تقريباً ، مع شفتين في غاية البروز والإنتفاخ .

يُقال إن تعرّضه لداء النقطة ، أولّ مرة ، كان في سيبيريا .

---

(١) الرسائل ، ص: ٤٤٩ .

(٢) متأخر عن الوجه مع ارتفاع في الأرنبة (المترجم) .

Twitter: @abdullah_1395

إلا أنه كان مريضاً قبل ذلك ، فجاءت سيبيريا لتزيد مرضه سوءاً . « سحنة سقيمة » : هذا يعني أن دوستويفسكي كان معتلاً منذ الصغر . ومع ذلك ، اختير السقيم للخدمة العسكرية بينما أُعفي أخوه ذو البنية السليمة القوية منها .

سنة ١٨٤١ ، أي في العشرين من عمره ، حاز على رتبة ضابط صف ، وكان عندها يعدّ لامتحانات تجري سنة ١٨٤٣ ، ويؤهّله الفوز فيها لرتبة ضابط قيادي . كان مرتبّه ثلاثة آلاف روبل ، ورغم أنه ورث أباه بعد موته ، فقد كان غارقاً في الديون على الدوام . ذلك أنه كان يحيا حياة طليقة ، وكان عليه ، إلى ذلك ، أن يهتّم بإعالة أخيه الأصغر . مسألة المال هذه ، تعاود الظهور في كل صفحة من رسائله ، أكثر إلحاحاً مما هي في رسائل « بلزاك » . إنها تلعب دوراً غايةً في الأهمية ، طوال حياته ، ولا يقدَّر له أن يرتاح من هموم المادّة نهائياً إلا في السنوات الأخيرة من حياته .

لقد انصرف دوستويفسكي ، أول الأمر ، إلى حياة التبذير . كان يختلف إلى المسارح والحفلات الموسيقية ، وحفلات الباليه ، غير مكترثٍ لشيء ، وقد استأجر أحد المنازل مرّة لا لشيء إلا لأن رأس المؤجِّر قد أعجبه ، يسرقه خادمه ، فتراه يجد لذة في تعريض نفسه للسرقة . كان ذا مزاج حادّ التقلّب ، حسب ما تمليه عليه حالته النفسية . لقد تمنّت عليه عائلته وأصدقاؤه أن

Twitter: @abdullah_1395

يسكن مع صديقه ريسنكامب ، لقصوره عن تدبير شؤونه بنفسه ، وكانوا يقولون له : « اقتدِ بالنظام الجرماني الدقيق الذي يتّبعه صاحبك هذا » . كان ريسنكامب ، الذي يكبر تيودور دوستويفسكي بعدة سنوات ، طبيباً . وفي سنة ١٨٤٣ قدم للسكن في بترسبورغ ، وكان دوستويفسكي ، في هذا الحين ، صفر اليدين ، لا يحوز على كوبك واحد . كان يستدين ليسدّ رمقه بالحليب والخبز . « تيودور هو من الذين يجعلون الحياة رغيدة لمن حولهم من الناس ، بينما يبقون ، هم ، طيلة حياتهم ، يعانون الفاقة » ؛ هذا ما يقوله ريسنكامب في إحدى رسائله . ما دامت هذه هي رغبة الأهل والأصدقاء ، فقد سكنا سوياً . لكن دوستويفسكي صديق غريب الأطوار . كان يستقبل زبائن ريسنكامب في غرفة الإنتظار ، وكلما خُيِّل إليه أن أحد هؤلاء فقير مُعْدم ، أعانه من مال ريسنكاب أو من ماله الخاص إذا توفّر معه المال . أحد الأيام ، وصله ألف روبل من موسكو ، فسدّد بعض الديون ، والمتبقي بدَّده في اللعب (في البليار كما يخبرنا بنفسه) ، مساء اليوم نفسه ، وفي الغد ألفى نفسه مضطراً لأن يستدين من صديقه خمسة روبلات . فاتني أن أشير إلى أن الخمسين روبلاً الأخيرة ، كان سلبه إياها أحد زبائن ريسنكامب حين أدخله دوستويفسكي غرفته في نوبة صداقة مفاجئة . وفي آذار ١٨٤٤ افترق ريسنكامب وتيودور

Twitter: @abdullah_1395

ميخائيلوفيتش دون أن يطرأ على هذا الأخير أيّ تغيّر يُذكر .

سنة ١٨٤٦ ، نشر **الناس البسطاء** ، وقد حظي هذا الكتاب بنجاح كبير ، مفاجىء . إن الطريقة التي يتحدث بها عن هذا الكتاب تميط اللثام عن بعض الأمور . نقرأ في إحدى رسائله العائدة لهذه الفترة :

> إنني في ذهول تام ، لا أتبينّ شيئاً ، ولا وقت لديّ للتفكير ؛ لقد خلقوا لي شهرة تدعو إلى الشك ، ولست أدري إلامَ يطول هذا العذاب .

لن أشير هنا إلا إلى أهمّ ما كتب . أما المؤلَّفات الضئيلة الشأن ، فلن آتي على ذكرها .

ألقي القبض عليه سنة ١٨٤٩ مع مجموعة من المشبوهين في ما سمّي آنذاك بمؤامرة بتراشفسكي .

إنه لمن الصعوبة بمكان معرفة ما كانت عليه أفكار دوستويفسكي السياسية والإجتماعية معرفة دقيقة ، ذلك الحين. إن معاشرته المشبوهين، ينبغي أن ننظر إليها من زاوية الفضول الفكري الطاغي والأريحية التي كانت تدفعه إلى المخاطرة دونما تبصّر بالعواقب. بيد أننا لا نملك ما يسمح بالإعتقاد أن دوستويفسكي كان فوضوياً ، أو أنه كان يشكّل خطراً على أمن الدولة .

Twitter: @abdullah_1395

لكن مقاطع عدّة من رسائله ، ومن صحيفة أديب ، تطلع علينا برأي مخالف ، كما أن كتاب المسكونون بأكمله يطالعنا بما يشبه الدفاع عن الفوضوية . يبقى أنه عُدَّ بين هؤلاء المشبوهين الذين كانوا يتحلّقون حول بتراشفسكي . اعتُقل ، مثُل أمام المحكمة ، واستمع إلى حكم الإعدام يُتلى عليه ، ولم ينجُ من هذا الحكم إلا في اللحظة الأخيرة حيث استبدل بالنفي إلى سيبيريا. كل هذا تعرفونه ، فلن أحدثكم هنا إلا عما لا يمكن العثور عليه في مكان آخر والذين ليسوا على بيّنة من هذه الأمور ، سأتلو عليهم بضعة مقاطع من رسائله ، مما له علاقة بعقوبته وحياته في سجن الأشغال الشاقة . إنها رسائل كاشفة للغاية ، فسنرى فيها هذا التفاؤل الذي أمدّه بالقوّة طيلة حياته، يلوح باستمرار عبْر تصويره همومه . هذا ما كتبه في ١٨ تموز ١٨٤٩ من القلعة حيث كان ينتظر صدور الحكم :

إن لدى الإنسان طاقة هائلة على الإحتمال وعلى الحياة ، والواقع أنني لم أكن أظنها بهذه القوة . أما الآن ، فقد خبرتها بنفسي .

وفي آب ، في عزّ المرض يكتب :

إنها الخطيئة أنْ تَهن عزيمة الإنسان . . . العمل العمل ، هذه هي السعادة الفِعلية .

Twitter: @abdullah_1395

وفي ١٤ أيلول ١٨٤٩ :

كنت أتوقّع الأسوأ ، فبتّ أعلم الآن أنني أملك في ذاتي من المؤونة للحياة ما يتعذّر نفاده [١] .

سأتلو عليكم رسالة ٢٢ كانون الأول الوجيزة على علاّتها :

اليوم ، ٢٢ كانون الأول ، اقتُدنا إلى ساحة سميونوفسكي . هناك ، تُلي علينا الحكم بالموت ؛ جعلونا نلثم الصليب ، كسروا سيوفاً فوق رؤوسنا ، وألبسونا القمصان البيضاء . بعد ذلك ، ثبّتوا ثلاثة منا على عواميد لتنفيذ الحكم . كان ترتيبي السادس ، وكانوا ينادون ثلاثة أثر ثلاثة . كنت في الدفعة الثانية ، ولم يبقَ من حياتي سوى بضع لحظات . عندها ذكرتك يا أخي ، وذكرت أولادك جميعاً . في لحظاتي الأخيرة ، كنتَ وحدك في خاطري . وعندها أدركت كم كنت أحبّك يا أخي الحبيب . لقد أتيح لي أن أعانق بلستشيف ودوري اللذين كانا إلى جانبي ، وأن أودّعهما الوداع الأخير .

أخيراً ، دُقّ جرس الفسْحة ، والذين كانوا مقيّدين الى العواميد أُخليَ عنهم ، وقرأوا علينا أن جلالة الإمبراطور قد وهبنا العفو .

في مؤلفات دوستويفسكي ، كثيرٌ من الإشارات ، المباشرة

---

(١) الرسائل ، ص : ١٠١ .

Twitter: @abdullah_1395

حيناً والضمنية حيناً آخر ، إلى حكم الإعدام وإلى اللحظات الأخيرة من حياة المحكومين ، لن أتوقف عندها الآن .

قبل رحيله إلى سميبالاتينسك ، مُنح نصف ساعة ليودّع أخاه . ويروي أحد أصدقائه أنه كان أهدأ نفساً من أخيه ، فقد قال له :

ليس أهْل السجن ، يا صديقي ، حيوانات مفترسة ، بل بشرٌ أفضل مني ، ربما ، وأرقى . . . سنلتقي مرةً أخرى ، آمل ذلك . لا أشك في ذلك . لا أطلب إليك إلا أن تراسلني وتمدّني بالكتب . سأعلمك بأسماء الكتب التي أريد . لا بدّ من القراءة بكثرة هناك .

(يضيف مدوّن أخباره : كانت هذه كذبة بيضاء ليطمْئِن أخاه) .

حين أغادر السجن ، سأباشر الكتابة . لقد خبرت الحياة كثيراً . هذه الأشهر الأخيرة ، وتنتظرني أيضاً تجارب كثيرة . وعندها ، لن أُعدم مادةً لكتاباتي .

لم يُسمح لدوستويفسكي ، أثناء السنوات الأربع التي قضاها في سيبيريا ، بالكتابة إلى أهله . وعلى أي حال ، فالكتاب الذي بين أيدينا عن رسائله ، لم يأتِ على ذكر أية رسالة تعود إلى تلك الفترة ، كما أن **وثائق** « أورست مولر » التي نشرت سنة

Twitter: @abdullah_1395

١٨٨٣ لم تشر إلى شيء من هذا القبيل . إلا أنه ، منذ نشرت هذه **الوثائق** ، فإن رسائل عديدة لدوستويفسكي أخذت طريقها إلى النور ، وسيعثر على أخرى غيرها ، دون ريب .

إستناداً إلى « مولر » ، غادر دوستويفسكي سجن الأشغال الشاقة في ٢ آذار سنة ١٨٥٤ ، وحسب الوثائق الرسمية ، غادره في ٢٣ كانون الثاني .

يشير الأرشيف إلى وجود تسع عشرة رسالة ، ما بين ١٦ آذرا ، ١٨٥٤ و١١ أيلول ، ١٨٥٦ ، من تيودور دوستويفسكي إلى أخيه وبعض أقاربه وأصدقائه، وذلك أثناء الخدمة العسكرية في سميبالاتينسك ، حيث أنهى مدة عقوبته . إن ترجمة « بيانستوك » لا تحوي إلا اثنتي عشرة رسالة ، ولست أدري لماذا أهملت رسالة ٢٢ شباط الرائعة ، التي ظهرت ترجمتها في العددين الثاني عشر والثالث عشر (المفقودين حالياً) ، من مجلة **الشهرة** ، وأعادت نشرها **المجلة الفرنسية الجديدة** في عدد الأول من شباط من تلك السنة . ولأن هذه الرسالة لم ترد في كتاب **رسائل** دوستويفسكي ، أستأذنكم في تلاوة مقاطع طويلة منها :

٢٢ شباط ١٨٥٤

اخيراً ، أصبح بوسعي محادثتك مدة أطول ، وبثقة أكبر كما

Twitter: @abdullah_1395

يخيّل إليّ . لكن ، أريد أن أسألك قبل كل شيء : بحق السماء ، لماذا لم تخطّ إليّ حتى الآن كلمة واحدة ؟ لم أتوقع ذلك منك يوماً . لكم كنت أشعر ، وأنا قابع في وحدة سجني ، باليأس القاتل حين أفكر أنك قد تكون رحلت عن هذا الوجود . وكنت أمضي ليالٍ بأكملها مفكراً بمصير أولادك ، وألعن القدر الذي يمنعني من أن أمدّ لهم يدَ العون .

إن ما يعذّبه أكثر ، كما نرى ، ليس أن يتخلّى عنه الناس ، بل ألاّ يستطيع مساعدتهم .

كيف اعبّر لك عن كل ما يدور في فكري ؟ من المتعذّر أن أجعلك تتفهّم حياتي ، وتسبر غور قناعاتي واهتماماتي . لا أحب الأعمال الناقصة : ألاّ تفصح إلا عن جزءٍ من الحقيقة يعني أنك لم تقل شيئاً . هذا هو ، على أي حال ، جوهر هذه الحقيقة ، ستمتلكها برمتها إذا أحسنت القراءة . ينبغي أن تعرف القصة . لذا ، سأبدأ بتجميع ذكرياتي .

تذكر كيف تركتني ، يا عزيزي ، يا صديقي ، يا أعزّ صديق . بعدما تركتني . . . اقتادونا نحن الثلاثة ، دوروف ، ياستر جمبسكي وأنا ، ليضعوا لنا الأغلال . كان ذلك في منتصف الليل ، أي لحظة عيد الميلاد بالذات ، حين ذقْت القيد لأول مرّة . كان وزنها عشر ليبرات [1] ، ولم يكن من

(١) الليبرة = ٥٠٠ غرام .

Twitter: @abdullah_1395

اليسير حملها والسير بها . بعد ذلك ، أصعدونا إلى زلاّجات مكشوفة ، كلٌ من ناحية برفقة شرطي (كان عددها أربعاً ، أي أن للمسؤول عن الشرطة واحدة بمفرده) ، وغادرنا سان ـ بترسبورغ .

كنت مغتمّاً ، ومسكوناً بحشْد من المشاعر ، وأحستني في دوّامة تدور بي إلى هاوية اليأس المطبق ؛ لكن الهواء الندي أنعشني ، وكما يحدث دوماً مع كل تغيّر يطرأ على الحياة ، فإن حيوية التأثرات المتولّدة في نفسي ، أعادت إليّ الشجاعة بحيث هدأت انفعالاتي وسكنْت في مدة وجيزة جداً . وأخذت أمعن النظر في مدينة بترسبورغ حيث كنا نمرّ . كانت المنازل مشعشعة للعيد وكنت أودّعها المنزل تلوْ الآخر . اجتزنا منزلكَ ، وكان منزل كرورفسكي غارقاً في الأنوار . هنا ، أدركني حزن ساحق . كنت أعلم أن ثمة شجرة عيد ، وأن على أميليا تيودوروفنا أن تأتي بالأولاد إليها . خيّل إليّ أنني أودّعهم . كم تحسّرت على فراقهم ، وكم ذكرتهم ، بعد سنوات ، والدموع تملأ عينيّ .

كنا نتجه إلى ياروسلافل . بعد ثلاث أو أربع محطات ، توقفنا في شليسلبورغ عند مطلع الفجر . تهافتنا على الشاي وكأننا لم نذقْ طعاماً منذ أسبوع . إن ثمانية أشهر من السجن ، ومسافة ستين فَرْستاً[1] من السفر ، فتحتا شهيتنا على الطعام ،

(١) الفَرْست مقياس روسي للطول يساوي ١٠٦٧ (المترجم) .

Twitter: @abdullah_1395

حتى انني لأذكر ذلك بمتعة . كنت منشرح الصدر ، وكان دوروف يتكلم دون انقطاع . أما ياستر جمبسكي فكان يرى المستقبل بعينين مظلمتين . رحنا نتفحص المسؤول عن الشرطة فتبيّن لنا شخصاً طيباً عرك الحياة وعركته . وقد جاب أوروبا كلها حاملاً رسائل رسمية ، وقد عاملنا بلطف ورفق غير متوقعين . كان وجوده معنا في الطريق لقيّة لا تقدّر بثمن . أما اسمه فهو كوزما بروكولييتش . من أمائر لطفه أنه استحصل لنا على زلاّجة مغلقة ، وهذا يعني الشيء الكثير حين يكاد البرد يبلغ بنا درجة التجلّد .

كان الغد يوم عيد . شوارع القرية مقفرة . شتاء عاصف ، ونحن نجتاز أراضي بترسبورغ ونوفغورود وياروسلافل القفراء . في طريقنا مدن صغيرة ، مبعثرة هنا وهناك ، لكن مناسبة العيد وفّرت لنا المأكل والمشرب في كل مكان نزلناه . كان البرد يخترق عظامنا ، على الرغم من الملابس الثقيلة .

ليس بوسعك أن تتصور كم هو قاسٍ أن تمضي عشر ساعات متوالية في الكيبيتكا[1] دون حراك ، وأن تقطع ما بين خمس أو عشر محطات في اليوم . كان البرد ينخر جسمي نخْراً موجعاً ، ولم تكن أية حرارة ، مهما ارتفعت درجتها ، لتشبع حاجتي إلى الدفء . أمضينا في برْم ليلةً بلغت برودتها الأربعين

(١) اسم الزلاّجة بالروسية .

Twitter: @abdullah_1395

درجة ، لا أنصحك بهذه التجربة فهي غاية في الإزعاج . اجتياز الأورال كان بمثابة كارثة . كانت ثمة عاصفة ثلجية ، فغارت الأحصنة والزلاجات في الثلج ، وكان علينا أن ننزل منها ، في الظلام الدامس ، وننتظر حتى تُرفع . الثلج من حولنا والعاصفة ، وحدود أوروبا . أمامنا سيبيريا والمستقبل الغامض ، ووراءنا الماضي برمته . كان جوّاً مفعماً بالحزن ، فانخرطت في البكاء .

في كل مكان مررنا به ، كانت قرى بأكملها تهرع للتفرّج علينا ، وعلى الرغم من أغلالنا ، كانوا يتقاضون عنا ، في المحطات ، ثلاثة أضعاف الأجر . لكن كوزما بروكوليتش أخذ على عاتقه ما يقارب نصف نفقتنا : كان يُلْزمنا بذلك إلزاماً ، بحيث اقتصر مصروف كل منا على خمسة عشر روبلاً .

الحادي عشر من كانون الثاني ، ١٨٥٠ ، وصلنا « توبولسك » وبعدما مثلنا أمام السلطات ، خضعنا للتفتيش وجُرِّدنا من نقودنا . بعد ذلك ، وُضعنا ، دوروف وياستر جبسكي وأنا ، في حجرة صغيرة على حدة ، بينما احتلّ سبيشنز ورفاقه حجرة أخرى ولم يتح لأيّ منا أن يرى الآخر .

أودّ لو أحدّثك ؛ بالتفصيل ، عن الأيام العشرة التي أمضيناها في توبولسك ، وعن الأثر الذي تركته في نفسي . لكن الوقت ليس مناسباً الآن . أكتفي بالقول أنهم أحاطونا

Twitter: @abdullah_1395

بالكثير من الود والرأفة حتى أننا شعرنا بالغبطة . الذين سبقونا إلى المنفى (بالأحرى زوجاتهم ، لا هم) كانوا يهتمون بنا كاهتمامهم بأهلهم . إنهم أناس رائعون أخذتْ عليهم خمس وعشرون سنة من التعاسة ، دون أن تناله منهم. إلا أنه لم تكن تتاح لنا رؤيتهم إلا من بعيد ، لأن الرقابة علينا كانت قاسية وشديدة . كانوا يرسلون لنا القوت والملابس ، ويمدّوننا بالعزاء والتشجيع ، وأنا الذي رحل دون أن يحمل معه حتى الضروري من الملابس ؛ فمكثت ، طول الطريق ، أتندّم على هذا الإهمال . . . لكنني عُدْت فحصلت على بعض الأغطية ، زوّدنا بها هؤلاء الناس .

أخيراً ، رحلنا .

بعد ثلاثة أيام ، كنا في « أومسك » .

كنت في « توبولسك » قد استعلَمْت مسبقاً عن رؤسائنا المباشرين ، فإذا المقدَّم رجل مستقيم للغاية ، أما النقيب ، آمر موقع كريفتسوف ، فكان نذلاً يندر مثيله ، متوحشاً ، وبه مسّ ، كما كان سكيراً محباً للخصام ، أي أنه كان يجمع في شخصه كل ما يمكن تصوّره من سفالة.

يوم وصولنا بالذات ، أخذ يعاملنا ، أنا ودوروف ، بسبب ما جُرِّمنا به ، وكأننا مجاذيب ، وأقسم أنه ، عند أول مخالفة من قبلنا ، سينزل بنا عقوبة جسدية . مضت على تعيينه هنا

Twitter: @abdullah_1395

سنتان ، وكان يقوم بأعمال جائرة لا مثيل لها ، تحت سمع الناس وبصرهم ، وقد مثل أمام المحكمة بعد ذلك بسنتين . لقد أنقذني الله من هذا الوحش . كان يصل ثملاً على الدوام (لم أره مرّة على غير هذه الحال) ، ويبحث عن سبب يخاصم من أجله السجناء ، ثم ينهال عليهم ضرباً بحجة أنه كان « ثملاً حتى الثمالة » . وأحياناً كثيرة ، كان ينهال على أحدهم بالضرب لأنه كان ينام على جانبه الأيمن ، أو لأنه كان يتكلم في المنام ، أو لأية حجة أخرى كانت تخطر في باله . كان علينا أن نقضي أيامنا مع هذا الرجل ، وأن نتحاشى اثارة غضبه باستمرار . وهذا الرجل ، كان يرسل عنا التقارير ، كل شهر ، إلى سان ـ بترسبورغ .

أمضيت هذه السنوات الأربع خلف جدار لا أتخطّاه إلا للقيام بما يفرض عليّ من عمل . كان العمل شاقاً ! أحياناً ، كنت أشتغل تحت المطر المتساقط وفي الوحل . وفي بَرْد الشتاء القارس ؛ كنت أشتغل وقد أنهكني التعب . مكثت مرّةً أربع ساعات لإتمام عمل إضافي : كانت درجة البرودة تفوق الأربعين ، فتجلّدت إحدى رجليّ .

كنا نحيا متكوّمين في ثكنة واحدة . تصوّر بناءً هرماً من الخشب . بناءً خرباً مهجوراً لم يعد يصلح إلا للهدم . في الصيف ، يكاد يخنقنا الحر ، وفي الشتاء نكاد نتجمد من القرّ .

Twitter: @abdullah_1395

أرضه المهترئة تغطيها طبقة كثيفة من الأقذار ، وتميل شبابيكه الضيقة إلى الخُضْرة بما استقرّ فوق زجاجها من أوساخ ، بحيث تكاد تتعذّر علينا القراءة ، حتى في عزّ النهار ، وفي الشتاء ، كان يكسوها الجليد بغطاء سميك . أما السقف فترشح منه المياه ، وأما الجدران فمشققة . كنا مضغوطين كعلبة سردين . كانوا يضعون في الموقد ست حطبات (بالكاد تذيب الجليد في الغرفة) ؛ لا أثر للدفء، بل إن الدخان هو الذي يملأ المكان ، هكذا كنا نقضي الشتاء بأكمله .

كان السجناء يقومون بغسل ملابسهم في الغرف بأنفسهم ، بحيث تنتشر برك المياه في كل مكان . وما أن يهبط الليل حتى تحظر علينا مغادرة المكان ، مهما تكن الأسباب ، ويوضع دلو على مدخل كل غرفة لقضاء الحاجة . . وكانت الروائح الكريهة تحاصرنا ، طوال الليل ، حتى لتكاد تخنقنا ، لكن السجناء كانوا يقولون : « كيف لا تصدر عنا القذارات ونحن كائنات حية ؟» .

كان السرير عبارة عن لوحين من الخشب العاري إلا من عُدّة ، وبعض الأغطية من المعاطف القصيرة التي تترك الأرجل في العراء . كنا نرتعد من البرد الليل بطوله . أما عن البق والقمل والصراصير فلا تسل ! كان لباسنا مقتصراً على اثنين من المعاطف المفرّات البالية التي لا تردّ البرد بأي حال ، وحذائين قصيري الساقية، وبهذه العدّة كان عليك تدبّر أمرك في سيبيريا!

Twitter: @abdullah_1395

طعامنا كان عبارة عن بعض الخبز والحساء حيث ينال كل واحد ربع ليبرة من اللحم ، كما هو الفطام . لكن هذا اللحم كان معزوماً ، ولم يكن من السهل العثور عليه . أيام الأعياد ، كنا نأكل الـ « كاشا »[1] خاليةً من السمن تقريباً . أما أيام الصوم ، فكان طعامنا يقتصر على الشُكْروت[2] بالماء ، لا أكثر . لقد وهنتْ معدتي من جرّاء ذلك ، وهَناً شديداً ، فتعرّضت للمرض مرّات عديدة .

هل تتصوّر أن بوسع الإنسان أن يحيا بلا نقود ؟ وكيف تكون حالتي لو لم أكن حائزاً على بعض المال ؟ لم يكن السجناء العاديون بقادرين على تحمّل هذا « الرجيم » أكثر منا . لكنهم كانوا جميعاً يمارسون التجارة على نطاق ضيّق داخل الثكنة ، فيجنون بعض الكوبكات . أما أنا ، فكنت أشرب الشاي ، وأحصل على حصتي من اللحم مقابل بعض النقود ، وهذا ما كان ينقذني . كان يستحيل عليّ الامتناع عن التدخين ، وإلا أصابنا الإختناق في مثل هذا الجو ؛ لذا كان علينا الإختباء من أجل ذلك .

أمضيت أياماً كثيرة في المستشفى . كان ينتابني الصرع على فترات متباعدة ، وإلى ذلك ، كنت أعاني آلام الروماتيزم في رجليّ . وباستثناء هذه العوارض ، فإن صحتي ، على العموم ،

---

(١) فرخ الكُرْكي مطهواً .
(٢) كَرَنْب مملّح ، ومخلّل .

Twitter: @abdullah_1395

كانت جيدة . أضف إلى هذه المزعجات جميعاً ، افتقاري شبه التام إلى الكتب . وحين كنت أعثر صدفةً على كتاب ، كان عليّ أن أقرأه خفيةً ، محوطاً بحقد رفاق السجن ، وطغيان الحرّاس ، وفي جوّ الشتائم والصراخ ، وسط ضوضاء لا تنقطع . لم يتح لي الإنفراد بنفسي يوماً على امتداد أربع سنوات ، أربع سنوات ! القول أن حالتنا كانت سيئة لا يعبّر عن الواقع ، فإذا أضفت إلى ذلك هذه الخشية الدائمة من ارتكاب مخالفة ما ، وهي خشية تحكم على العقل بالعقم ، تحصّلت أمامك ميزانية حياتي .

لن أخبرك بما طرأ على نفسي ومعتقداتي ، على فكري وقلبي ، في غضون هذه السنوات الأربع ، فالحديث يطول . لكن التأمل المستمر الذي كنت أهرب إليه من واقعي الأليم لم يكن عديم الجدوى . تحدوني الآن آمالٌ وأمانٍ ، لم أكن اتبيّنها في ما مضى ، لكن هذه لا تزال مجرّد فرضيات . المهمّ أنت . لا تشح بوجهك عني . ساعدني ! أنا بحاجة إلى الكتب والنقود : هلاّ وفّرتها لي بحق المسيح !

« أومْسك »، مدينة صغيرة تكاد تخلو من الأشجار . في الصيف ، يسكنها القيْظ والهواء والغبار ، وفي الشتاء ، لا يفارقها الهواء المحمّل بالجليد . لم أرَ بلاد الريف من قبل . المدينة قذرة وقاسية ، ماجنة إلى أقصى حدود المجون (أتكلم عن الشعب) ؛ فلو لم ألتقِ هنا بكائنات رفيعة لأدركني

Twitter: @abdullah_1395

الضياع . كونستانتن إيفونيتش إيفانور كان بمثابة أخ لي . لقد أدّى لي خدمات جلّى . إذا زار بترسبورغ فأكرم وفادته . أنا مدين له بخمسة وعشرين روبلاً . ولكن ، كيف السبيل إلى مبادلته هذه المودّة ، وهذا الإهتمام والعناية اللذين أبداهما نحوي ؟... ولم يكن الوحيد يا أخي ، فالدنيا ملأى بذوي النفوس النبيلة .

سبق أن أخبرتك أنّ صمتكَ أقْلقني . لكنني أشكرك على المال الذي أرسلته إليّ . في رسالتك المقبلة (حتى في الرسالة الرسمية ، لأنني ما زلت غير متأكد من أن بوسعي اعطاءك عنواناً آخر) ، حدّثني عن نفسك بالتفصيل ، وعن اميليا تيودوفنا ، عن الأولاد والأهل والأصدقاء ، وعن معارفنا في موسكو ، من مات منهم ومن لا يزال على قيد الحياة . حدثني عن تجارتك : كم هو رأس المال الذي تسيّر به أعمالك ؟ هل الأمور على ما يرام ؟ هل تعترضك أية عوائق ؟ وأخيراً ، هل يمكنك أن تمدني ببعض المال ، وما المبلغ الذي تستطيع أن تعينني به كل سنة ؟ لا ترسل المال في الرسالة الرسمية إلا إذا لم أوفّق إلى عنوان آخر . وعلى العموم فليكن امضاؤك دائماً : ميخائيل بتروفيتش (هل تفهم قصدي ؟) . لا أزال أملك بعض النقود ، لكن لا كتبَ لديّ . أرسلْ إليّ ، إذا أمكن ، مجلّات هذه السنة ، كحَوْليّات الوطن مثلاً .

لكن الأهم من كل ذلك أن ترسل إليّ (بأي ثمن) مؤلفات

Twitter: @abdullah_1395

المؤرخين القدامى (الترجمة الفرنسية) ، والمؤرخين الجدد ، بعض الكتب في الإقتصاد وآثار آباء الكنيسة . انتقِ الأقل كلفةً بينها والأكثر غنىً ، وارسلها إليّ على الفور .

. . . . . .

يقولون قصد تشجيعي : إنهم قوم بسطاء . لكن البسطاء من الناس يُخشى جانبهم أكثر بكثير من المعقَّدين . ومن ناحية ثانية ، لا فرقَ بين الناس في أية بقعة من الأرض حلّوا . لقد اكتشفت بين قطّاع الطرق والأشرار في سجن الأشغال الشاقة أناساً حقيقيين يتحلّون بطباع أصيلة ، قوّية ، ورفيعة . إنهم كالذهب المُلقى في الوحلْ . كان بينهم من يفرض احترامه عليك فرضاً لبعض مزايا في طبيعته ، ومن لا تجد لديه أي عيب على الإطلاق . احدهم ، وهو شاب تُشركي متهم بالسرقة ، علّمته القراءة ، وعلّمته حتى اللغة الروسية ، وكم كان عظيم الإمتنان ! سجين آخر ، أجهش بالبكاء وهو يودّعني . كنت أعطيته بعض المال ، فحفظه لي جميلاً لا يُنسى . ومع ذلك ، أصبحت حادّ الطباع ، أعاملهم معاملة مزاجية متقلّبة ، لكنهم كانوا يراعون حالتي هذه ، ويتحمّلون كل ما يصدر عني ، دون أن ينبسوا ببنت شفة !

وكم هي عديدة النماذج الرائعة التي أتيح لي مشاهدتها في السجن !

لقد عشْت حياتهم، ويمكنني أن أتباهى، بمعرفتي الجيّدة

Twitter: @abdullah_1395

بهم؛ إن ما سمعته من قصص السَّطْو والمغامرات، تتَّسع له مجلدات. يا له من شعب عجيب! لم يذهب وقتي سدىً. إنني أعرف الشعب الروسي عن ظهر قلب، ولو أنني لم أتوفر على دراسة روسيا قلة هم الذين يعرفون مثلي... يبدو أنني أمدح نفسي. لكنني معذور، أليس كذلك؟

أرسل إليّ القرآن، و« كانتْ » (نقد العقل الخالص) و« هيجل »، خاصة **تاريخ الفلسفة**. إن مستقبلي متوقف على هذه الكتب. لكنني أريدك أن تسعى لنقلي إلى القوقاز، وأن تسأل لي أين يمكن أن أنشر كتبي، وما هي الخطوات التي يتوجب اتباعها. لا أحسب أنني سأنشر شيئاً قبل سنتين أو ثلاث سنوات، لكن، وحتى ذلك الوقت، ساعدني على الحياة، أتوسّل إليك، إذا لم أنلْ بعض المال قُضيَ عليّ من وطأة الخدمة. اعتمد عليك.

الآن سأكتب في الرواية والمسرح. لكن، لا يزال أمامي الكثير من القراءة، الكثير الكثير! لا تنسني!

مرةً أخرى، وداعاً.

ت. د.

هذه الرسالة، لم تحظَ بجواب، كرسائل كثيرة غيرها.

Twitter: @abdullah_1395

ويتضح أن أخبار أهله بقيت منقطعة طوال فترة مكوثه في السجن تقريباً. هل كان موقف أخيه حياله ناجماً عن الحذر أم الخوف أم اللامبالاة؟ لا أدري. لكن «مدام هوفمن» كاتبة سيرة حياته، تميل إلى الترجيح الأخير.

أول رسالة لدوستويفسكي عثرنا عليها، بعد إطلاقه وتجنيده في فوج المشاة السابع من فيلق سيبيريا، تعود إلى ٢٧ آذار ١٨٥٤. هذه الرسالة، لا أثر لها في ترجمة «بيانستوك»:

لا أريد منك جرائد بل كتباً لمؤرخين أوروبيين، وكتباً في الاقتصاد. أرسل إلي آثار آباء الكنيسة، وكتب المؤلفين القدماء، إذا أمكن: هيرودوت، توسيديد، تاسيت، بلين، فلافيوس، بلوتارك، ديودور، الخ. مترجمةً إلى الفرنسية، ثم أرسل إليّ القرآن وقاموساً للغة الألمانية. بالطبع، لا أطلب كل هذه الكتب دفعة واحدة، ابعث إليّ أيضاً **بكتب الطبيعيات** لـ «بيسّارن»، وبحثا في الفيزيولوجيا[1]، أيّ بحث في الفرنسية إذا كان في الفرنسية أفضل منه في الروسية. ولتكن من الأقل كلفةً بين الكتب. لا أريدها دفعةً واحدة، بل كتاباً كتاباً، دون عجلة. ومهما يكن ما ترسله ضئيلاً، فسأكون لك من الشاكرين. هل تدرك ان مدى حاجتي إلى هذا الغذاء الفكري.

---

(١) علم وظائف الأعضاء.

Twitter: @abdullah_1395

ثم يضيف بعد ذلك :

تعرف الآن ما هي اهتماماتي الرئيسية . الواقع أنه ليس لديّ ما اهتمّ به سوى الخدمة . لا أحداث خارجية ، لا اضطراب في حياتي ، لا مشاكل . لكن ما تعتمل به النفس ويضجّ به القلب والفكر ، ما يختمر وينضج ، وما يذبل ويطرح كالزؤان ، لا يمكن لقصاصة من ورق أن تفيه حقه . إنني أحيا منعزلاً ، مختبئاً عن العيون كالعادة . مكثت حارساً خمسة أعوام ، فوفّرت لي الحراسة متعةً كبرى ، وفّرت لي الوحدة . وعموماً ، فقد أتت حياة السجن على أمور كثيرة في نفسي ، وأيقظت فيها أموراً أخرى . لقد حدّثتك مثلاً عن مرضي ، وعن العوارض الغريبة التي تشبه عوارض داء النقطة وليست من داء النقطة في شيء . سأوافيك بالتفاصيل يومياً .

لكن التفاؤل يعود ليطغى عليه ، بعد ذلك :

خلال فصل الصيف ، كنت ماخوذاً بحيث لا أكاد أجد متسعاً للنوم . أما الآن ، فقد اعتدت قليلاً ، كما أن صحتي تحسّنت بعض الشيء . وإنني ، بعيداً عن أجواء اليأس ، أواجه المستقبل بمزيد من الشجاعة .

ثمة رسائل ثلاث تعود إلى الفترة ذاتها نشرتْ في مجلة النيف، عدد نيسان ، ١٨٩٨ . فلِمَ لم يورد «بيانستوك» إلا الرسالة الأولى، ولم يأت على ذكر رسالة ٢١ آب، ١٨٥٥؟ في هذه الرسالة يشير

Twitter: @abdullah_1395

دوستويفسكي إلى رسالة كتبتْ في تشرين الأول من السنة الفائتة، ولم يُعْثر لها على أثر.

حين أسمعتك، في رسالة تشرين الأول، السنة الماضية، الشكاوى ذاتها (بخصوص صمت الآخرين)، أجبتني بقولك إن قراءتها كانت أمْراً جد شاق، عليك. عزيزي ميشا، لا تحقد عليّ بحق السماء. فكّر أنني وحيد كحصاة مُهْملة، وإنني انفعالي، سوداوي ومريض... إنني أول المقتنعين بخطأي.

عاد دوستويفسكي إلى بترسبورغ في ٢٩ تشرين الثاني، ١٨٥٩. في سميبالاتينسك، كان قد تزوج أرملة أحد السجناء، وهي أم لطفل كبير بليد يظهر أن دوستويفسكي قد أخذه على عاتقه، كان مولعاً حتى الهوس بتحمل المسؤوليات.

«كان تغيّره طفيفاً»، يخبرنا صديقه ميليوخوف، ويضيف: «أصبحت نظرته أكثر نفاذاً، ولم تفارق وجهه أمائر الحيوية والنشاط».

سنة ١٨٦١، أصدر **مهانون ومذلّون**، وبين سنتي ١٨٦١ - ١٨٦٢، **ذكريات من بيت الموتى**. **الجريمة والعقاب**، أولى رواياته الشهيرة، لم تظهر إلا سنة ١٨٦٦.

في السنوات ١٨٦٣، ١٨٦٤ و١٨٦٥، إنكبّ على الإهتمام بإصدار مجلة. وتحدّثنا إحدى رسائله عن هذه السنوات الإنتقالية

Twitter: @abdullah_1395

ببلاغة نادرة . ولا أملك إلا أن استشهد ببعض مقاطع منها هي آخر ما استشهد به من رسائله . هذه الرسالة مؤرخة في ٣١ آذار ، ١٩٦٥ [١] .

... سأقص عليك حكاية حياتي في هذا الردْح من الزمن ، لكنني لن أقصّ الحكاية كلها ، فهذا مستحيل . لأن الأمور الأساسية ، في حالات كهذه ، لا تذكر في الرسائل . ثمة أمور ليس من السهل روايتها . لذا، أكتفي ، بإعطائك لمحة خاطفة عن هذه السنة الأخيرة .

تعلم ، ولا ريب ، أن أخي قد عُني ، منذ أربع سنوات ، بإصدار مجلة كنت أشاركه العمل فيها ، وكان كل شيء على ما يرام . حظي كتابي ، بيت الموتى ، بنجاح ملحوظ أعاد سمعتي الأدبية الى الأذهان . وكان أخي ، حين باشر إصدار المجلة ، يرزح تحت ديون كثيرة كنا على وشك تسديدها حين فوجئنا بإيقاف المجلة في أيار ، ١٨٦٣ ، بسبب مقال وطني عنيف فسّر انتقاداً لأعمال الحكومة وللرأي العام . ثمّتْ . دين على دَيْن . أخذت صحة أخي تعتلّ . أما أنا فلم أكن عندها إلى جانبه . كنت في موسكو بالقرب من زوجتي المحتضرة . أجل ، الكسندر اغوروفيتش ، أجل ، صديقي العزيز ! لقد كتبت إليّ مشفقاً من خسارتي الأليمة في ملاكي ، في أخي ميشال ، ولم

---

(١) الرسائل (ترجمة بيانستوك) ، ماركيز دو فرانس .

Twitter: @abdullah_1395

تكن تعلم إلى أي مدىً يمضي القدر في تحطيمي . ثمة كائن حبيب آخر غاب عني هو زوجتي التي توفّيت بالسلّ الرئوي في موسكو ، حيث كانت تقيم منذ سنة . لم أترك حافة سريرها طوال ذلك الشتاء من سنة ١٨٦٤ .

آه ، يا صديقي ! كانت تحبني حبّاً جمّاً وكنت أبادلها هذا الحب . مع ذلك ، لم نكن سعداء معاً . سأخبرك بكل هذه الأمور حين أراك . يكفي أن تعلم أنه ، رغم تعاستنا الكبيرة معاً (بسبب طبعها الغريب بوساوسه وشذوذه المرضيّ) ، لم يكن حبنا ينقطع ، حتى إنه كلما ازداد شقاؤنا ازداد تعلّق أحدنا بالآخر . مهما يبدو الأمر غريباً ، فلقد كان كذلك . كانت أفضل اللواتي عرفتهنّ شرفاً ونبلاً وسخاءً . حين واراها الموت ، لم يعد بوسعي تصوّر ما آلت إليه حياتي من فراغٍ وألم (على الرغم من العذاب الذي قاسيته وأنا أراها تموت ببطء على مدار سنة كاملة) ، مع أنني شعرت شعوراً أليماً بقيمة ما واراه معها الموتُ من ذاتي . ها قد مضت سنةٌ على وفاتها ، ولا يزال هذا الشعور يلاحقني .

عقب مواراتها الثرى ، أسرعتُ في الذهاب إلى أخي في بترسبورغ ، كان آخر من بقي لي ! بعد ثلاثة أشهر ، رحل هو الآخر عن هذا العالم . لم يلازمه المرض سوى شهر واحد ،

Twitter: @abdullah_1395

كان ، في خلاله ، غير بادي الخطورة ، حتى إن العارض الذي قضى عليه في ثلاثة أيام لم يكن يتوقّعه أحد .

ها أنا ألفيتُ نفسي وحيداً فجأة . شعرت بالرهبة . صارت الحياة لا تطاق ! انشطرتْ حياتي شطرين : الماضي ، من جهة ، مقترناً بكل ما من أجله حييت ، ومن جهة ثانية ، المجهول الذي لا أتبينّ في سرابه خفْقة قلب واحدة أستعيض بها عن الغائبين . لم يبق ثمة ما أحيا من أجله . هذا هو الواقع بعينه . أقيم علاقات جديدة ؟ أخلق حياة جديدة ؟ إن مجرّد التفكير في هذا يثير الهلع في نفسي . هكذا ، شعرت لأول مرة بأنني لا أملك ما يحلّ محلّهما ، وأنني ما أحببت سواهما في هذه الدنيا ، وأن حباً جديداً ليس غير وارد فحسب ، بل لا ينبغي له أن يرد .

هذه الرسالة أتبعها بأخرى مكمِّلة في ١٤ نيسان بعد خمسة عشر يوماً من أنّة اليأس هذه :

بقي لي من كل ما احتفظ به في نفسي من قوة وطاقة بعض من نشاط مضطرب غامض ، قريب من اليأس . إنني في حال غير سوية على الإطلاق ، ينوشها الإضطراب والمرارة ، وفوق ذلك كله ، أنا وحيد !

صديق الأربعين سنة من عمري لم يعدْ في الحياة ، ومع هذا ، يخيّل إليّ أنني أتهيأ للحياة باستمرار . أمرٌ مضحك أن

Twitter: @abdullah_1395

يمارس الإنسان حيوية الهررة ! أليس كذلك ؟

ثم يضيف :

أكتب إليك عن كل شيء ، ومع ذلك ، أرى أن أهم ما في حياتي الخلقية والروحية ، لم أوافكِ عنه بشيء ، لم أعطكِ حتى فكرة بسيطة .

أريد أن أقارن هذا الكلام بجملة غريبة وردت في الجريمة والعقاب . يحدّثنا دوستويفسكي في هذه الرواية عن راشولينكوف الذي أدين بإحدى الجرائم وأرسل إلى سيبيريا. في الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب ، يحدّثنا دوستويفسكي عن الشعور الغريب الذي استبدّ ببطل الرواية ؛ لقد خيّل إليه أنها المرة الأولى التي يباشر فيها الحياة . يقول :

أجل ، ما الذي تعنيه كل تعاسات الماضي ؟ حين غمرته هذه الفرحة الأولى بالعودة إلى الحياة ، أصبح كل شيء بالنسبة إليه حدثاً خارجياً غريباً عنه ، كل شيء حتى جريمته ، حتى السجن والنفي إلى سيبيريا ، فكأنه كان يخامره الشك في أن هذه الأمور قد حدثت له بالفعل .

أقرأ عليكم هذه العبارات تأييداً لما سبق وأشرت إليه ، في البداية ، من أن الأحداث الخارجية ، مهما كانت كبيرة

Twitter: @abdullah_1395

ومأساوية ، ليس لها في حياة دوستويفسكي الوقع الذي لحدثٍ صغير ، هو ما ينبغي أن نتوصل إليه .

في أثناء إقامته الجبرية في سيبيريا ، التقى دوستويفسكي امرأة قرّبته إلى الإنجيل ، الكتاب الوحيد المسموح رسمياً بقراءته في السجن . إن قراءة الإنجيل والتأمل في كلماته ، كانا أمرين بالغي الأهمية في حياة دوستويفسكي ؛ فكل ما كتبه ، في ما بعد ، جاء مشبعاً بروح الإنجيل . وستكون لنا عودة إلى الحقائق التي يكتشفها فيه .

من الأهمية بمكان كبير مقارنة ما يثيره الإحتكاك بالإنجيل من ردّات مختلفة لدى اثنين تجمع بينهما طبيعتان متقاربتان من بعض الوجوه : نيتشه ودوستويفسكي . إن ردّة فعل نيتشه الأولى والعميقة كانت الحسد . ولا يمكن فهم مؤلفات نيتشه جيداً ما لم يؤخذ في الإعتبار هذا الشعور . لقد استبدّ بنيتشه حَسَدٌ من المسيح وصل به حدّ الجنون . حين كتابته **زرادشت** ، كانت تشغله رغبة جامحة في أن يظهر ضلال الإنجيل . وغالباً ما يتوسّل أسلوب عظة الجبل لينفذ منها إلى النقيض . وضع كتاب **المسيح الدجّال** ، وفي مؤلّفه الأخير ، **المسيح مكلّلاً بالشوك** ، جعل من نفسه الخصم المظفّر للمسيح الذي يضع نصب عينيه استئصال تعاليمه من الجذور .

Twitter: @abdullah_1395

ردّة الفعل لدى دوستويفسكي كانت مختلفة تماماً . أحسّ دوستويفسكي ، منذ مقاربته الأولى للإنجيل أن فيه ما يسمو ، لا على شخصه فحسب ، بل على الإنسانية جمعاء ، لقد اشتمّ فيه عطر الألوهة . . . إن هذا التواضع الذي تكلّمت عليه في البدء ، وسأعود الى الحديث عنه أكثر من مرة ، كان يهيئه للخضوع العام أمام كل ما يجد فيه السموّ . لقد انحنى بخشوع أمام عظمة المسيح ، وأولى نتائج هذا الخضوع وأهمها ، أنه حفظ له التعقيد الذي تتصف به طبيعته ؛ الواقع أنه ما من فنان عرف ، كما عرف هو ، كيف يضع حكمة الإنجيل هذه موضع التطبيق : **من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها ، ومن أهلك نفسه من أجلي يجدها .**

هذا التفاني وهذا الإنقياد ، هما اللذان أتاحا لهذه المشاعر المتضاربة أن تتجانب في ذات دوستويفسكي ، وحفظا له هذه الثروة العجيبة من المتناقضات التي تتصارع في الداخل .

سنرى ، في محاضرتنا المقبلة ، اذا ما كانت خطوط صورة دوستويفسكي ، التي تبدو لنا ، نحن الغربيين ، في غاية الغرابة ، إذا ما كانت هذه الخطوط مشتركة بين الروس جميعاً ، مما سيتيح لنا أن نميّز ، بصورة أوفى ، خصائص دوستويفسكي الذاتية من الخصائص المشتركة .

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

(٢)

إن الحقائق ذات الطابع النفسي والخلقي التي ستوفّر لنا كتب دوستويفسكي فرصة بحثها ، تبدو لي من أهم الحقائق ، وهي ما أنتظر التصدّي له بفارغ الصبر . غير أن جدّتها والجرأة في طرحها ، قد تدخلانها عندكم في دائرة اللامعقول إذا ما قارَبْتها دفعة واحدة . لذا ، فالحذر واجب .

حدّثتكم ، في المحاضرة الأخيرة ، عن صورة دوستويفسكي بالذات . ومن الضروري الآن ، توضيحاً لخصوصيات هذه الصورة ، أن أضعها ضمن إطارها .

قيِّض لي أن أعرف بعض الروس معرفة حميمة . لكنني لم أَطأْ أرض روسيا يوماً . لذا ، فإن مهمتي ستكون عسيرة إذا لم أحظَ ببعض العَوْن . سأسوق لكم ، في البدء ، بعض الملاحظات حول الشعب الروسي عثرت عليها في كتاب ألماني عن دوستويفسكي . تشدِّدُ « مدام هوفمن » على رابطة التضامن والأخوّة التي تشدّ الشعب ، أفراداً وجماعات ، بعضه إلى بعض ، وتؤدي ، عبر طبقاته كافةً ، إلى تلاشي الحواجز

Twitter: @abdullah_1395

الإجتماعية في ما بينها ، وتفضي ، بشكل طبيعي ، إلى هذه البساطة في العلاقات التي نقع عليها في روايات دوستويفسكي .

مثالاً على ذلك ، التعريفات المتبادلة ، والود المفاجىء ، وتلك التجمّعات الآنية التي أحسن أحد أبطاله بتسميتها « عائلات بالمصادفة » . فمنازلهم تتحوّل إلى معسكرات يلجأ إليها كل طارىء على المدينة ، وتستضيف صديق الصديق ، وسرعان ما يتصل حبل الود بينهم جميعاً .

ملاحظة أخرى لـ « مدام هوفمن » عن الشعب الروسي : إفتقاره إلى الدقّة ، وإلى منهج صارم في الحياة . فكأن مسألة الفوضى ، لا تعني الروسيَّ كثيراً ، فتراه غير مكترثٍ لوضع حدّ لها . وإذا كان للفوضى التي تطغى على هذه المحاضرات من عذر ، فهو في فوضى أفكار دوستويفسكي بالذات ، في غزارة تشابكها ، وفي صعوبة إخضاعها لتصميم يرضي منطقنا الغربي . من أسباب هذا التخبّط وهذا الغموض ، في رأي « مدام هوفمن » ، ضعف الإحساس بالزمن لدى دوستويفسكي ، من جرّاء التعاقب الملّ بين ليالي الشتاء ونهارات الصيف ، وهو تعاقبٌ يجري خارج حركة الزمن . في كلمة موجزة على مسرح الـ « فيو- كولومبيه » سردت هذه الحادثة التي تأتي « مدام هوفمان » على ذكرها : عِيْبَ على أحد الروس افتقاره إلى الدقة فأجاب : « أجل ، الحياة فن صعب . ثمة

Twitter: @abdullah_1395

لحظات على الإنسان أن يحياها كما ينبغي ، وهذا أهم من الحرْص على دقة المواعيد » . إن هذه الجملة تكشف لنا عن الإهتمام الخاص الذي يوليه الروسيّ لحياته الداخلية ، وهو اهتمام لا تحظى به العلاقات الإجتماعية كافة .

تجب الإشارة ، مع « مدام هوفمن » ، إلى نزوع دوستويفسكي نحو الألم والشفقة ، هذا النزوع الذي يمتدّ ليشمل المجرمين . ليس في اللغة الروسية سوى كلمة واحدة للدلالة على الشقيّ وعلى المجرم ، وكلمة واحدة للدلالة على الجناية وعلى الجنحة ، فإذا أضفنا إلى ذلك الخشوع شبه الديني ، أدركنا ، بصورة أوضح ، مبعث الحذر المترسِّخ في نفس كل روسي ، في كافة علاقاته مع الآخرين ، خاصة مع الأجانب ، وهو حذرٌ يشكو الغربيون منه كثيراً ، ولكنه عائد ، كما تؤكد « مدام هوفمن » ، الى شعور الروسي الدائم بالنقص والزلل ، أكثر مما يعود إلى انعدام الثقة بقيمة الآخرين : إنه حذر المتواضعين .

لا أدلَّ على هذا التديّن المفْرط ـ الذي يستمّر بعد أن يزول كل إيمان ـ من حكاية اللقاءات الأربعة للأمير مويشكين ، بطل رواية الأبله التي سأتلو عليكم بعض ما ورد فيها :

بدأ مويشكين حديثه مبتسماً وهو يقول : بصدد الإيمان ،

Twitter: @abdullah_1395

تمّت لي ، الأسبوع الماضي ، أربعة لقاءات مختلفة . ففي صباح أحد الأيام ، وكنت مسافراً في القطار ، اكتشفت أن رفيق الدرب الذي تحدّثت معه أربع ساعات هو س . . . كنت قد سمعت عنه الكثير ، وعلمت ، على وجه الخصوص ، أنه ملحد . إنه إنسان واسع الإطلاع ، وقد سرّني أن تتاح لي فرصة التحدث إلى عالم جليل . وهو إلى ذلك ، على درجة عالية من سموّ الأخلاق حتى إنه كان يخاطبني وكأننا في مستوى واحد من رجاحة العقل والمعرفة . إنه لا يؤمن بالله ، ومع هذا ، لم يفاجئني فيه سوى أمرٍ واحدٍ هو أن حديثه لم يتطرق إلى هذه المسألة ، لا من قريب ولا من بعيد . هذه الملاحظة كانت تعاودني دائماً كلما جمعني حديث بأحد الكَفَرة ، وكلما قرأت كتاباً من كتبهم : إن حججهم كلها ، حتى أكثرها تمويهاً ، كانت في نظري ، لا تستند إلى أساس صلب . لم أخفِ الأمر عن س . . . غير أن طريقة تعبيري كانت ، ولا شك ، غير جليّة ، فلم يدرك قصدي . . . عند المساء ، توقّفت في إحدى مدن المقاطعة ؛ الفندق الذي نزلته كان مشغولاً بأخبار جريمة قتل ارتكبت في هذا النُّزُل ، الليلة السابقة : فلاحان متقدمان في العمر ، صديقان حميمان من نزلاء الفندق ، شربا الشاي وانصرفا إلى النوم (كانا قد حجزا غرفة واحدة) ، ولم يكن أيّ منهما ثملاً . كان أحدهما قد تنبّه ، منذ يومين ، إلى ساعة من الفضّة ، معلّقة بسلسلة دقيقة

Twitter: @abdullah_1395

من البلّور ، يحملها صديقه ، ولم يكن رآها معه من قبل . لم يكن الرجل لصاً ، بل كان شريفاً وراضياً عن وضعه كفلاح . لكن هذه الساعة أعجبته أيّما إعجاب ، وتولّدت في نفسه رغبة جامحة في امتلاكها لم يستطع لها دفعاً ، استحضر سكيناً ، وما إن أدار الصديق ظهره ، حتى اقترب منه بخطىً وئيدة ، فحدّد الهدف ورفع وجهه إلى السماء راسماً إشارة الصليب ، ثم تمتم بورَع هذه الصلاة : « اغفر لي يا الله من اجل المسيح ! » ، وانقضّ على صديقه فقضى عليه بطعنة واحدة واستولى على الساعة .

انفجر روجوجين ضاحكاً . كان ثمة ما يدعو إلى الإستغراب في هذا الفرح المفاجىء . فالرجل ، حتى ذلك الحين، كان لا يزال كئيباً .

ـ ذلك أنني أحب هذه الأمور ! لا ، ليس ثمة أفضل ما هو أفضل من هذا ! هتف بصوت متقطّع لاهث : واحد لا يؤمن بالله البتة ، وآخر يؤمن بالله لدرجة أنه يصلّي قبل الإقدام على قتل الناس ! . . . لا ، يا صديقي الأمير ، هذه الأمور لا تختلق اختلاقاً! ها ،ها ،ها ! لا ، ليس ثمة ما هو أفضل من هذا . . .

ـ في الغداة ، خرجت للتنزّه في المدينة ، فالتقيت جندياً ثملاً يترنح على الرصيف الخشبي . اعترضني قائلاً : « أيها

Twitter: @abdullah_1395

البارين [1] ، إشترِ مني هـذا الصليب الفضي . اتركه لك مقابل اثنتين من الغريفنات . إنه حقاً صليب من الفضة » ، ووضع في يدي صليباً لا شك أنه انتزعه من عنقه للتو ؛ كان الصليب معلّقاً بشريط أزرق ، ونظرة عجلى تكفي لمعرفة أنه من القصدير . كان مُزْداناً بثمانية رؤوس وينقل النمط البيزنطي نقلاً أميناً . مددت يدي إلى جيبي وأعطيته المال الذي طلب ، ومرّرت الصليب إلى عنقي . وسرعان ما ظهرت على وجهه علامات الرضى لأنه خدع بارينا مغفّلاً . وكنت مقتنعاً من أنه سيذهب من توّه ليبدِّد في الكباريه ما كسبه من هذه البَيْعة . عندها ، يا صديقي ، أخذت الأشياء التي كنت ألتقيها في وطني تفعل في نفسي أعمق الفعل . من قبل ، لم أكن أفهم من روسيا شيئاً : فلقد عشت طفولتي غافلاً عن كل شيء ، ومن ثمّ، خلال السنوات الخمس التي أمضيتها في الخارج ، لم يبقَ لي من الوطن الأم سوى ذكريات هي بقايا من تعصّب . لذا فقد مضيت في طريقي قائلاً في نفسي : « لا ، سأتريَّث قليلاً قبل أن أدين يهوّذا هذا ، يعلم الله ما في هذه القلوب الواهنة الثملة » .

بعد ساعة من الزمن ، وأنا في طريقي إلى الفندق ، التقيت فلاّحة بين ذراعيها طفل رضيع . كانت امرأة في مقتبل العمر ،

---

(١) (Barine) من ألقاب النبلاء في روسيا .

Twitter: @abdullah_1395

أما الطفل فلا يزيد عمره عن الستة أسابيع ، وكان يبتسم في وجه أمه دائماً . فجأة ، رأيت الفلاحة ترسم إشارة الصليب بخشوع مفرط ! فسألتها (كنت وقتذاك أكثر من الأسئلة) : « لماذا تفعلين ذلك يا عزيزتي ؟» فأجابت : « إن فرحة الله كلما ارتفعت إليه صلاة حارة من أحد الخطأة توازي فرحة الأم حين تلمح الإبتسامة الأولى على وجه رضيعها». هذه امرأة من عامة الناس ، تتفوّه بهذا الكلام ـ تكاد تكون هذه عباراتها بالذات ، وتعبّر عن هذه الفكرة العميقة الدقيقة بوضوح ، هذه الفكرة التي تكشف عن روح الدين ، والتي يكمن فيها جوهر الدين المسيحي ، أي مفهوم الله ـ الأب ، وهي الفكرة التي تقول أن الله يغتبط لمرأى الإنسان كما يغتبط الأب حين يرى ولده ، وهي فكرة المسيح الرئيسية . إنها فلاحة ساذجة ! والحقّ إنها كانت أمّاً . . . ومن يعلم ؟ فقد تكون زوجة ذلك الجندي . اصغِ ، برافين ، هذا جوابي عن سؤالك الذي طرحته عليّ منذ قليل : الشعور الديني لا ينال منه أي برهان ، ولا يذهب به أي خطأ أو جريمة ، أو نزعة إلحاد . إن في الدين أموراً لا ولن تدخل ضمن هذا الإطار ، ولن تقوى عليها أدلّة الملحدين مطلقاً . لكن الشيء الأساسي أن هذا الشعور لا وجود له إلا في القلب الروسي ، وهذه هي خلاصتي : إنها من الانطباعات الأولى التي ارتسمت في ذهني عن وطننا روسيا . ثمة ما ينبغي أن نقوم به ، بارفن ! صدقني ، ثمة ما ينبغي عمله في هذا العالم !

Twitter: @abdullah_1395

يطالعنا في نهاية هذه القصة جانب آخر من جوانب الصورة : الإعتقاد بوجود رسالة خاصة بالشعب الروسي .

مثل هذا الإعتقاد نجده لدى العديد من الكتاب الروس . لكنه ، مع دوستويفسكي ، يصبح قناعة فاعلة أليمة . ومأخذه على تورغنييف افتقاره إلى هذا الشعور الوطني ، وانجذابه الطاغي نحو أوروبا .

يقول دوستويفسكي ، في مقالة له عن « بوشكين » ، إن هذا الأخير ، وهو في عزّ استلهامه بيرون وشانيه ، قد وجد فجأة ما يسمّيه دوستويفسكي « الروح الروسية » ، وهي « روح تتميّز بالجدّة والصدق » . وعن السؤال الذي يسمّيه « بوشكين » « السؤال المحرِّم » : أي إيمان هو إيماننا بالشعب الروسيّ وقيمته ؟ يجيب هذا الأخير محتدّاً : « الزم التواضع أيها المتعجرف ، ينبغي أن تبدأ بالإنتصار على التكبر الذي فيك . كن متواضعاً واحنِ هامتك أمام تربة الوطن .

إن تفاهة الفروقات العرقية لتتضح ، أجلى ما يكون ، في مفهومنا للكرامة . ليس دقيقاً القول إن ما يحرّك الإنسان المتمدّن هو حسّ الكرامة (١) ، كما كان يقول « لاروشفوكولد » ، بل

---

(١) L'amour - propre.

Twitter: @abdullah_1395

الشعور بما أسمّيه « نقطة الكرامة »[1] ، وهذا الشعور ليس هو ذاته لدى الفرنسي والإنكليزي ، والإيطالي والأسباني . . . لكن نقطة الكرامة هذه ، يعتبرها الشعب الروسي متشابهة الى حد بعيد في كافة الأمم الغربية . إذا اتضح لنا كيف يفهم الروس الكرامة ، اتضح أيضاً كم تتعارض الكرامة ، في مفهومها الغربي ، مع وصايا الإنجيل . إن حسّ الكرامة لدى الروسيّ يفترق عنه لدى الغربي ، مقترباً من أجواء الإنجيل . وبعبارة أخرى ، إن الشعور المسيحي لدى الروسي له الغَلَبة ، أكثر الأحيان على حسّ الكرامة . كما نفهمه ، نحن الغربيين .

إذا خيَّرنا الغربي بين أحد أمرين : أن ينتقم لنفسه ، أو أن يعتذر عن خطأ ارتكبه ، فإنه يعتبر الحلّ الثاني عملاً مخزياً لا يقوم به سوى الجبناء ، عديمي الكرامة . يميل الغربي إلى اعتبار عدم التجاوز عن الإساءة ، وعدم النسيان ، وعدم التراجع ، من سمات شخصيته بالذات . لا شك أنه يحاول أن يتلافى الخطأ ، لكنه ، حين يقع فيه ، يصبح الإعتراف به من أكره الأمور إلى نفسه . أما الروسيّ فهو دائماً على استعداد لأن يقرّ بأخطائه ـ حتى أمام أعدائه ـ وأن يلزم جانب التواضع ، ويتولّى ادانة نفسه بنفسه .

---

(١) «Le point d'honneur».

Twitter: @abdullah_1395

مما لا شك فيه أن الكنيسة الارثوذكسية ، بتساهلها في مبدأ الإعتراف العام ، لا بل باقرارها له وموافقتها عليه ، إنما تدفع هذا الإتجاه الطبيعي باتجاه النماء. إن فكرة اعترافٍ يتمّ أمام أيٍّ كان ، أمام جميع الناس ، لا في أذن كاهن ، تحوّم فوق قصص دوستويفسكي كالوسواس . حين اعترف راسكولينكوف بجريمته لسونيا في **الجريمة والعقاب** ، نصحته سونيا في الحال بأن يذهب إلى الساحة العامة ، ويرجع منادياً : « لقد قتلت » ، كوسيلة وحيدة للتخفُّف من الألم . إن معظم شخصيات دوستويفسكي تتملّكها غالباً ، وبصورة مفاجئة ، الحاجة إلى الإعتراف ، إلى الإعتذار لأيّ كان ، حتى أن الإنسان المعنيّ يتساءل أحياناً : « ما معنى هذا الكلام ؟ » وحاجة إلى الإتّضاع أمام من تتوجّه إليه هذه الشخصيات بالكلام .

تذكرون ولا شك ذلك المشهد الغريب في **الأبله** : في إحدى السهرات عند ناستازيا فيليبوفنا ، اقترح أحدهم، تمضيةً للوقت ، أن يقوم كل من الحاضرين بالإعتراف بأحقر عمل أتاه في حياته ، المثير للعجب أن الإقتراح لم يواجه بالرفض ، بل مضى كلٌّ منهم في اعترافاته ، على درجات متفاوتة من الصدق ، يكاد لا يدانيه أي حياء .

وثمة ما هو أغرب أيضاً : إنها حكاية صغيرة من حياة دوستويفسكي بالذات ، بلغتني من محيطه المباشر . وكان من

Twitter: @abdullah_1395

تهوّري أن رويتها على مسامع كثيرين ، فتناقلتها الألسن ، وضاعت معالمها ، وهذا سبب إضافي لأن أعيد سردها عليكم اليوم :

في حياة دوستويفسكي بعض الأحداث الغامضة للغاية ، بينها واحدة جرت الإشارة إليها في **الجريمة والعقاب** (الجزء الثاني ، ص : ٢٣) ، ويبدو أنها كانت مدار فصل في **المسكونون** لم يرد في الطبعة الروسية ، ولم ينشر حتى الآن إلا في ألمانيا ، في طبعة هي خارج التداول [١] . يتناول الفصل اغتصاب فتاةٍ صغيرة ؛ وبينما تشنق الفتاة نفسها في إحدى الغرف ، كان الجاني ستافروغين الذي يعلم ذلك ينتظر ، في حجرة مجاورة ، إلى أن تلفظ أنفاسها الأخيرة . ما هو حظ هذه القصة المشؤومة من الصدق ؟ لا تهمني معرفة ذلك . كان دوستويفسكي ، بعد مغامرة من هذا النوع ، يعاني دوماً من تبكيت الضمير . هذه المعاناة ، كانت تقضّ مضجعه ، ولا شك في أنه قد أشار على نفسه بما أشارت به سونيا على راسكولنيكوف . لقد شعر بالحاجة إلى الإعتراف ، لكن لا إلى كاهن فحسب ؛ وراح يبحث عمّن يمكن أن يكون الإعتراف أمامه أشدّ صعوبة ، فلم يجد سوى

---

(١) نشرت ترجمة لهذا الفصل ، بعد ذلك ، في المجلة الفرنسية الجديدة (حزيران وتموز ، ١٩٢٢) . نشر ، بعد ذلك ، تحت عنوان: **اعتراف ستافروغين** (بلون ـ نورّي) .

Twitter: @abdullah_1395

تورغنييف . لم يكن دوستويفسكي قد رأى تورغنييف منذ زمن بعيد ، كما أن علاقته به كانت سيئة للغاية . لكن تورغنييف كان رجلاً عاقلاً ، غنياً ، مشهوراً ، ومحترماً من الجميع . لذا ، لملم دوستويفسكي أطراف شجاعته ، أو ربما استسلم إلى ضرْب من الإغْراء أو إلى انجذاب خفيّ ، و . . . . لنتصوّر المشهد : تورغنييف إلى مكتبه في حجرة العمل المرفهة . ـ يُقْرع الجرس . ـ غلامٌ يعلن عن قدوم تيودور دوستويفسكي . ـ ما يريد ؟ ـ يدخل الرجل الحجرة ، وها هو يبدأ ، على الفور ، رواية قصته . ـ تورغنييف يستمع إليه ذاهلاً . ما دخله في كل هذا ؟ لا شك في أن الذي أمامه مجنون ! بعد الفراغ من الرواية ، صمت مطْبق . دوستويفسكي ينتظر من تورغنييف كلمة أو إشارة . . . يخيَّل إليه أن تورغنييف سيضمّه بين ذراعيه ، ويعانقه باكياً ، ثم تتمّ المصالحة . . . كما يحصل في رواياته . لكن ، بما أن شيئاً من هذا لم يحدث :

ـ سيد تورغنييف ، يجب أن أقول لك : « إن احتقاري نفسي لعظيم . . » .

انتظر أيضاً . لم يجد سوى الصمت . عندها ، لم يعد بوسع دوستويفسكي الإحتمال ، فأضاف بغضب :

ـ وأحتقرك أكثر . هذا كل ما أردت قوله . . . » وخرجَ

Twitter: @abdullah_1395

صافقاً الباب وراءه . إن طبع تورغنييف الأوروبي لم يعد يسمح له بفهم سلوك دوستويفسكي .

التواضع الذي عهدناه فيه ، نراه هنا ينقلب فجأة إلى نقيضه . فالرجل الذي كان يحني هامته تواضعاً ، عادت الإهانة فأوقفته على رجليه . التواضع يشرِّع أبواب الفردوس ، أما الإهانة فتفتح مصاريع الجحيم . التواضع يتضمّن نوعاً من الخضوع الإرادي الذي تمليه الحرّية . إنه تطبيق لكلام الإنجيل : « من وضع نفسه ارتفع » . أما الإهانة فتحطّ من قيمة النفس الإنسانية ، تمتصّ الحيوية التي فيها ، تستفزّها وتجعلها عقيمة . إنها تحدث نوعاً من الجرْح المعنوي الذي يتعذر شفاؤه .

أعتقد أنه ما من تشوّه أو انحراف في الطباع ـ كالذي نقع عليه لدى العديد من شخصيات دوستويفسكي ممعناً في شذوذه المرضي الخطر ـ ، إلا ونجد مصدره في إحدى إهانات الطفولة .

مهانون ومذلّون ، عنوان أحد كتبه الأولى . هذا الأثر كله مسكون بهاجس هذه الفكرة ، وهي أن الإهانة تدنّس النفس بينما يطهّرها التواضع . إن الجنّة ، كما يحلم بها ويصوِّرها إليوشا كارامازوف هي عالم لا أثر فيه للذلّ ولا للمهانة .

إن مفتاح الولوج إلى المزاج الشيطاني الفريد لأغرب صورة في

Twitter: @abdullah_1395

رواياته ، صورة ستافروغين الرهيب في **المسكونون** نجده في بضع جمل من الكتاب : « نيقولا فسفولو دوفيتش ستافروغين ، كما تروي إحدى شخصيات الكتاب ، كان ، هذا الحين ، يحيا في بترسبورغ حياة لا أجد لوصفها عبارةً أفضل من القول أنها كانت « حياة هازئة » ؛ لم يكن يقوم بأي عمل ، وكان يسخر من كل شيء [1] » .

أما والدة ستافروغين التي كانت تستمتع إلى هذا الكلام ، فلم تلبث أن صرخت :

ـ لا ؛ كان في ذلك ما هو أبعد من الشذوذ ، كان ثمة شيء مقدس . ابني إنسان ذو كبرياء ، **وقد مُسَّ كبرياؤه وهو صغير** ، لذلك انتهى إلى هذه الحياة التي يحقّ لكم اعتبارها ساخرة [2] .

وفي موضع آخر :

وتتابع بربارا بتروفنا كلامها بلهجة قريبة من الخطابة : لو أن نيقولا حظي بإنسان هادىء إلى جانبه ، إنسانٍ كبير في **تواضعه** . . . فلربما كان تخلّص من نزوات السخرية هذه التي هدّت وجوده هدّاً .

---

(١) **المسكونون** ، الجزء الأول ، ص : ١٩٧ .

(٢) م.ن. ، ص : ٢٠١ .

Twitter: @abdullah_1395

إن بعض شخصيات دوستويفسكي التي أفسدت الإهانة طبعها ، تجد نوعاً من اللذة والرضى في الإستسلام للسقوط مهما كان مُنْكراً .

يقول بطل المراهق بعدما عانى من فترة إماتة قاسية للذات : هل كنت أشعر فعلاً بالحقد في ما أقوم به من أعمال شنيعة ؟ لا يمكنني الجزم . فمنذ طفولتي الأولى ، وحين كنت أتلقّى الإهانات في الصميم ، كانت تنمو في داخلي رغبة لا تقهر في التمرّغ مزهوّاً في وحول الإنحطاط والغرق فيها إلى أبعد مما يشتهي المهين: « آه ! أنت أهنتني ، سأمضي إذاً في إهانة نفسي . انظر ! وليأخذك العجب [1] ! » .

إذا كان التواضع يعني التخلّي عن الكبرياء ، فالإهانة تعزّز الشعور به .

فلنصغِ أيضاً إلى حكاية البطل الحقير في **الروح الخفيّ** :

في إحدى الليالي ، فيما كنت ماراً قرب نزْل صغير ، رأيت من النافذة لاعبي البلياردو يشتبكون بقضبان البلياردو ، ويلقون بواحد منهم من النافذة . لو وقع هذا الحادث في غير هذا الوقت ، لألقى في قلبي الرعب . لكنني كنت في حالة جعلتني

---

(١) **المراهق** ، ص : ٢٠١ .

Twitter: @abdullah_1395

أغبط ذاك الذي ألقي من النافذة، إلى درجة أنني ولجتُ النزْل، ودخلت قاعة البليار ممنيّاً النفس بالسقوط من النافذة.

لم أكن ثملاً، لكن السأم يقودك أحياناً إلى حيث لا تعلم! على أنّ شيئاً لم يحدث. فالواقع أنني لم أكن أهلاً للخروج من النافذة، فعدت أدراجي دون أن أحظى حتى بنعمة الضرب.

ما إن ولجت القاعة حتى كان ضابط يعيدني إلى حجمي الطبيعي، كنت أقف قرب طاولة البليار، وحين أراد الضابط المرور وقفت في طريقه دون وعي مني، فما كان منه إلا أن أمسكني من كتفيّ وأزاحني من دربه ومضى دون أن يتفوّه بكلمة كأنه غير منتبه لما يفعل. لَوْ أنه ضربني لغفرْتُ له ذلك. لكن، أن يزيحني من طريقه دون أن يأبه لوجودي، فهذا ما لم يكن بوسعي التجاوز عنه.

يا للشيطان! لم أكن لأضنّ بشيء لو أن المعركة كانت فعلية، وأكثر استقامة، وأكثر ملاءمةً وأدباً! لقد عاملني كذبابة. كان الضابط ضخم الجثة وأنا قصير هزيل. لكنني كنت سيد الموقف. فلم يكنْ عليّ سوى أن أعترض ليصبح خروجي من النافذة أمراً محتماً. غير أنني شغّلت فكري وآثرت الإنسحاب مغتاظاً.

لكن سرعان ما يتضح لنا، حين نتابع القصة، أن هذا الحقد الجارف ما هو إلا الوَجْه الآخر للمحبة.

Twitter: @abdullah_1395

. . . بعد هذه الحادثة ، غالباً ما كنت ألتقي هذا الضابط في الشارع . كنت أذكره جيداً ، ولست أدري إنْ كان هو يذكرني. لا أعتقد ، فثمة دلائل تؤيد ذلك . أما أنا فكنت أنظر إليه بعين الحقد والغضب . استمر هذا سنوات عديدة ، وكان غضبي يقوى ويزداد حدّة من سنة إلى سنة . بدأت أجمع المعلومات عنه ببطء . لم يكن ذلك بالأمر السهل ، فأنا لا أعرف أحداً . أحد الأيام ، وفيما كنت أتبعه من بعيد ، وكأنه يقودني برَسَن ، سمعت أحدهم يناديه باسمه ، وهكذا عرفت اسمه . وفي يوم آخر ، تعقّبته إلى منزله ، وأعطيت البوّاب عشرة كوبكات ليُعْلِمني أين يُمْضي أوقاته ، وفي أية طبقة يَقْطن ، وهل يسكن وحيداً أم أن معه أحداً ، الخ ، باختصار ، كل ما يمكن معرفته من بواب . صباح أحد الأيام ، طرأ على فكري أن أكتب أقصوصة أصوّر فيها طباع هذا الضابط تصويراً هزلياً ، على الرغم من أنني لم أمارس الكتابة من قبل . قمت بكتابة هذه القصة مغتبطاً . فانتقدت فيها ما انتقدت ، وجرّحت ما طاب لي التجريح . وقد حوّرت اسمي بحيث لا يمكن اكتشافه إلا بعد عناء ، ثم نقّحت القصة وأرسلتها إلى أخبار اليوم . لكن النقد لم يكن مسموحاً به ذلك الحين ، فلم تنشر الأقصوصة . كان انزعاجي عظيماً ، وكدت أختنق من الغيظ . أخيراً ، استقرّ رأيي عل استثارة خصمي ، فكتبت إليه رسالة رقيقة عذبة أرجوه فيها أن يعتذر إليّ ، وفي

Twitter: @abdullah_1395

حال الرفْض ، لمحّت له إلى المبارزة تلميحات على قدْرٍ كافٍ من الوضوح وقد صـــغـــت الرسالة بحيث أنه لو تهيّأ للضابط قدْرٌ ، ولو ضئيل ، من الرهافة والسموّ ، لهرع إليّ معانقاً وعارضاً عليّ صداقته . ولكم كان هذا جميلاً ! لكنّا أمضينا معاً حياة حلوة للغاية ! للغاية [1] !

وهكذا ، فإن المشاعر المتناقضة غالباً ما تتناوب الظهور لدى دوستويفسكي بصورة مفاجئة .

لا تعوزنا الأمثلة على ذلك ، فمن بينها حكاية الولد التعيس في **الإخوة كارامازوف** ، الذي يُطْبق أسنانه بحقد على يد اليوشا حين يمدّ له يده ، في الوقت الذي بدأت تنمو فيه لديه بذور محبة وحشية نحوه ، دون أن يدري .

ما مصدر إنحراف المحبّة عند هذا الولد ؟

ـ لقد شاهد الولد دميتري كـارامازوف ، شقيق إليـوشا ، يضرب أباه ويشدّه من لحيته بوقاحة معيبة ، عقب خروجه من إحدى الخمّارات . وسيصرخ هذا الولد في ما بعد : « أبي ، أبي الحنون ، لكم أهانك ! » .

في مقابل التواضع ، وعلى المستوى الخلقي ذاته ، لكن في

---

(١) **الروح الخفي** ، ص ٧٤ ـ ٧٥ .

Twitter: @abdullah_1395

الطرف الآخر منه ، يقف الكبرياء الذي تؤجّجه الإهانة ، فتستثيره وأحياناً تشوّهه بصورة مريعة .

من المؤكد أن الحقائق النفسية تبدو دائماً في عيني دوستويفسكي على ما هي عليه في الواقع ، أي حقائق خاصة . إن دوستويفسكي كروائي (لأنه لم يكن يوماً من المنظّرين، بل من الرائين) يحاذر الإستقراء ويدرك المحاذير الكامنة (بالنسبة إليه على الأقل) في محاولة صياغة قوانين عامة [1] . علينا نحن ، إذا شئنا ، أن نكتشف هذه القوانين ، أن نَسْلخ هذه الفروخات الطرّية عن أرومة كتبه ، كهذا القانون مثلاً : من يتعرّض للإهانة ، يحاول ، بدوره ، إهانة الغير [2] .

على الرغم من غنى شخصيات دوستويفسكي وتنوّعها ، فإنها تتحرك داخل إطار هو نفسه على الدوام : التواضع في مقابل

---

(١) يقول «شلوزر» في **المجلة الفرنسية الجديدة** ، عدد شباط ١٩٢٢ : « يقوم النبوغ الروسي مهما بلغت به الجرأة ، على استناده إلى الوقائع الملموسة ، وإلى الواقع الحيّ ، وهذه إحدى أهم خصائصه الأساسية . يمكنه ، من ثمَّ ، أن يوغل بعيداً في التأمل المجرَّد ، لكن ليعود في النهاية ، مكتنزاً بما اكتسبه من أفكار ، إلى نقطة الإنطلاق ، إلى الواقع الذي به يكتمل .

(٢) مثل ليدف في **الأبله** . راجع في الملحق ٢ ، الفصل الرائع حيث يتلهّى ليدف بتعذيب الجنرال ايفولغين .

Twitter: @abdullah_1395

الكبرياء ، الأمر الذي يوقعنا في الحيرة والارتباك لسبب بسيط هو أن هذه النظرة ليست نظرتنا نحن إن ما يزعجني مثلاً في رائعات ديكنز الروائية ، هو أن تراتبيّتها وبعبارة أوضح ، أن سلّم القيم فيها يستند إلى معايير تكاد تكون بدائية . يخيّل إليّ وأنا أقرأ إحدى هذه الروايات أنني أمام إحدى لوحات يوم الحساب لـ « أنجليكو »[1] : ها هنا المختارون ، وهناك الهالكون ، وهنالك بعض المتشككين يدور الصراع عليهم بين الملائكة والشياطين . أما الميزان الذي يزانون به جميعاً فهو كنُقيشة مصرية ، لا يدخل في حسابه إلى درجة كل من منهم من الصلاح : السماء للأخيار ، وللأشرار الجحيم . إن ديكنز في هذا إنما يخضع لمعتقدات جمهوره ومسلّمات زمانه . فقد ينجح الأشرار ، وقد يخفق الأخيار ويدفعون الثمن : وهذا هو عيب حياتنا الأرضية وعيب مجتمعنا . إن رواياته ، جميع رواياته تحاول أن تقنعنا بامتياز القلب على العقل ، وتجهد في تقديم الأدلّة المحسوسة على ذلك . لقد اخترت ديكنز مثلاً لأنه الوحيد ، على ما أعتقد ، بين الروائيين الكبار ، الذي تبرز لديه بساطة التصنيف ، بأجلى صورها ، وهذا هو سبب إنتشاره بين الناس .

---

(١) رسّام ايطالي عاش في النصف الاول من القرن الخامس عشر ، اشتُهر بلوحاته الإيقونية (المترجم) .

Twitter: @abdullah_1395

والحال أنني حين تفرّغت مؤخراً لقراءة ثانية ، شبه متصلة لمعظم آثار دوستويفسكي ، عثرت لديه على تصنيف مماثل ، أقل بروزاً دون ريب ، لكنه يكاد يكون في المستوى نفسه من البساطة ، لكن الدلالة هنا أعظم شأناً : إن التدريج (واعذروا لي هذه الكلمة المقيتة) لا يتم ، في روايات دوستويفسكي ، استناداً إلى درجة صلاح كل شخصية أو إلى صفاتها الذاتية ، بل إلى مستوى الكبرياء عندها . فمن جهة ، يعرض شخصيات متواضعة (وقد يذهب التواضع ببعضها إلى حدّ السفالة والإلتذاذ بالسفالة) ، ومن جهة ثانية ، شخصيات متكبّرة (وقد يصل بها تكبّرها حد الإجرام) ، وهذه الشخصيات عادة هي الأرفع ثقافة لأن غطرستها تدفعها دوماً إلى تطلب النبل .

أراهن أنكما مكتئبا ، الليل بطوله ، جنباً إلى جنب تتحادثان ، وأن وقتاً ثميناً قد ضاع في التباري على النبل .

هذا ما يقوله بيار ستبانوفيتش القذر لستافروغين في **المسكونون** [1] ، أو يقول :

على الرغم من الجزَع الذي يثيره فرسيلوف في نفسها ، فإن ذلك لم ينلْ من احترام كاترينا نيقولاييفنا له ، لنبل مبادئه ومستواه الخلقي الرفيع ... ففي رسالته إليها قطع لها وعد

---

(١) **المسكونون** ، الجزء الثاني ، ص : ٢٢٧ .

Twitter: @abdullah_1395

شرف بألاّ يمسّها أي مكروه . أما هي فكانت مشاعرها لا تقلّ نبلاً عن مشاعره ! كان بينهما نوع من **المزايدة في المجاملة** [1] .

لا يمكن لأي شيء أن يمسّ حسّ الكرامة فيك ، تقول اليزابيث نيقولاييفنا لستافروغين : أول أمس ، وفيما أنا عائدة إلى المنزل بعد ردّك النبيل على الإهانة التي وجهتها إليك أمام الناس ، اكتشفت فجأة أنك تجنّبت مواجهتي ، لا **لأنك تحتقرني** ، بل لأنك متزوج ، وكنت أخشى أن يكون الإحتقار هو السبب ، كوني فتاة مجتمع .

ثم تضيف :

على أي حال ، فإن كبريائي لم يُمَسّ [2] .

إن شخصيات دوستويفسكي من النساء ، يثيرها الكبرياء ويحرّكها أكثر مما يثير شخصياته من الرجال (ناستازيا فيلوبوفنا ، شقيقة راسكولينكوف ؟ وأغلابه إبانتشين في **الأبله** ، اليزابيت نيكولاييفنا في **المسكونون** ، وكاترينا ايفانوفنا في **الإخوة كارامازوف**) .

لكن الوضعاء من الناس يبقون ، نتيجة انقلاب يمكن اعتباره

---

(١) **المراهق** ، ص : ٥٥٧ .

(٢) **المسكونون** ، الجزء الثاني ، ص : ٢١٨ .

Twitter: @abdullah_1395

انجيلياً ، أقرب إلى ملكوت الله من النبلاء ، وذلك ما دامت مثل هذه الحقائق العميقة هي التي تسيطر على مؤلفات دوستويفسكي : « يكون للمتواضعين ما لا ينال الأقوياء منه نصيب » ، « إنما جاء ابن البشر ليخلّص ما قد هلك » الخ .

الزهد ونكران الذات من جهة ؛ ومن الجهة الثانية نرى أن تأكيد الشخصية أو « إرادة القوة » في روايات دوستويفسكي ، تفضي دائماً إلى الإنهيار .

لقد عاب عليّ « سوداي » منذ مدة ، انني ضحّيت بـ « بلزاك » من أجل دوستويفسكي ، حتى القضاء عليه . هل من ضرورة للإعتراض على هذا القول ؟ لا شكّ أنني معجب بدوستويفسكي أيما اعجاب . لكن هذا الإعجاب لم يصرفني ، كما أعتقد ، عن ملاحظة أن شخصيات « بلزاك » أكثر تنوعاً من شخصيات الروائي الروسيّ ، وأن **الكوميديا البشرية** أكثر تنوّعاً وتشكيلاً . مما لا ريب فيه أن دوستويفسكي يغوص على أصقاع في النفس لا يَقْربها غيره ، ويمسّ مناطق حسّاسة يظلّ ارتيادها حكراً عليه ، لكن شخصياته جميعاً متشابهة النسيج ، ويظل الشعور بالتواضع أو بالكبرياء هو الذي يوجّه سلوكها ، كما أن ردّات الفعل تتناسب دوماً مع جرعات الإنفعال المختلفة التي تُحْقن بها .

Twitter: @abdullah_1395

ثمة في مؤلفات « بلزاك » (كما في المجتمع الغربي عامةً ، وخاصة المجتمع الفرنسي الذي تقدّم لنا رواياته صورة عنه) عاملان لا أثر لهما تقريباً في مؤلفات دوستويفسكي): العقل والإرادة .

لا أعني أن الإرادة لدى « بلزاك » تدفع بالإنسان دوماً نحو الخير ، وأن ذوي الإرادة هؤلاء لا مكان بينهم إلا للخيّرين . لكننا نرى أن العديد من أبطاله قد توصلوا إلى الفضيلة إرادياً ، ونجحوا في حياتهم المهنية نجاحاً باهراً ، بفضل مثابرتهم وذكائهم وتصميمهم ، مثل شخصية دافيد سيشار ، بيانشون ، جوزف بريدو ودانييل دارتز . . . ، ويمكنني أن أذكر عشرين شخصية غيرها .

ليس في مؤلفات دوستويفسكي رجل عظيم واحد . تقولون : والأب المدهش روسّيا في **الإخوة كارامازوف** . . . صحيح . إنه أرقى صورة توصّل الروائي الروسي إلى رسمها . إنها تهيمن على الرواية من علٍ ، ونحن لم ندرك قيمتها الفعلية الا حين وضعت بين أيدينا الترجمة الكاملة للإخوة كارامازوف . لكننا ، مع هذه الترجمة ، أدركنا ايضاً ، بصورة أفضل ، ما هو الشيء الذي يقف وراء عظمته الحقيقية ؛ الأب روسّيا ليس رجلاً عظيماً في نظر الناس . إنه قديس ، وليس بطلاً . ولم يصل إلى القداسة إلاّ حين اعتزل الإرادة وتخلّى عن العقل .

Twitter: @abdullah_1395

في مؤلفات دوستويفسكي ، كما في الإنجيل ، البسطاء في الروح لهم ملكوت السماوات . نقيض المحبة عنده ، ليس البغض بقدر ما هو العقل المجتّر .

إذا استعرضت الكائنات الزاخرة بالعزْم التي يقدّمها لنا دوستويفسكي ، في مقابل شخصيات « بلزاك » ، تقفز أمامي ، فجأة ، كائنات مخيفة . فهذا راسكولنيكوف ، الأول في اللائحة ، إنسان فقير وطموح ، يأمل في الوصول إلى مرتبة نابوليون ، وكل ما يفعله أنه يقتل إحدى الدائنات وشابةً بريئة . وهذا ستافروغين ، بيارستبا نوفيتش ، إيفان كارامازوف وبطل **المراهق** (الوحيد بين شخصيات دوستويفسكي الذي يحيا ، منذ أن وعى ذاته ، على فكرة ثابتة ، أن يصبح مثل روتشيلد . وقد يكون من قبيل السخرية ألا نقع ، في مؤلفات دوستويفسكي كلها ، على مخلوق أضعف منه ، وأكثر ارتهاناً للآخرين) . ويبدو أن إرادة أبطاله ، وكل ما يحملونه من ذكاء وتصميم ، ممّا يعجل في دفعهم إلى الجحيم . وإذا فتّشت عن دور العقل في روايات دوستويفسكي تجده دوراً شيطانياً على الدوام .

أشدّ شخصياته خطراً ، هي أيضاً أرفعها ثقافة . لا أريد فقط أن الإرادة والذكاء لا يتجهان بهذه الشخصيات إلا إلى الشر ، بل إن الفضيلة التي يأتيان بها ، حين يطمحان إلى الخير ، إنما هي فضيلة متعجرفة تجنح بصاحبها إلى الهلاك . إن

Twitter: @abdullah_1395

أبطال دوستويفسكي لا يدخلون ملكوت الله إلّا بطرح العقل جانباً ، وبالتخلي عن الإرادة الشخصية وبنكران الذات .

يمكننا القول ، ضمن حدود معينة أن « بلزاك » أيضاً كاتب مسيحي . لكن ، بمقارنة الأسس الخلقية التي يستند إليها كلٌ من الروائي الروسي والروائي الفرنسي ، يتضح إلى أي حد تفترق كاثوليكية هذا عن مذهب ذاك ، الإنجيلي المحض ، وإلى أي حدّ يختلف الفكر الكاثوليكي عن الفكر المسيحي المحض . ولئلا نصدم أحداً بهذه الحقيقة نقول : إن **الكوميديا الإنسانية** لـ « بلزاك » هي وليدة احتكاك الإنجيل بالفكر اللاتيني ، وأن **الكوميديا الروسية** لـ « دوستويفسكي » هي ثمرة احتكاك الإنجيل بالبوذية والفكر الآسيوي .

هذه الملاحظات ، ما هي سوى تمهيد لمزيد من التغلغل في سرائر هذه الشخصيات الغريبة ، وهذا ما أتوخّى فعله في المحاضرة التي تلي .

Twitter: @abdullah_1395

(٣)

ما ذكرناه حتى الآن لم يكن سوى تمهيد . وقبل أن أعرض لأفكار دوستويفسكي ، أودّ أن أنبّهكم إلى خطأ جسيم . في السنوات الخمس عشرة الأخيرة من حياته ، أكبّ دوستويفسكي على تحرير مجلة . والمقالات التي كانت يكتبها لهذه المجلة ، جُمعت في كتابٍ تحت عنوان : **صحيفة أديب** . في هذه المقالات ، يعرض دوستويفسكي آراءه ، فمن الطبيعي اعتماده كمرجع . لكنه، كما سأبيّن لكم في الحال ، كتاب مخيّب للآمال إلى حد بعيد : ثمة عَرْض لنظريات دوستويفسكي الإجتماعية ، فاذا هي نظريات غامضة ، لم يحسن التعبير عنها ، كما أن هناك تنبّؤات سياسية لم يتحقق منها شيء ، ومحاولات لتبيّن مستقبل أوروبا مُنيتْ جميعها بالإخفاق .

أما « سوداي » الذي خصّ دوستويفسكي حديثاً بإحدى ترجماته في مجلة **الزمان** ، فيجد لذة في التفرّغ لكشف أخطائه .

إنه لا يرى في هذه المقالات أكثر من مقالات صحفية،

Twitter: @abdullah_1395

وهذا ما أتفق معه عليه ، غير أنني لا أوافقه على اعتبارها ممثّلة التمثيل الأوفى لآراء دوستويفسكي . فالمسائل التي يعالجها هذا الأخير في صحيفة أديب ، ليست هي المسائل الرئيسية التي تشغل تفكيره . ولا بدّ من الإقرار بأن قضايا السياسة ، في نظره ، ليست في أهمية القضايا الإجتماعية ، والمسائل الإجتماعية بدورها ليست ، بأي حال ، في مستوى الرسائل الخُلُقية والفردية . إن أعمق حقائق دوستويفسكي وأثمنها ، هي الحقائق السيكولوجية . كذلك ، فإن أفكاره فيها وعنها هي ، في الغالب ، في صيغة معضلات وأسئلة . إنه لا يُعْنى باجتراح حلّ ، بقدر ما يُعْنى بطرح هذه الأسئلة التي تبقى محوطة بإطارٍ من الغموض ، نظراً لشدّة تعقيدها ، وبسبب اختلاطها وتداخلها . ذلك أن دوستويفسكي ليس رجل فكر ، بل كاتب روائي . إن أهم أفكاره وأكثرها دقةً وجدّة ، ينبغي أن نبحث عنها في الأحاديث التي تتبادلها شخصياته . وليس من الضروري أن تكون هذه دوماً ، من الشخصيات الرئيسية . فقد تمرّ أكثر أفكاره أهمية وابتكاراً على ألسن بعض الشخصيات الثانوية . إن دوستويفسكي يظل محتفظاً بمستواه حتى يصل إلى الحديث عن نفسه ، وهذا الذي يُجْريه على لسان فرسيلوف في روايته المراهق ، ينطبق عليه هو بالذات :

التوسيع ؟ كلا ، لا أحبّذ التوسيع . أليس غريباً ، أنني ما

Twitter: @abdullah_1395

إن أقوم بالتوسّع في شرح فكرة أؤمن بها ، حتى يضعف إيماني حال الإنتهاء من عرض الفكرة [1] .

يمكننا القول أيضاً أن دوستويفسكي سرعان ما يتخلّى عن فكرته بعد التعبير عنها ، فكأنها ، بعد ذلك ، تثير من حولها رائحة الأشياء الميتة ، كتلك التي كانت تتصاعد من حبّة زوسّيما في حين كانوا ينتظرون المعجزات على يديه ، هذه الرائحة التي جعلت السهر قرب الميّت ، بالنسبة إلى تلميذه إليوشا كارامازوف ، أمراً لا يحتمل .

إن أفكار دوستويفسكي لا تعرف الإطلاق ، فهي أفكار نسبية محكومة دوماً بالشخصيات التي تعبّر عنها ، وهذا ما لا يليق بـ « مفكر » ، كما أن هذه الأفكار ليست مرتبطة بهذه الشخصيات فحسب ، بل وبلحظة معينة من وجودها . إن أفكاره هي ، بعبارة أخرى ، ثمرة حالة خاصة وظرفية في حياة هذه الشخصيات ، لذا ، فإنها تظل أفكاراً نسبية ، متصلة اتصالاً مباشراً بمجرى الحدث أو الحركة الذي ينتج عن هذه الأفكار ، أو تنتج هذه الأفكار عنه . إن دوستويفسكي يقصّر تقصيراً فادحاً حين يطرق باب النظير ؛ فما أن يحاول تناول موضوع الكذب ، وهو الضليع في عرض نماذج رائعة عن

---

(١) المراهق ، ص : ٢٤٠ .

Twitter: @abdullah_1395

الكذّابين (لَكَم تختلف عن نماذج موليير) ، المتمكن من توضيح الدوافع الى الكذب عبرها ، ما إن يحاول تناول الموضوع نظرياً حتى يقع في التسّطح والتفاهة .

صحيفة أديب ، تكشف لنا براعة دوستويفسكي **كروائي** . فإذا كـان في مقالاته النظرية والنقدية مقصّراً ، فإنه يصبح رائعاً حالما تتحرك براعته عبر إحدى الشخصيات . الواقع أن قصته الجميلة عن **الموجيك كروتشايا** [1] التي تعتبر من أقوى أعماله ، نجدها في هذه الصحيفة ؛ هذه القصة هي نوع من الرواية ليس ، في الواقع ، سوى مونولوغ طويل شبيه بذاك الذي نقع عليه في **الروح الخفي** ، الرواية التي كـان يكتبها في تلك الفترة عينها .

لكن الأفضل من ذلك ـ أي الأكثر دلالة ـ أن دوستويفسكي يتيح لنا ، في هذه الصحيفة ، أن نشهد ، مرتين ، كيف يعمل على حَبْك الرواية عملاً يكاد يخلو من الإرادة والوعي .

بعد أن يحدّثنا عن متعته في مشاهدة المتنزهين في الشارع ، وأحياناً في تتبعهم ، نراه يتعلّق فجأة بأحد هؤلاء :

لاحظت عاملاً يسير دون أن يصطحب امرأة معه ، وإنما

---

(١) الموجيك هو فلاح روسي .

Twitter: @abdullah_1395

يرافقه صبي صغير ، وتبدو على سيمائهما أمائر كآبة شبيهة بكآبة المعزولين . كان للعامل حوالى الثلاثين عاماً ، ووجهه الذابل ممتقع بلون المرض ، ويرتدي ثوباً لائقاً ، سترة طويلة بالية ذات أزرار باهتة وياقة متسخة . أما السروال الأكثر نظافة ، فكأنه خارج لتوّه من محلّ الرثّاث [1] ، قبعة مهترئة . . تهيأ لي أنه عامل مطبعة . تعابير وجهه توحي الكآبة والصرامة مع شيء من الخبث . يسير ممسكاً الولد من يده والصغير ينجرّ وراءه . له من العمر سنتان أو ما يزيد قليلاً ، وهو في غاية الشحوب والهزال ، يلبس سترةً وحذاءً صغيراً ذا ساقيّة حمراء ، وقبّعة تزيّنها ريشة طاووس . أرهقه السير ، فتوجه إليه الوالد بكلام لم أسمعه وقد يكون سخر منه على عدم تجلّده على المشي ، لكن الولد لم يجب ، وبعد خمس خطوات ، انحنى الوالد عليه واحتواه بين ذراعيه . تجلّى السرور في وجه الصبي ، فأطلق يديه حول عنق والده . وما إن أخذ مكانه على ظهر الوالد حتى تنبّه إلى وجودي ، فأخذ يحدق في عينيّ بفضول حائر . بادرته بإشارة صغيرة من رأسي لكنه قطّب حاجبيه وراح يتشبّث بعنق والده أكثر فأكثر . لا شك في أنهما صديقان حميمان .

أهوى مراقبة المارّة في الشوارع ، وتفحّص وجوههم الغريبة ، فأحاول معرفة من يكونون ، وأتخيّل كيف يحيون وما

---

(١) تاجر الثياب الرثة القديمة .

Twitter: @abdullah_1395

هي الأمور التي تشغل وجودهم . ذلك اليوم ، كان اهتمامي منصباً على الطفل ووالده . تصوّرت أن الأم متوفّاة من فترة وجيزة ، وأن الأرمل يعمل طوال الاسبوع تاركاً الطفل في عهدة إحدى العجائز . لا ريب في أنهما يسكنان أحد الأقبية حيث يستأجر الرجل غرفة صغيرة ، أو زاوية صغيرة في إحدى الغرف . واليوم الأحد ، اقتاد الوالد صغيره لزيارة إحدى القريبات التي أرجّح أن تكون شقيقة المتوفّاة . وأرى أن هذه الخالة التي لا يكثران من زيارتها ، متزوجة من عسكري برتبة ضابط صف ، وتقطن أحد الأقبية في ثكنة كبيرة ، لكن في حجرة على حدة . لقد بكت شقيقتها الراحلة ، لكن لم تبكها طويلاً . على أي حال ، فالأرمل هو الآخر ، لم يبدُ على وجهه كبير ألم أثناء الزيارة. إلا أنه كان قلقاً، لا يتكلم إلا عند الحاجة ، ثم لا يلبث أن يصمت . عندها ، أحضرت الساموفار [1] ودار الشاي على الجميع . أما الصغير فجلس على مقعد في أحد الأركان ، مُبَرْطماً ، مقطباً حاجبيه ، وأخيراً استسلم للنوم . لم تأبه الخالة له كثيراً ، وكذلك زوجها . كل ما هناك أنهما أعطياه قطعة من الخبز وطاساً من الحليب . العسكري الذي يظلّ صامتاً ، أول الأمر ، اطلق ، بعد حين ، نكتة سمجة على الصغير الذي انّبه والده . الحّ الولد في الذهاب حالاً ، فأخذه الوالد إلى بيت فبورجسكايا في ليتيينايا .

---

(١) غلّاية روسية للشاي .

Twitter: @abdullah_1395

غداً، يعود الأب الى عمله من جديد، ويعود الصبي إلى العجوز [٢].

في موضع آخر من الكتاب نفسه، نقرأ قصة لقائه مع عجوز عمرها مئة سنة. شاهدها جالسة على أحد المقاعد وهو يمرّ في الشارع. تكلّم إليها ثم مضى في طريقه. لكن، في المساء، «بعدما أنهى عمله»، عاوده التفكير في هذه العجوز، فتصوّر عودتها إلى منزلها، بين أهلها، وما يمكن أن يدور من حديث بينها وبينهم. ثم يروي قصة موتها. «أجد لذةً في تخيّل نهاية القصة. أضف إلى ذلك أنني روائي تروق له رواية القصص».

فضلاً عن ذلك، فإن دوستويفسكي، لا يعتمد الصدفة في إبداعه. في أحد مقالات هذه الصحفية، وهو مقال يتعلق بدعوى أرملة كورنيلوف، يعيد دوستويفسكي تركيب القصة، فيؤلفها على طريقته من جديد، حتى ليصبح بوسعه القول، بعد أن يكشف التحقيق تفاصيل الجريمة كافةً: «لقد تنبّأت بكل شيء تقريباً»، ثم يضيف: «أتاحت لي إحدى المناسبات فرصة زيارة كورنيلوفا. وكم كانت دهشتي عظيمة حين اكتشفت أن توقعاتي كانت قريبة جداً من الواقع. لقد غابت عني، دون شك، بعض التفاصيل: فكورنيلوف، رغم كونه فلاحاً، كان يرتدي الزيّ الأوروبي، الخ»، ويخلص دوستويفسكي إلى

(٢) صحيفة أديب، ص: ٩٩ - ١٠٠.

Twitter: @abdullah_1395

الإستنتاج : « النتيجة أن الأخطاء لم تكن ذات أهمية . والأساسيّ في تقديراتي سَلِم من الخطأ [1] » .

إن موهبة الملاحظة ، والقدرة ، على الحبْك ، وعلى إعادة تركيب الواقع ، إضافة إلى الحساسيّة ، قد تخلق روائياً من حجم « غوغول » أو « ديكنز » (تذكرون ، ربما ، كيف تبدأ رواية ديكنز ، **مخزن الانتيكة** ، حيث يهتمّ ديكنز هو الآخر ، بتتبّع المارة وتركيز ملاحظته عليهم ، حتى إذا انصرف عنهم راح يتخيّل أحداث حياتهم) ؛ غير أن هذه المواهب ، مهما كانت خارقة ، لا تكفي لخلْق روائي مثل « بلزاك » أو « توماس هاردي » أو « دوستويفسكي » ، ولا تكفي ، بالتأكيد لدفع « نيتشه » إلى القول :

كان اكتشافي « دوستويفسكي » يفوق أهميةً اكتشافي « ستاندال » ؛ إنه الوحيد الذي أفادني شيئاً في علم النفس .

لقد نقلت عن نيتشه ، في زمن مضى ، هذه الصفحة التي سأتلوها عليكم . أوَلم يكن نيتشه واعياً ، حين كتبها ، ما هي بالتحديد الخاصية الرئيسية التي تستند إليها مكانة الروائي الروسي الكبير ، وما هي نقاط التعارض والإختلاف بينه وبين

---

(١) صحيفة أديب ، ص : ٢٩٤ وما يليها ، ٤٥٠ - ٤٥١ (دعوى يسيرة ، لكن معقدة) .

Twitter: @abdullah_1395

عدد من روائيينا المحدثين ، أمثال الأخوين غونكور[1] اللذين يبدو أن « نيتشه » يشير إليهما ؟

عظة لعلماء النفس : لا تجعلوا من علم النفس سلْعة . لا تلاحظوا مطلقاً من أجل الملاحظة لا غير ! إن هذه الطريقة تقود إلى رؤية خاطئة للأمور قد تصبح « عادة » ، وإلى اصطناع مبالغ فيه عن عمد . ليس مفيداً أن يحيا الإنسان حالة لأنه يريد أن يحياها . ليس جائزاً أن ينظر إلى نفسه وهو يواجه الحدث ، فكل طرفة عين تتحوّل عندها إلى « عين لاقة »[2] ؟ إن عالم النفس الموهوب يحترس بالفطرة من اعتماد الرؤية غايةً للنظر : وهذه أيضاً حال الرسّام الموهوب . إن عمله ليس محكوماً بالنموذج الطبيعي ، بل متروك للإلهام ، لـ « غرفته السرّية » ، للتعبير عن « الحالة » ، عن « الطبيعة » ، عن « التجربة المعاشة » . . . لغربلتها . . إن وعيه يقتصر على العموميات ، على النتيجة والحاصل : إنه لا يعرف الاستنتاجات الإختيارية للحالة الخاصة : ماذا يتأتّى إذا ما تصرّفنا على غير هذا النحو ؟ إذا اختزلنا علم النفس إلى مجرّد سلعة ، مثلما كان يفعل كتّاب الرواية الباريسيين مثلاً : يلاحظون الواقع ويحملون عنه ، كل مساء ، باقةً من النوادر

---

(١) كاتبان فرنسيان من المذهب الطبيعي (Naturalisme) (المترجم) .
(٢) العين اللاّمّة هي العين المصيبة بسوء .

Twitter: @abdullah_1395

. . . لكن ، انظر ماذا كانت النتيجة بعد ذلك . . . الخ [1] .

إن دوستويفسكي لا يلاحظ قطّ من أجل الملاحظة. مؤلفاته ليست ثمرة ملاحظة الواقع، أو ليست كذلك فحسب. فهي لا تولد استناداً إلى فكرة سابقة، لهذا، تبتعد آثار دوستويفسكي عن الصبغة النظرية لتستقر في أحضان الواقع. هذه الآثار هي حصيلة اجتماع الفكرة والحدث، واشتباك أحدهما بالآخر اشتباكاً يبلغ من التكامل حدّاً لا مجال معه لطغيان أحد العنصرين على الآخر، بحيث أن أكثر المشاهد واقعية في هذه الروايات هي، في الآن نفسه، أغناها بالمدلولات السيكولوجية والخُلُقية. وبعبارة أوضح، إن كلاً من مؤلفات دوستويفسكي ثمرة تلقيح الحدث بالفكرة، «فكرة هذه الرواية تراودني منذ ثلاث سنوات»، يكتب في العام ١٨٧٠ (عن **الإخوة كارامازوف** التي لم يكتبها إلا بعد تسع سنوات) وفي رسالة أخرى يقول:

هذه الرواية تراودني منذ ثلاث سنوات»، يكتب في العام ١٨٧٠ (عن **الإخوة كارامازوف** التي لم يكتبها إلا بعد تسع سنوات) وفي رسالة أخرى يقول:

المسألة الرئيسية التي سأتابع بحثها في كافة أجزاء هذا الكتاب هي تلك التي عانيت منها طوال حياتي ، واعياً أو غير واعٍ ، أي مسألة وجود الله !

(١) مركور ، آب ، ١٨٩٨ ، ص : ٣٧١ .

Twitter: @abdullah_1395

لكن هذه الفكرة تظلّ غائمة حتى تلتقي حدثاً معنياً (هنا، دعوى أمام القضاء الجزائي) يحمل إليها اللقاح. عندها فقط، يمكننا القول أن الأثر قد «حُبل به في البطن» «إن ما أكتبه ليس محايداً»، يقول في الرسالة ذاتها متحدثاً عن رواية المسكونون التي نضجت فكرتها في رأسه هي والإخوة كارامازوف في وقت واحد: الإخوة كارامازوف، هي الأخرى، رواية غير محايدة. إن آثار دوستويفسكي تكاد تخلو من الإعتباطية ـ بالمعنى الحالي لهذه الكلمة ـ، فكل رواية هي نوع من إقامة الدليل أو المرافعة، أو هي ضرْبٌ من التبشير. وإذا كان ثمة ما نأخذه على هذا الفنان المدهش فهو مبالغته في العناية بالبرهان. إن دوستويفسكي لا يهدف قط إلى التأثر في آرائنا، بل إلى إضاءة الطريق أمامنا، وإلى توضيح بعض الحقائق الخفية التي تبهره هو، والتي تبدو له ـ ولنا في ما بعد ـ ذات أهمية بالغة. إن الحقائق المجرّدة، أو تلك التي تبعد عن المضمون الإنساني، ليس هي أهم ما يستطيع العقل الإنساني التوصل إليه، فأهم منها تلك الحقائق التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالإنسان، أي الحقائق السرّية. من ناحية ثانية فإن حقائق دوستويفسكي هذه، وأفكاره، تبقى دوماً خاضعة للحدث، ملتزمةً بالواقع. وهذا ما يبعد عنها كافة أنواع التحريفات المُغْرضة. إن دوستويفسكي يحافظ، إزاء الواقع الإنساني، على موقف متّضع

Twitter: @abdullah_1395

خاضع، لا يلجأ إلى العنف، ولا يُخضع الحدث لإرادته هو، ويبدو أنه يَسْتَهدي بحكمة الإنجيل القائلة: «من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها، ومن أهلك نفسه يجدها».

قبل أن أحاول تتبّع بعض أفكار دوستويفسكي عبر مؤلفاته، أود أن أحدثكم عن طريقته في العمل. يخبرنا «ستراكوف» أن دوستويفسكي لم يكن يعمل إلا في الليل: «حوالى منتصف الليل، يقول ستراكوف، وبعد أن يغرق الكون في الهدوء، يبقى تيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي وحيداً مع إبريق الشاي؛ وإذ يتابع عمله حتى الخامسة أو السادسة صباحاً، كانت جرعات خفيفة من شاي خفيف ترافق ليله. ثم يعود فينهض قرابة الثانية أو الثالثة بعد الظهر، ليمضي بقية نهاره في استقبال الضيوف، أو التنزه، أو في زيارة الأصدقاء».

لم يكن بوسع دوستويفسكي الإكتفاء بهذا الشاي «الخفيف»، فأدمن، في أواخر أيامه، كما يُروى، شرْب الكحول. وقد روى لي أحدهم أن دوستويفسكي خرج، ذات يوم، من حجرة عمله، حيث كان منكباً على كتابة **المسكونون**، في حالٍ من الهياج العقلي، ليس لها تفسير، وكان ذلك يوم استقباله مدام دوستويفسكي: دخل تيودور ميخائيلوفيتش البَهْو فجأة، حيث كانت تجتمع بعض النسوة، زائغ البصر. وحين دفعت الحميّة إحداهنّ إلى تقديم فنجان من

Twitter: @abdullah_1395

الشاي له، صرخ في وجهها: «إلى الجحيم أنتِ وهذا الشاي»!.

قد تذكرون عبارة الأب سان ـ ريال التي ما كانت لتبدو ذات بال لو لم يلجأ إليها «ستاندال» لإيضاح رؤيته الجمالية. «الرواية مرآة تطوف فوق إحدى الدروب». من المؤكد أن في فرنسا وانكلترا العديد من الروايات التي تستند إلى هذه القاعدة، مثلاً: روايات «لوساج»، «فولتير» «فييلدنغ»، «سمولت»... لكن روايات دوستويفسكي هي أبعد ما يكون عن تطبيق هذه القاعدة! إن بين رواية لدوستويفسكي والروايات التي أتيت على ذكرها ومن بينها روايات «تولستوي» ذاته أو «ستاندال»، من الفرق ما بين اللوحة والبانوراما رواية دوستويفسكي هي عبارة عن لوحةٍ المهم فيها، قبل كل شيء، توزيع الضوء الذي ينبعث من بؤرة واحدة... أما في روايات «ستاندال» فإن النور يبقى مستقراً، متوازياً ومشعشعاً، يغْمر الأشياء كلها دفعة واحدة، ويجلوها من نواحيها جميعاً بحيث تغيب عنها كل الظلال. اما روايات دوستويفسكي، فهي، كلوحات «رامبراندت» تعوّل على الظلّ بصورة خاصة. إن دوستويفسكي يجمع الشخصيات والأحداث ويسلّط عليها أشعة كثيفة لا تتناولها إلا من زاوية واحدة. فيبقى، هكذا، في كل شخصية شيء ما يسبح في الظل. نلمس لدى دوستويفسكي أيضاً عناية خاصة بالتركيز

Twitter: @abdullah_1395

والتجميع ، وبخلق أكثر ما يمكن من العلاقات والتداخلات بين عناصر الرواية مجتمعة . إن الأحداث ، في روايات دوستويفسكي ، بدل أن تسلك مجرى بطيئاً متساوقاً، كما هي في روايات « ستاندال » أو « تولستوي » ، نراها دوماً تصل إلى نقطة تتداخل فيها وتتعقّد ، وتدخل في ما يشبه الدوّامة . إنها لدوّامات تغور فيها عناصر القصة جميعاً ـ الخُلُقية منها والسيكولوجية والخارجية ـ ثم تعود فتطفو من جديد . لا تبسيط ، لدى دوستويفسكي ، ولا إعادة نظر في البناء إنه يرتاح إلى التعقيد لأنه يحميه. ليس لديه مشاعر أو أفكار أو أهواء في حالتها الصرفة ، فلا عزلة بين هذه العناصر وبين ما يحيط بها . أصل هنا إلى ملاحظة حول خطة دوستويفسكي في الكتابة ، وحول طريقته في رسم طباع الشخصيات : لكن ، اسمحوا لي ، قبل ذلك ، أن أتلو، بهذا الشأن ، هذه التعقيبات الفريدة لـ « جاك ريفيير » :

حين تكون فكرة الشخصية ماثلة في ذهن الروائي ، فأمامه طريقتان مختلفتان لتجسيدها : فإما أن يظهر جانب التعقيد فيها ، أو يركّز على جانب التلاحم ؛ إما أن يحفظ ما هي عليه من غموض ، أو يزيل هذا الغموض بتصويره ؛ إنه يختار بين أن يُبْقي كهوفها مظلمة أو أن يُلْقي عليها الأضواء [1] .

(١) البانوراما منظر شامل يمتدّ في كل اتجاه .

Twitter: @abdullah_1395

تتضح أمامكم الآن فكرة « ريفيير » : فالمدرسة الفرنسية تعتمد الغوص على مجاهل الشخصية ، بينما نرى بعض الروائيين الأجانب ، ودوستويفسكي على الأخص ، يرعون حرمتها ويصونونها عن الأعين .

على أي حال ، يتابع ريفيير ، فإن دوستويفسكي يولي خفايا نفوسهم الإهتمام الرئيسي ، ويبذل طاقته كلها في الغوص على أعمق أغوارها [1] .

أما نحن ، فما أن نواجه نفسية معقدة ونحاول عرضها حتى نتجه تلقائياً إلى تنظيمها [2] .

إن ما نتوق إليه هو القضاء على الثغرات قضاءً تاماً .

لست لأقول أن روايات « بلزاك » مثلاً لا تحوي بعض الخفايا ، وبعض المهاوي والأسرار ، ولست لأقول أيضاً أن خفايا دوستويفسكي تستعصي دوماً على الفهم كما قد يُظنّ للوهلة الأولى .

هل لي أن ضرب لكم مثلاً عن معميّات بلزاك ؟ هذا المثل

(١ ـ ٢) المجلة الفرنسية الجديدة ، الأول من شباط ، ١٩٢٢ .

Twitter: @abdullah_1395

يقدمه لنا كتابه **البحث عن المطلق** . بالتازار كلايس يبحث عن حجر الفلاسفة . لقد نسي تماماً ، كما يبدو ، كل ما تلقّاه في صغره من تربية دينية ، فاهتمامه بالبحث صرفه عن كل اهتمام آخر : فأهمل زوجته الورعة جوزفين التي تملّكها الوجل من تحلّل أفكار زوجها . ذات يوم ، هرعت مدام كلايس إلى المختبر على صوت انفجار حمله إليها الهواء ، فوقعت مغشياً عليها . . ما هي هذه الصرخة التي أطلقتها شفاه بالتازار ؟ إنها انبعاث مفاجىء الإيمان الطفولي يتحدّى أفكاره المشوّهة : « حمداً لله ! ، أنت موجود ! لقد حفظك القديسون من الموت». ولا يضيف « بلزاك » أيّ شيء آخر . لا ريب أن تسعة عشر شخصاً من أصل عشرين يقرأون هذا الكتاب ، لن يتنبّهوا لوجود هذه الثغرة . إن الهوّة التي تخلقها هذه الثغرة هوّة بعيدة القرار ، إن لم نقل لا قرار لها . الواقع أن « بلزاك » لا يأبه لهذا الأمر فالمهم لديه هو الحصول على شخصيات منطقية مع ذاتها ـ وهذا ما يتجاوب فيه مع الفرنسيين ، لأن أحوج ما نحتاجه ، نحن الفرنسيين ، هو المنطق .

لذا ، فإن شخصيات **الكوميديا الإنسانية** ليست وحدها التي تحاك عل منوال بلزاكي ، بل شخصيات كوميديا الواقع أيضاً ، وكذلك نحن ، كفرنسيين ، نستوحي صورتنا من « بلزاك » . إن لا منطقية طبيعتنا تبدو لنا مزعجة ، لا بل مدعاة للسخرية .

Twitter: @abdullah_1395

لذا ، فإننا ننكر وجودها ونجهد لطردها أو التقليل من شأنها . يعي كلٌّ منا أنه متصف بالوحدة والديمومة . وكل ما يترسّب في ذواتنا من مخلّفات الكتب واللاوعي ، كالشعور الذي انبعث فجأة في نفس كلايس ، نصرف اهتمامنا عنه إذا ما عجزنا عن انتزاعه . نتصرّف دائماً حسبما نتصوّر أن على الكائن الذي نمثّل ، أو الذي نتصوّر أننا نمثّل ، أن يتصرّف . إن معظم ما نأتيه من أعمال ، لا تمليه علينا اللذة التي نجنيها من العمل ، بل الحاجة إلى محاكاة أنفسنا ، وإلى اسقاط ماضينا على المستقبل . إننا نضحّي بالحقيقة (أي بالصدق) ، على مذبح الإستمرار ونقاوة الإتجاه .

ماذا يقدم إلينا دوستويفسكي في مقابل ذلك ؟ ـ إنه يقدّم شخصيات تستسلم صاغرة لشتى ألوان التناقضات والسلبيات التي تتسع لها طبيعتها دون أدنى اكتراث لأن تظلّ أمينة لذاتها . ويبدو أن هذا هو مدار اهتمام دوستويفسكي : اللامنطقية ، وهو بدلاً من أن يخفيها ، نراه يبرزها دائماً ويركّز عليها كواشفه .

لا شك أن في مؤلفاته أموراً كثيرة تفتقر إلى التفسير . لكنني لا أعتقد أننا نجد لديه الكثير من الأمور التي يتعذّر تفسيرها إذا ما اعترفنا مع دوستويفسكي بتجانب المشاعر المتضاربة في ذات الإنسان . هذا التجانب يبدو أحياناً مجافياً للعقول، كلما اندفعت

Twitter: @abdullah_1395

إحدى الشخصيات في مجال التطرّف إلى حدّ مقاربة العبث.

اعتقد أنه من المستحسن التوسّع في هذه النقطة ، فقد تقولون : نعلم ذلك ؛ ليس في الأمر سوى صراع بين العاطفة والواجب كالذي نشهده لدى « كورناي » . كلا ، ليس الأمر كذلك . البطل الفرنسي ، كما يرسمه « كورناي » ، يضع نصب عينيه نموذجاً ـ مثالاً ، وهذا النموذج هو البطل بعينه لكن كما يتمنّى أن يكون ، وكما يحاول أن يصير ، لا كما هو في واقع الأمر . إن الصراع الداخلي الذي يصوّره « كورناي » ، هو ذاك الذي ينشب بين الكائن المثالي ، الكائن ـ النموذج ، والكائن الواقعي الذي يحاول البطل جاهداً التنكّر له. مجمل القول أننا لا نبعد كثيراً عما يُسمّيه « جيل دو غولتيه » البوفارية ـ نسبة إلى بطله « فلوبير » وهو إسم يطلقه على اتجاه البعض إلى بناء عالم وهمي إلى جانب عالمهم الواقعي ، وإلى التنكر لواقع حياتهم طلباً لواقع أفضل يطمحون إليه ، ويضعون أنفسهم في مستواه .

كل بطل ، بل كل إنسان لا يحيا على الطبيعة ، بل يطمح إلى مثال ، ويعمل على التقرّب إليه ، يصلح مثلاً على هذا الإزدواج ، على هذه البوفارية .

إن الأمثلة التي تقدمها لنا روايات دوستويفسكي عن هذه

Twitter: @abdullah_1395

الثنائية تختلف كثيراً : ليس ثمة من صلة ـ أو هي صلة جد بسيطة ـ بينها وبين هذه الحالات المرضية التي نعاينها بكثرة ، والتي تتداخل فيها شخصيتان مختلفتان وتتقاطعان : في مثل هذه الحال ، ثمة زمْرتان من الأحاسيس والذكريات المتداعية ، كل واحدة تتكوّن بمعزل عن الأخرى . وفي الحال ، تبرز إلى الوجود شخصيتان مختلفتان تنزلان جسداً واحداً وتتناوبان الظهور ، دون أن تتعرف الواحدة منهما إلى الأخرى (وهذا ما قدّم لنا ستفنس عرْضاً مدهشاً عنه في حكايته الخيالية الرائعة : **ازدواجية الدكتور جكيل**) .

لكن المحيّر ، لدى دوستويفسكي ، هو حصول كل هذا في وقت واحد ، ووعي كل شخصية لتناقضها وازدواجيتها .

حين يقع أحد أبطاله فريسة انفعال عنيف ، لا يميّز هل نتج هذا الإنفعال عن البغض أم عن المحبة . ليس من حدّ فاصل ، في ذاته ، بين هاتين العاطفتين .

تراءى لراسكولينكوف فجأة أنه يمقت سونيا . أذهله هذا الإكتشاف الغريب ، فرفع رأسه وتفحّص الفتاة ملياً ، فتوارى البغض من حينه . لم يكن الأمر كذلك . لقد أخطأ في تقدير طبيعة شعوره [1] .

---

(١) **الجريمة والعقاب** ، الجزء الثاني ، ص : ١٥٢ .

Twitter: @abdullah_1395

نقع على بعض هذه الأمثلة لدى «ماريفو» و« راسين » نجد أحياناً أن المغالاة في إحساس ما ، تقضي على هذا الإحساس ، ويبدو أن التعبير عنه ، يوقع صاحبه في البلبلة . لا تعود عندها قضية ازدواج في المشاعر ، بل تصبح أكثر دقة . لنستمع إلى ما يقول فرسيلوف، والد **المراهق** :

لو أنني كنت لا أزال عاجزاً ، وعانيت من هذا . . . لكني أعلم أني قويّ للغاية . وستسأل : أين تكمن هذه القوة ؟ - بالتحديد ، في قدرتي الهائلة على التكيف مع جميع الناس ، ومع كل شيء ، وهي قدرة تبلغ عند الأذكياء من الروس ، من جيلي ، وثبة عالية . لا شيء يلغي وجودي ، لا شيء ينقص من قوّتي ، لا شيء يفاجئني . انني مثل كلب الحراسة عناداً وحيوية . يَعْمر ذاتي شعوران متضاربان ، وذلك يتم تلقائياً دونما تكلّف [1] .

« لن أكلف نفسي عناء تعليل هذا التجانب في المشاعر المتناقضة » ، يقول مُخْبر **المسكونون** بصراحة . ولنستمع أيضاً إلى فرسيلوف يقول :

قلبي مفعم بالكلام ، ولا أجد السبيل لقوله . يخيّل إليّ أنني

---

(١) **المراهق** ، ص : ٢٣٢ (لكن النص الذي سقته هنا ، مأخوذ عن الترجمة الألمانية الأكمل) . انظر أيضاً الملحق رقم ١

Twitter: @abdullah_1395

انشطرت شطرين ـ إنه يتفحصّنا جميعاً بوجه ملؤه الجد والصدق المفحْم ـ . حقاً ، إنني منقسم قسمين ، وأخشى عاقبة ذلك . فكما لو أن لك بديلاً يقف إلى جانبك . إنك ـ أنت ـ رزين ومتعقل ، لكنه ـ هو ـ سيرتكب قطعاً بعض الحماقات . وعلى حين غرّة ، تجد نفسك أنت الذي يريد ارتكابها . إنك تريد ذلك دونما إرادة منك ، تريده وأنت تقاومه بكل قواك ، أعرف طبيباً أخذ يصفّر فجأة في مأتم والده داخل الكنيسة . فإذا لم أحضر الدّفن اليوم ، فلاقتناعي بأنني سأصفّر أو أضحك مثل هذا الطبيب التعيس الذي كانت نهايته سيئة للغاية [1] .

ويقول ستافروغين ، بطل **المسكونون** العجيب :

تنتابني الرغبة في عمل الخير ، فأجد في ذلك متعة . ثم أرغب ، بعد ذلك . في عمل الشر ، فأشعر كذلك بالاكتفاء [2] .

---

(١) **المراهق** ، ص : ٥٥٢ . يقول أيضاً : « لم يكن لدى فرسيلون أي هدف محدّد . إن زوبعةً من المشاعر المتضاربة عطلت عقله عن العمل . لا أعتقده جُنّ بالفعل . إنه اليوم بعيد كلياً عن الجنون . لكن « البديل » ـ الكتاب الذي أصدره حديثاً أحد الإختصاصيين يؤكد وجهة نظري ـ هو الدرجة الأولى من سلم اختلال عقلي خطير يمكن أن يوصل إلى نهاية محزنة للغاية (**المراهق** ، ص ٦٠٧) .

(٢) **المسكونون** ، الجزء الثاني ، ص : ٤٧ . « لدى كل إنسان، في كل آن ، جاذبان: واحد يشدّه نحو الله ، والآخر نحو الشيطان » (بودلير ، **يوميات حميمة** ، ص : ٥٧) .

Twitter: @abdullah_1395

سأحاول ، مستنيراً ببضع عبارات لـ « وليم بلاك » إلقاء بعض النور على هذه التناقضات البيِّنة ، خاصة هذا القول الغريب لستافروغين ، لكنني أترك هذا البحث للقاءٍ آخر قريب .

Twitter: @abdullah_1395

(٤)

تحققنا ، في المحاضرة الأخيرة ، من الثنائية المحيِّرة التي تعصف بشخصيات دوستويفسكي ، فتقضي على تناغمها . وهذه الثنائية هي التي دفعت صديق راسكولنيكوف إلى القول عن بطل **الجريمة والعقاب** :

نكاد نقول أن ذاته يتوزّعها حقاً مزاجان متناقضان ، يتناوبان البروز .

ولو أن كل مزاج يظهر على حدة لهان الأمر ، لكنهما ، كما رأينا ، لا يظهران إلا معاً ، فيمتصّ واحدهما الآخر ويشوّش عليه ، ثم يخلي المكان للآخر ؛ ويكون البطل أقرب ما يكون إلى المحبة حين يفرط في الحقد ، وأقرب ما يكون إلى الحقد حين يفرط في المحبة .

تطالعنا شخصياته ، من النساء خاصة ، بحدسٍ قلق يَرْصد التقلب . فالخشية من عدم الإستقرار طويلاً على المزاج نفسه أو القرار عينه ، غالباً ما تدفعها إلى القيام بأعمال مفاجئة تحيِّر العقل .

Twitter: @abdullah_1395

تقول ليزا ، بطلة **المسكونون** : لأنني أعلم ، من زمان ، أن قراراتي لا تدوم أكثر من دقيقة فقد عزمت على التنفيذ في الحال [١] .

ولقد عقدت العزم اليوم على البحث في بعض ما تؤدي إليه هذه الثنائية الغريبة من نتائج ؛ لكن ، قبل أن أبدأ ، أودّ أن أتساءل : هل لهذه الثنائية وجود فعلي أم إنها ثمرة خيال دوستويفسكي ؟ هل يقدم الواقع أمثلة عليها ؟ هل استقاها دوستويفسكي من ملاحظة الواقع ، أم أنها من وحي الخيال لا أكثر ؟

« إن الطبيعة تحاكي ما يعرضه العمل الفني عليها » ، يقول أوسكار ويلد ، في **الغايات** . ويستشهد على هذه المفارقة الجليّة بإلماحات مموَّهة :

« لقد لاحظتم كيف أن الطبيعة اتجهت ، منذ زمن بعيد ، إلى التشبه بمشاهد « كورو » [٢] .

إن ما يرمي إليه هو أننا أصبحنا نرى إلى الطبيعة عادةً من منظار اصطلاحي ، فلا نتعرّف فيها إلا على ما نبَّهنا الأثر الفني

---

(١) **المسكونون** ، الجزء الثاني ، ص ٢١٨ .

(٢) « كورو » رسام فرنسي من القرن التاسع عشر ، اشتهر برسم المناظر الطبيعية والوجوه (المترجم) .

Twitter: @abdullah_1395

إلى ملاحظته . حين يبادر أحد الرسامين إلى التعبير عن رؤية شخصية ، فإن المظهر الجديد للطبيعة الذي يعرضه علينا ، يبدو ، أول الأمر ، غير مألوف، ومجافياً للصدق وحتى ممسوخاً . بعد ذلك ، نعتاد على مشاهدة الطبيعة وكأننا مدينون بهذه المشاهدة لهذا الأثر الفني الجديد ، فنتبيّن في رحابها ما سبق أن تولّى الرسّام جلاءه لنا . هكذا ، فإن من تحصل لديه رؤية جديدة ومخالفة ، تبدو له الطبيعة وكأنها « تحاكي » العمل الفني .

ما أسوقه عن الرسم يصحّ أيضاً في الرواية وفي اللوحات الداخلية لعلم النفس . إن حياتنا تعجّ بالمعطيات المتوارثة التي سرعان ما نعتاد التعامل مع الحياة من خلالها ، لا كما هي في حقيقتها ، بل كما نُقلتْ إلينا ، وكما رسخ في اعتقادنا عن حقيقتها . **كم من الأمراض لا تدخل حيّز الوجود إلّا حين يُعْلن عن وجودها** ؟ كم من حالة مَرَضية شاذة تعجّ بها الحياة من حولنا ، أو تضجّ بها ذواتنا ، لا تنفتح عليها أعيننا إلا بعد قراءة مؤلفات دوستويفسكي ؟!

الحقيقة أنه يكشف لنا عن بعض الظاهرات التي قد لا تكون نادرة ، ولكننا لا نتوصل نحن إلى ملاحظتها بأنفسنا .

الردّ الطبيعي على التعقيد الذي تتصف به كل نفس إنسانية هو الاتجاه تلقائياً، وبصورة تكاد تكون لا واعية، إلى التبسيط.

Twitter: @abdullah_1395

إن جهد الروائي الفرنسي يتجه بالفطرة إلى أن يستخلص المعطيات الأساسية للطبْع ، فيبذل وسعه لتعرية الصورة عن خطوطها الواضحة ، ومن ثمّ لكشف الخيط الذي يشدّ أوصالها . وسواءٌ أكان المعنيُّ «بلزاك» أم غيره ، فإن الطاغي ، لدى الجميع ، هو الرغبة في التأطير والحاجة إليه . . . لكن ، من الخطأ الشنيع ـ وأخشى أن يرتكبه بعض الأجانب ـ ، الإستهانة بالقيمة السيكولوجية التي يحملها الأدب الفرنسي ، هذه الإستهانة التي تنجم عن وضوح أطره وابتعاده عن الغموض وافتقاره إلى الظلال .

يقتضي التذكر هنا أن « نيتشه » كان له رأي مخالف . فهو ، ببصيرته النافذة ، يعترف لعلماء النفس الفرنسيين بالتفوق المدهش ـ وللخُلُقيين في رأيه الغلبة على الروائيين ـ ، ويذهب إلى حد اعتبارهم معلمي أوروبا كلها . صحيح أن القرنين الثامن والتاسع عشر قد شهدا محللين فرنسيين لا مثيل لهم (أقصد الخُلقيين بصورة خاصة) ، ولا أعتقد أن بين روائيينا ، هذه الأيام ، من يصل إلى مرتبتهم . فقد طغت علينا الآن ، نزعة اللجوء إلى أسلوب **الصيغة** ، والإعتماد عليها ، دون أية محاولة لتجاوزها ، وهذه الصيغة سرعان ما تصبح نَهْج عمل .

وقد ذكرتُ مرةً أن الخدمة الرائعة التي أدّاها « لاروشفوكولد » لعلم النفس قد ساهمت ، ولو بنزر يسير ، في تعثره بسبب

Twitter: @abdullah_1395

اكتمال حِكَمه بالذات . اعتذر هنا لاستشهادي بنفسي ؛ فمن الصعب أن آتي اليوم بأفضل مما كتبت سنة ١٩١٠[١] :

يوم ذهب «لاروشفوكولد» إلى اعتبار كل ما يختلج في طوايا النفس من مشاعر ناجماً عن حب الذات ولا شيء غير ذلك ، تملكتني الحيرة بين أن أرى في عمله دليلاً على نفاذ في البصيرة فريد ، أو أن اعتبره عقبة في وجه المزيد من التقصيّ . لإننا ما إن نحصل على الصيغة ، حتى نتوقف عندها ، ونحيا على تفسيرها قرنين أو يزيد . إن عالم النفس الذي يبدي تشككاً أكبر، ويبرع أكثر في الكشف عن مبعث الأنانية، في السلوكات الإنسانية الموغلة في النبل أو في الاتضاع، يعدّ خبيراً أكثر من غيره، لذلك، يغيب عنه كل ما في النفس البشرية من تناقض. لا آخذ على «لاروشفوكولد» تشديده على «حب الذات»، بل ألومه على توقفه عنده واقتصاره عليه وهذا ما آخذه أيضاً، وبصورة خاصة، على الذين أتوا بعده.

إن الأدب الفرنسي جملةً يضيق بكل ما لم يتم تشكله بعد . ولهذا ، في رأيي ، لا تفسح الرواية الفرنسية حيّزاً كبيراً للطفل قياساً إلى ما تفسح له الرواية الإنكليزية ، وحتى الروسية . لا أطفال في أدبنا الروائي ، والأطفال الذين يعرضهم روائيونا هم من ولائد الاتفاق ولا أهمية لهم تُذْكر .

---

(١) مختارات ، ص : ١٠٢ - ١٠٣ .

Twitter: @abdullah_1395

أما مؤلفات دوستويفسكي فيكثر فيها الأطفال . ويلاحظ أن معظم شخصياته ، والأكثر أهمية بينها ، هي من العناصر الشابة التي لا تزال في طور التكوين. ويبدو أن دوستويفسكي يُعْنى عناية خاصة بتتبع تكوُّن المشاعر ، أما الصورة التي يرسمها عنها ، فهي صورة غائمة ، جنينية إذا صحّ التعبير .

إن اهتمامه ينصبّ ، بصورة خاصة ، على حالات التمرّد التي تقف في وجه الخُلُقيات والأنماط النفسية السائدة ! فهو لا يجد الراحة في هذه المسلّمات ، ولا بدّ له من أن يدخل في تناقض أليم مع بعض القواعد المستقرّة التي لا ترضي تطلعاته .

هذا الضيق ، وهذا التعطش ، نجدهما أيضاً لدى « روسّو » . نعلم أن دوستويفسكي كان مصاباً بداء النقطة ، وأن « روسّو » كان به مسّ . سأركز ، بعد حين ، على دور المرض في تكون فكريهما ، أما الآن ، فسأكتفي بالتعرف ، في هذه الحالة الفيزيولوجية المرضية ، على مكامن التحريض على الثورة ضد ما تجمع عليه الآراء في مجالي الأخلاق وعلم النفس .

إذا صحّ أنه ما من شيء في الإنسان إلا ويمكن تفسيره ، فالصحيح أيضاً أن فيه ما لم يفسَّر بعد . فإذا اتفقنا على وجود هذه الثنائية التي تكلمت عليها فإن من المثير للإعجاب ذلك المنطق الذي دفعها به دوستويفسكي إلى نتائجها . ومن الملْفت

Twitter: @abdullah_1395

أن معظم شخصيات دوستويفسكي متعدّدة الأزواج ، أي أن معظمها ـ كتعويض عن تعقيد الطباع ـ مؤهلا للإرتباط بعلاقات حب متعددة في آن واحد . ثمة نتيجه أخرى ، أو لازمه ، هي أن الغيرة مستحيلة أو شبه مستحيلة . شخصيات دوستويفسكي لا يمكنها أن تغار ولا تعرف كيف يغارون .

فلنركز ، أول الأمر ، على حالات التعدّد التي تطالعنا بها هذه الشخصيات . هذا هو الأمير مويشكين موزع الشعور بين اغلايه ابانتشين وناستازيا فيليبوفنا :

ـ أحبها من كل قلبي ، قال متحدثاً عن هذه الأخيرة

ـ وفي الوقت نفسه تؤكد على حبك أغلايه ايفانوفنا ؟

ـ أجل ! أجل !

ـ فكر أيها الأمير بما تقول . عُدْ إلى رشْدك . . . أرجّح أنك لا تحب أحداً . . . كيف يحب الإنسان امرأتين ويرتبط بهما معاً بعلاقتي حب مختلفتين ! . . . أمر عجيب [1] .

كذلك ؛ تجد كل بطلة نفسها موزّعة بين حبين . تذكروا أيضاً حالة ديمتري كارامازوف بين غروشنكا وناستازيا ايفانوفنا ، وحالة فرسيلوف .

---

(١) **الأبله** ، الجزء الثاني ، ص : ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

Twitter: @abdullah_1395

ويمكنني أن أذكر كثيراً من الأمثلة غيرها .

قد يقال : إن إحدى العلاقتين جسدية ، والأخرى روحية ، لكن هذا التفسير ينطوي على الكثير من التبسيط . ومع ذلك ، لم يتطرق دوستويفسكي إلى هذه الناحية بوضوح تام . إنه يفتح أفق الإفتراضات ويتركنا أمامه . لم يكن بوسعي تكوين هذا الرأي ، الجليّ الآن ، الا بعد القراءة الرابعة **للأبله** : إن كل التغيّرات المفاجئة في مزاج زوجة الجنرال ، إزاء الأمير مويشكين ، وكل التردد في موقف اغلايه نفسها ، ابنة الجنرال وخطيبة الأمير ، مردّه إلى أن الإمرأتين كلتيهما (الأم خاصة ، دون ريب) ، يشتمّان شيئاً ما خفيّاً في طبيعة الأمير ، وإلى أنهما غير متيقّنتين كل التيقّن من رجولته . يلمّح دوستويفسكي مرّات عديدة على عفة الأمير ، هذه العفة التي شغلت بال الحماة العتيدة ، دون ريب :

مهما يكن ، فالمؤكد انه كان يبلغ قمة السعادة لسبب وحيد هو أن بوسعه، بعد ، أن يزور اغلايه ، ويتكلم إليها ، ويجلس إلى جانبها ، ويتكلم معها . و- من يعلم - ربما اكتفى بهذا مدى الحياة .

وكما يبدو ، فإن هذه العاطفة القانعة قد أقلقت زوجة الجنرال أبانتشين التي اكتشفت في الأمير محباً أفلاطونياً ؛ كان

Twitter: @abdullah_1395

ثمة كثير من المخاوف توجسها زوجة الجنرال في سرها ، دون أن تستطيع الإفصاح عنها [1] .

هناك أيضاً هذه الفكرة المهمة جداً : الحب الأكثر بعداً عن الجسد هو هنا ، كما في أي مكان آخر ، الأشدّ عنفاً .

لست لأحوّر أفكار دوستويفسكي ، ولست أعني أن هذا الحب المزدوج ، وغيبة الغيرة تقودنا إلى فكرة القسْمة السمحاء ، أو على الأصح ، إلى التضحية ، مرة أخرى ، لم يوضح دوستويفسكي هذه النقطة بما فيه الكفاية .

إن مسألة الغيرة كانت دائما شغل دوستويفسكي الشاغل؛ ففي أحد كتبه الأولى (زوجة الغير) ؛ نقع على هذه المفارقة : لا ينبغي اعتبار « أوتللو » [2] النموذج الفعلي للغيرة . وربما كان الأجدر ألا نرى في هذا التأكيد إلا تعبيراً عن الحاجة إلى الوقوف في وجه الرأي السائد .

لكن دوستويفسكي يعود إلى هذه الفكرة ، فيذكر « أوتللو » مرة أخرى ، في آخر كتبه ، المراهق :

قال لي فرسيلوف يوماً أن أوتللو لم يقتل ديدمونة ويقتل

---

(١) الأبله ، الجزء الثاني : ٢٦٦

(٢) بطل مسرحية لشكسبير ، يقتل حبيبته في فورة من الغيرة .

Twitter: @abdullah_1395

نفسه على الأثر بدافع من الغَيْرة ، بل لأنه فقد مثاله [1] .

هل هي مفارقة حقاً ؟ اكتشفت حديثاً ، لدى « كولريدج » ، تأكيداً مشابهاً إلى حدّ الشك في أن يكون دوستويفسكي قد اطّلع عليه .

الغيرة ، يقول « كولريدج » متحدثاً عن « أوتللو » ، لا تبدو لي كما . . . بل الأولى اعتبار الغم والإبتئاس من اكتشاف حقارة المحبوب ودَنَسه ، هذا المخلوق الذي كان يرتسم أمام عينيه كالملاك ، والذي جعله معبود قلبه ، ولم يكن بوسعه إلا أن يحبه . اجل! إنه الصراع للقضاء على العاطفة ، ومشقة الإنتزاع من القلب ؛ إنه سخط المعنويات الجريحة ،واليأس من إفلاس الفضيلة الذي يدفعه إلى الصراخ : « يا للخسارة ! يا للخسارة » .

هل أبطال دوستويفسكي عاجزون حقاً عن الغيرة ؟ يمكننا القول أن هؤلاء لا يجنون من غيرتهم سوى الألم ، الألم الذي يخلو من الحقد على الخصم (وهذه هي النقطة المهمة)، وإذا وجد الحقد ، كما في **الأزلية مريم** - كما سنرى بعد قليل - ، ففي ميزان تستقر في كفته الأخرى مشاعر غريبة غامضة من محبة الخصم ، فتحدّ من غلوائه . لكن الأغلب أن يتوارى الحقد

---

(١) **المراهق** ، ص : ٢٨٥ .

Twitter: @abdullah_1395

تماماً ، ويتوارى حتى الألم ؛ ها نحن أصبحنا على منحدر نوشك أن نلتقي فيه «جان ـ جاك روسّو» سواءً حين يرتضي من «مدام دو وارنس» أن تخصّ بعطفها خصمة «كلود أنِتْ» ، أو حين يكتب في اعترافاته عن «مدام دودتو» :

مهما تكن عاطفتي نحوها قوية مضطرمة فسواءٌ في الراحة عندي أن أكون صفيّها أو الحبيب ، ولم أنظر قط إلى حبيبها كعدو ، بل كصديق (المعنيُّ هنا سان ـ لامبير) ، قد يقال أن ذلك لم يكن حبّاً بعد : فليكن ، غير أنه كان أكثر من الحب .

وفي **المسكونون** : بدل أن تتأكّل الغيرة قلب ستافروغين يصبح صديقاً لغريمه .

إن هذا العرض الذي أضعه بين أيديكم سيتيح لنا التغلغل أكثر في آراء دوستويفسكي . رأيت مؤخراً ، وأنا أعيد قراءة آثار دوستويفسكي ، أنه من الأهمية بمكان خاص ، تتبع خط انتقال دوستويفسكي من مؤلّف إلى آخر .

كان من الطبيعي أن يُتْبع **ذكريات من بيت الموتى** بقصته عن راكولنيكوف في **الجريمة والعقاب** ، أي قصة الجريمة التي أوصلته إلى سيبيريا . ويفوق ذلك أهميةً التبصّر كيف تمهّد الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب **للأبله** . تذكرون أننا كنا قد تركنا راسكولنيكوف في سيبيريا في حال عقلية جديدة تماماً ، دفعته إلى

Twitter: @abdullah_1395

القول أن أحداث حياته كافة لم تعد بذات أهمية : جرائمه ، ندمه ، حتى استشهاده ، كلها أمور تبدو كأنها قصة إنسان آخر غيره .

حلّت الحياة لديه محل الوسائل العقلية . لم يتبقَ في ذاته سوى الأحاسيس .

في مستهل **الأبله** نلقى الأمير مويشكين مستغرقاً في هذه الحالة بالذات ، وهي حالة قد تكون ، في نظر دوستويفسكي ، ذروة في التفكير المسيحي ـ وإنها لكذلك ـ ، وستكون لنا عودة إليها .

إن دوستويفسكي ، كما أرى ، يجعل النفس الإنسانية طبقات مختلفة ، أو هو يكتشف هذه الطبقات فحسب . تطالعنا رواياته بشخصيات تتوزعها مستويات أو مناخات ثلاثة : مناخ عقلي غريب عن النفس ، وهو مصدر أردأ النزعات . هنا يكمن ، في اعتقاد دوستويفسكي ، العنصر الخؤون ، العنصر الشيطاني .

ولن أُعْنى الآن إلا بالمناخ الثاني الذي هو مناخ الأهواء والعواطف . إن هذا المناخ معرّض لعواصف عاتية ، لكن أنفس الأبطال تبقى بمنأى عن تأثير الأحداث التي تؤدي إليها هذه العواصف ، مهما تكن هذه الأحداث مأساوية . وهناك طبقة أعمق لا تطالها أعاصير العاطفة . وما يتيح لنا الوصول إلى هذه الطبقة مع راسكولنيكوف هو هذا الانبعاث (بالمعنى الذي

Twitter: @abdullah_1395

يقصده تولستوي من هذه الكلمة) ، هذه « الولادة الجديدة » التي تكلّم عليها المسيح ، وهذا هو المناخ الذي يحيا مويشكين في داخله .

أما انتقال دوستويفسكي من **الأبله** إلى **الأزلية مريم** ، فأمر في غاية الأهمية هو الآخر . تذكرون ، ولا شك ، اننا تركنا الأمير مويشكين في نهاية **الأبله** ، قرب سريرنا ستازيا فيليبوفنا التي قتلها عشيقها روغوجين ، غريم الأمير . كان الغريمان يجلسان وجهاً لوجهٍ متقاربين . ترى ، هل سيقاتلان ؟ ـ كلا ! لقد استرسل كل منهما في النحيب ، وأمضيا الليل بطوله مستلقين جنباً إلى جنب تحت أقدام ناستازيا .

كلما جعل روغوجين يهذي ويصرخ من أثر اشتداد الحمّى ، كان الأمير يمرّر يده اللاهبة على شعره ووجنتيه لكي يهدئه بهذه الملاطفة .

هذا الموضوع هو ، بالتحديد ، ما تدور عليه رواية **الأزلية مريم** . لقد نشرت رواية **الأبله** سنة ١٨٦٨ ، **والأزلية مريم** سنة ١٨٧٠ . ويذهب بعض الأدباء إلى اعتبار هذه الأخيرة رائعته الأدبية (رأي « مارسل شوب»). رائعة دوستويفسكي ؟ قد تكون هذه مغالاة . وعلى أي حال ، فالكتاب تحفة أدبية ، ومن المهم الاستماع إلى ما يقوله دوستويفسكي نفسه بشأنه :

Twitter: @abdullah_1395

يكتب إلى صديقه ستراكوف في ١٨ آذار ١٨٦٩ : في مخيلتي قصة ليست كبيرة الحجم أفكر في وضعها منذ ثلاث أو أربع سنوات ، أي منذ وفاة أخي ، وذلك استجابة لما ورد على لسان أبولوث غريغورييف في مدح روايتي **الروح الخفيّ** إذ قال : « أكتب شيئاً ما من هذا القبيل ! » . لكن هذا الشيء جاء مختلفاً تماماً من حيث الشكل ، رغم أن الجوهر لم يتغيّر . استطيع كتابة هذه القصة بسرعة كبيرة ؛ فما من كلمة فيها ، ما من كلمة الا وأعرف موضعها . لقد كتبتها في فكري قبل كتابتها على الورق .

وفي رسالة مؤرخة في ٢٧ تشرين الأول ، ١٨٦٩ ، نقرأ :

لقد أنهيت ، أو أكاد ، كتابة ثُلثي القصة ونسخها . عملت وسعي لأوجز ، فما أفلحت. ليست العبرة في الحجم بل في النوعية . أما قيمتها فليس لديّ ما أقوله عنها ، إن أمرها ليس بيدي . إنه بيد الآخرين .

وهذا ما يقوله الآخرون :

خلقت قصتك هنا ، يكتب ستراكوف ، جواً من الإنفعال العنيف ، وأرى أن نجاحها مضمون . إنها من أفضل ما كتبت ، وموضوعها هو من أكثر المواضيع التي تناولتها إثارة . أما عن طباع تروزوتزكي ، فقد وجد معظم الناس صعوبة في فهمها ، ومع ذلك فهم يقبلون على قراءتها بنَهَم .

Twitter: @abdullah_1395

كانت رواية **الروح الخفي** قد سبقت هذا الكتاب إلى الوجود بفترة وجيزة ، واعتقد أننا ، مع هذه الرواية ، نصل إلى ذروة ابداعه . وأرى (مع كثيرين غيري) أن هذا الكتاب هو بمثابة المفتاح الرئيسي لمؤلفاته جميعاً . لكن هذا الكتاب يلج بنا مناخات العقل ، لهذا ، لن اتناوله اليوم بالبحث ، بل سنبقى ، مع **الأزلية مريم** ، في مناخات العاطفة ، ليس في هذا الكتيِّب سوى شخصيتين اثنتين لا غير : الزوج والعشيق . والتركيز يتمّ على هذين الشخصين فحسب . فالكتاب بأكمله يستجيب لما ندعوه نحن اليوم مثالاً **كلاسيكياً** . فالحدث نفسه أو الحادثة الرئيسية التي تُبنى عليها المسرحية استوفَتْ شروطها في هذا الكتاب ، كما في إحدى مسرحيات إبسن .

وصل **فلتشانينكوف** إلى هذه الفترة من العمر التي تبدأ فيها أحداث الماضي ترتدي ، في عيني صاحبها ، طابعاً مختلفاً بعض الشيء .

الآن ، على حدود الأربعين ، انطفأ الصفاء والطيبة أو كادا ، من هاتين العينين اللتين تحاصرهما تجاعيد خفيفة . لقد غلب عليهما الإستخفاف ، استخفاف إنسان لا يرْعى التقاليد ، غارق في الضجر والمكْر والتهكم كذلك ، تغمرهما الآن ظلال جديدة لا عهد لها بها من قبل . ظلال من الكآبة والألم ، كآبة

Twitter: @abdullah_1395

ذاهلة خاوية ولكن عميقة . هذه الكآبة تظهر خاصةً حين يكون وحيداً [1] .

ماذا يجري إذاً لفلتشانينكوف ؟ ما الذي يحصل في هذه السن وعلى هذا المنعطف من العمر ؟ نحيا ، ونلهو ، وفجأة : ندرك أن سلوكاتنا ، والأحداث التي تقف وراءها ، ما إن تنفصل عنا ، وعلى الأصح ، ما إن نطلقها بين الناس كما نطلق زورقاً صغيراً في البحر ، حتى تواصل سيرها مستقلةً عنا ، وغالباً ، رغم أنفنا (يأتي « جورج إليوت » على ذكر هذا المعنى في كتابه : **آدام بيد**) .

أجل إن أحداث حياة فلتشانينكوف الخاصة لم تعد تتراءى له على الصورة ذاتها . أي أنه تحوّل فجأة إلى وعي مسؤوليته . يلتقي ، هذه الفترة ، أحد معارفه القدامى وهو زوج احدى اللواتي كان على صلةٍ بهنّ . هذا الزوج ، يقدّم نفسه لفلتشانينكوف بطريقة عجيبة لايفهم منها هل هو راغب في تجنبه أم في رؤيته . يبدو كأنه طلع فجأة من بلاط الشارع . ها هو يهيم حول منزل فلتشانينكوف الذي لم يتعرف إليه ، أول الأمر .

لن أقصّ عليكم كل ما ورد في الكتاب ، ولا كيف قرّر

(١) **الأزلية مريم** ، ص : ٧ .

Twitter: @abdullah_1395

فلتشانينكوف ، بعد زيارة ليلية من بافل بافلوفيتش تروزوتزكي ، أن يقوم بزيارة هذا الأخير . لقد اتضح وضع كل منهما ازاء الآخر بعدما كان في البدء غامضاً :

ـ اذن ، لست وحدك هنا ، بافل بافلوفيتش ؟ ومن هذه البنت الصغيرة التي رأيتها حين دخولي [1] .

رفع الرجل حاجبيه دهشةً ثم أجاب ، وفي عينيه نظرة صراحة وتودّد :

ـ ماذا؟ هذه الصغيرة ؟ إنها ليزا . قالها مبتسماً .

ـ مَنْ ليزا ؟ تمتم فلتشانينكوف .

وفجأة تحرّك شيءٌ ما في داخله . كان انطباعاً فورياً . فحين شاهد الصغيرة ، وهو يدلف ، فوجيء لرؤيتها قليلاً ، لكنه لم يهجس بشيء، لم تدركه أية فكرة .

ـ إنها ليزا ، ابنتنا ليزا ، ردد بافل بافلوفتيش والإبتسامة لا تفارق شفتيه .

ـ ابنتك ؟ كيف ؟ ولكن ، هل رزقت ناتاليا . . المرحومة ناتاليا فاسيلييفنا أولاداً ؟ تساءل فلتشانينكوف بصوت مختنق بهيم ، لكن لا يفارقه الهدوء .

---

(١) الأزلية مريم ، ص : ٥١ .

Twitter: @abdullah_1395

- بالطبع ... ولكن ، يا إلهي ! أصحيح ، كيف لك أن تعرف . أين أضعت عقلي ؟ كان ذلك بعد رحيلك حين مَنّ الله علينا ...

تحرّك بافل بافلوفيتش في كرسيّه منفعلاً بعض الشيء، لكنه بقي محتفظاً بمظهره الأنيس .

- لم أعلم بشيء ، قال فلتشانينكوف وقد تحوّل لونه إلى الشحوب .

- بالفعل ، بالفعل ! كيف لك أن تعرف ؟ أجاب بافل بافلوفيتش برقة. كنا قد فقدنا كلَّ أمل ، أنا والمرحومة ، تذكر ذلك جيداً .. وإذا بنعمة الله تغمرنا على حين غرّة ! وحده الله يدرك ما شعرت به يومها . حدث ذلك بعد رحيلك بسنة تماماً ، لا ليس سنة بالضبط ... إسمع !... اذا لم أكن مخطئاً فقد رحلت في تشرين الأول ، بل في تشرين الثاني ؟

- رحلت عن تـ ... في أيلول ، الثاني عشر من أيلول : أذكر ذلك جيداً .

- حقاً ؟ في أيلول ؟ إحِمْ !... ولكن ، كيف أضعت عقلي ؟ جعل بافل بافلوفيتش يقول مشدوها . طيب ! إذا كنت رحلت في ١٢ أيلول ، وليزا ولدت في ٨ أيار يكون مضى على رحيلك ... ايلول ، - تشرين الأول ، - تشرين الثاني ،

Twitter: @abdullah_1395

ـ كانون الأول ، ـ كانون الثاني ، ـ شباط ، ـ آذار ، ـ نيسان ، ثمانية أشهر تقريباً !... ولو تعلم كم كانت المرحومة . . .

ـ أرنيها ، جئني بها . . . قاطعه فلتشانينكوف بصوت مختنق .

هكذا أدرك فلتشانينكوف أن هذا الحب العابر ، الذي لم يكن يوليه أي اهتمام ، لم يمض دون أثر . وينتصب أمامه السؤال : هل يعلم الزوج ؟ ويظلّ القارىء في حيرة من أمره ، حتى يقارب الكتاب نهايته . إن دوستويفسكي يعلّقنا بين الشك واليقين ، وهذه الحيرة بالذات هي ما يعذّب فلتشانينكوف . ليس في وسعه أن يستقر على رأي . وقد يتبادر إلى أذهاننا سريعاً أن بافل بافلوفيتش يعلم الحقيقة . لكنه يُظْهر العكس رغبةً منه في تعذيب العشيق بهذه الحيرة التي يبرع في تغذيتها في نفسه .

أحد أوجه التعامل مع هذا الكتاب الغريب هو هذا : الأزلية مريم رواية تعرض صراع الشعور الحقيقي الصادق ، ضد الشعور السائد ، ضد النمط النفسي الراهن والمتفق عليه . ثمة حل وحيد : المبارزة » ، يصرخ فلتشانينكوف . لكننا ندرك أنه حل هزيل لا يعكس شعوراً حقيقاً ، وإنما هو رضوخ لمفهوم زائف في الشرف مستمدٍ من الغرب ، وهذا المفهوم لا دور له هنا . وندرك في الحال أن بافل بافلوفيتش ، في صميم كيانه ، يحب غيرته بالذات . الحقيقة أنه يرتاح إلى الألم

Twitter: @abdullah_1395

ويلتمسه . هذا السعي وراء الألم كان له دور مهمّ للغاية في الروح الخفيّ .

لقد اقتفينا ، نحن الفرنسيين خطى الفيكونت « ملكيور دو فوغه » ، فكثر الحديث عن « دين الألم » عند الروس . فالفرنسيون يقيمون وزناً كبيراً للصيغ ، وهذه الطريقة هي نوع من « التجنيس » للكاتب ، يسمح بوضعه ضمن خانة معينة . ويميل الفكر الفرنسي أيضاً إلى معرفة العناوين، ولا يعود بعدها محتاجاً إلى التنقيب وإمعان النظر . ـ نيتشه ؟ ـ أجل ، «الإنسان المتفوق . اعتدِ الشدّة والخطر » . ـ تولستوي ؟ ـ «الإستسلام للشر » . إبسن ؟ ـ « ضباب الشمال » . ـ داروين ؟ ـ «الإنسان متحدر من القرد . تنازع البقاء » . ـ دانّونزيو ؟ ـ « عبادة الجمال » . وويل للمؤلف الذي لا ينحصر فكره في صيغة معينة ! إن عامة الناس لا تقبل هكذا فكر (وقد أدرك «بارّس» ذلك جيداً ، فجعل لبضاعته هذا العنوان : **الأرض والموتى**) .

أجل ، نحن في فرنسا لدينا مَيْل جارف إلى التعلّل بالكلام ونعتقد ، منذ عثورنا على الصيغة ، اننا وفّينا البحث حقه ، وما علينا سوى تجاوزه . هكذا ، أمكننا الإعتقاد أننا أحرزنا النصر حين قال « جوفر » : « أنني أقوم بإفنائهم » ، أو بفضل « محدلة » روسيا .

Twitter: @abdullah_1395

علينا الإحتراز من سوء الفهم لدى الحديث عن « دين الألم » . فالألم هنا ليس ألم الآخرين فحسب ، أو الألم الشامل الذي ينحني راسكولنيكوف تحت وطأته حين يرتمي على قدمي سونيا الغانية ، أو ألم الأب زوسّيما حين يسقط على قدمي ديمتري كارامازوف ، القاتل العتيد ، بل الألم الذي يشعر به هو أيضاً .

وسيستمر فلتشانينكوف ، على مدار الكتاب ، يطرح السؤال على نفسه : هل يستشعر بافل بافلوفيتش الغيرة ، أم لا ؟ هل تراه يعلم ، أم هو لا يعلم شيئاً ؟ ـ سؤال مستحيل ! أجل ، إنه يعرف بالطبع ! أجل ، إنه يغار بالتأكيد ! لكنه هو الذي يغذّي هذه الغيرة في ذاته ، وهو الذي يبحث عن ألم الغيرة الذي يهوى ، تماماً كبطل الروح الخفي الذي يهوى وجع أسنانه .

لكننا لا نكاد نعرف شيئاً عن هذا الألم الهائل الذي يعاني منه الزوج الغيور . فدوستويفسكي لا يفتح لنا أية نافذة مباشرة عليه ، ولا يسمح لنا باستشفافه إلا عبر الآلام الممضّة التي يحمّلها تروزوتزكي المحيطين به ، بدءاً بالفتاة الصغيرة التي يهيم بها حباً على الرغم من ذلك، إن الآلام التي تقاسيها هذه الصغيرة تمكننا من معرفة حدّة ألمه هو . إن بافل بافلوفيتش يعذّبها لكنه يحبها حتى العبادة ، ولا يمكنه أن يكرهها لا يمكن للمحب أن يكره محبوبه .

Twitter: @abdullah_1395

« هل تعلم ما كانت تمثّله ليزا بالنسبة إليّ ، فلتشاينكوف ؟ » تذكر صرخة تروزوتزكي هذه وشعر أنها لم تكن سَخْطاً ، وأن تمزّقه كان صادقاً . كانت تلك عبارات ود . كيف يمكن لهذا المسْخ أن يقسو على الطفلة التي كان يعبدها ؟ هل يمكن تصديق ذلك ؟ غير أنه كان يستبعد هذا السؤال ويتهرّب منه على الدوام ؛ ففي مطاويه . من الشك ما يخيف ، ومن التعقيد ما يصعب احتماله أو التوصّل إلى حلّه [1] .

إن ما يؤلمه أشدّ الألم هو ، بالتحديد ، عجزه عن الغَيْرة ، أو، بكلمة أدق ، ألا يعرف من الغيرة إلا الألم ، وألّا يتمكن من بغض من كان الكائن الأثير لديه . إن العذابات التي يسببها لخصمه ، وتلك التي يحاول تسبيبها له ، والآلام التي يحمّلها ابنته ، ما هي إلا المعادل الرمزي الذي يواجه به الرعب والضيق حيث يغرق هو نفسه . غير أنه يحلم بالثأر ، لا لأنه يستشعر رغبةً فيه ، بل لأن الثأر واجب عليه ـ هكذا يقول في نفسه ـ ، وقد يكون الوسيلة الوحيدة للخروج من هذا الضيق المقيت . نرى هنا أن الإتجاه النفسي السائد يتغلّب على صدق الشعور .

« العادة ، يقول « فوفنارغ »، هي كل شيء ، حتى في

---

(١) الأزلية مريم ، ص : ١٠٤ ـ ١٠٥

Twitter: @abdullah_1395

الحب »[1] وتذكرون حكمة « لاروشفوكولد » التي تقول :

كم من الناس ما كانوا عرفوا الحب، لو لم يسمعوا الناس يتحدثون عنه ؟ !

أوليس من حقنا القول ، قياساً : كم من الناس ما كانوا عرفوا الغيرة ، لو لم يسمعوا الناس يتكلمون عنها ، ولو لم يدركهم اقتناع سابق بأن عليهم أن يغاروا ؟

لا شك في أن الإصطلاح هو المصدر الأساسي للأكاذيب . فليس قليلاً عدد الذين يمضون حياتهم متقمّصين شخصية تختلف كلّياً عن شخصيتهم ، ويندر أن نجد لديهم نمطاً سلوكياً لم يُمْله عليهم التقليد والسير على مثال . إن تقليد كل ما جرت العادة عليه ، أيسر من ابداع الجديد . كم من الناس من يرتضي أن يحيا ، العمر كله ، خارج ذاته ، وهو يجد في هذا التزوير من الراحة ما لا يتوفر له في التأكيد الصادق على الذات ! إن هذا التأكيد يتطلب نوعاً من الخلْق لا يجد نفسه أهلاً له .

لنستمع إلى ما يقوله تروزوتزكي :

ـ إسمع ، ألكسي ايفانوفيتش ! هذا الصباح ، حينما كنت في العربة، تذكرت قصة صغيرة عليّ أن أرويها لك لطرافتها .

---

(١) فوفنارغ ، حكمة ٣٩ ، الآثار ، ص : ٣٧٧ .

Twitter: @abdullah_1395

كنت تتحدث منذ قليل عن الذي «يرمي نفسه على أعناق الناس». ربما كنت تذكر سمن بتروفيتش ليفتسوف الذي جاء إلى تـ . . . . حين كنت فيها؟ المهم، كان له أخ أصغر، وهو شاب وسيم من بترسبورغ أيضاً، يعمل لدى حاكم فـ . . . وقد كان حسن السيرة. ذات يوم، تشاجر مع الكولونيل فولوبنكو في أحد المجتمعات، بحضور جَمْع من السيدات بينهنّ عروسة أحلامه، فشعر أنه أهين إهانة بالغة. لكنه تقبّل الإهانة ولم ينبس بكلمة. بعد مدة، طلب الكولونيل حبيبة قلبه للزواج وسلبه إيّاها هل تعلم ماذا فعل ليفتسوف؟ لقد عمل على التقرّب من غولوبنكو حتى أصبح صديقه الحميم؛ وأكثر من ذلك، طلب أن يكون بين مرافقي العروسين: يوم الزفاف، كان بين المرافقين. وبعدما تقبّل البركة، اقترب من العريس ليهنّئه معانقاً؛ عندها؛ استل ليفتسوف سكيناً، وأمام أشراف القوم، وأمام الحاكم، طعنه بها في بطنه طعنة قاتلة فخرّ غولوبنكو صريعاً! . . . إنها قصة مملّة! لكن، ليس هذا كل شيء! فبعد هذه الطعنة سار مترنحاً بين الناس يميناً وشمالاً وهو يصرخ: «يا للأسف! ماذا فعلت! يا للأسف! ماذا فعلت!»، وأخذ ينتحب مضطرباً في الجمع، ملقياً بنفسه على أعناق الجميع، حتى السيدات. «يا للأسف! ماذا فعلت؟» ها! ها! ها! كان مشهداً يميت من الضحك. كان غولوبنكو الوحيد الذي يثير الشفقة. لكنه جاز الموقف آخر الأمر.

Twitter: @abdullah_1395

ـ لا أرى سبباً لسرد هذه القصة عليّ ، قال فلتشانينكوف بخشونة مقطب الجبين :

ـ لا سبب غير طعنة السكين ، أجاب بافل بافلوفيتش وهو يضحك [1] .

هكذا ، يظهر شعور بافل بافلوفيتش الفعلي التلقائي على حقيقته حين يضطر إلى الإعتناء بفلتشانينكوف الذي أصيب ، على حين غرّة ، بنوبة في الكبد .

ولتسمحوا لي أنْ أتلو عليكم هذا المشهد الغريب كاملاً :

ما كاد المريض يستلقي على السرير حتى استغرق في النوم . لقد استسلم للرقاد وكالطفل نتيجة الإثارة القوية الوهميّة التي جعلته يقف على رجليه هذا النهار بطوله . لكن المرض تغلّب على التعب والنعاس ؛ فبعد ساعة من رقاده ، استيقظ فلتشانينكوف وانتصب على الكنبة وهو يئنّ من الألم ، ثم ما لبثت حدة الألم أن هدأت ، كانت الغرفة تغصّ بدخان السجائر ، والقنينة تقف فارغةً على المنضدة ، وبافل بافلوفيتش يغطّ في نومه على الكنبة الأخرى . كان مستلقياً على طوله ، بملابسه والحذاء ، وكانت نظارته تتدلّى من جيبه في طرف خيط من الحرير ، فتكاد تلامس الأرض [2] .

---

(١) الأزلية مريم ، ص : ٩٢ ـ ٩٣ .

(٢) الأزلية مريم ، ص : ١٦٠ ـ ١٦١ .

Twitter: @abdullah_1395

إنه لمن الملاحظ أن دوستويفسكي ، حين يغوص على الغرائب السيكولوجية ، يهتم بضبط أدق التفاصيل الواقعية ، لكي يؤمن الترابط بين هذه الغرائب التي تبدو ، بدون هذه التفاصيل ، بعيدة عن الواقع ، ومن نَسْج الخيال .

فلتشانينكوف يتألم بشدّة، وها هو تروزوتزكي يتعهّده بما أمكنه من العناية :

لكن بافل بافلوفيتش كان يتأكّله الغيظ ـ والله يعلم لماذا ـ ويتملّكه القلق ، وكأنه معنيٌّ بإنقاذ أحد أولاده . لم يكن مستعداً لسماع أي شيء ، ويلحّ بنزق : أنت في حاجة ماسة إلى كمّادات ساخنة ، وعليك أن تشرب ، في الحال ، كوبين أو ثلاثة من الشاي الخفيف ، الساخن حتى الغليان . ثم ذهب مسرعاً ليحضر مافرا دون استئذان فلتشانينكوف في ذلك . أتى بها إلى المطبخ ، أشعل النار ووضع الغلاّية . في الوقت نفسه ، كان قد أقنع المريض بأن ينام ، فنزع عنه ثيابه ، ودثره بأحد الأغطية . في خلال عشرين دقيقة ، أصبح الشاي جاهزاً ، وتسرّب الدفء إلى أول كمادة .

إليك ما أنت بحاجة إليه . . . صحون محمّاة جيداً ! قالها في عجلة ملهوفة . وهو يضع صحناً ملفوفاً في منشفة على صدر فلتشانينكوف . ليس لدينا كمّادات أخرى ، ويلزمنا وقت طويل لجلبها . . . أنا أكفل الصحون . . إنها من أفضل ما وجد .

Twitter: @abdullah_1395

لقد جرّبتها بنفسي على بيتر كوزميتش . أنت تعلم ، فقد تسبب الموت ! خذ ! إشرب هذا الشاي بسرعة ، ولو أحرق فمك . المهم أن تشفى .

كان يهزّ مافرا التي لا يزال يغلبها النعاس ، فتغيّر الصحون كل ثلاث أو أربع دقائق . بعد الصحن الثالث وكوب الشاي الثاني الذي كان يستقر في بطنه بكرْعة واحدة ، شعر فلتشانينكوف بتحسن مفاجىء .

ـ حين نتمكّن من التحكم بالمرض ، فتلك علامة جيدة ، بفضل الله ! صاح بافل بافلوفيتش .

وأسرع فرحاً ليأتي بصحن آخر ، وبكوب ثالث من الشاي .

ـ المهم أن نعرف ما هو المرض ! المهم أن نجعله يتراجع ، كان يردّد كل لحظة .

في غضون نصف ساعة ، كان الألم قد سكن نهائياً . لكن الإعياء كان قد بلغ من المريض مبلغاً جعله يرفض بعناد ، أخذ « صحن صغير بعد » رغم توسّلات بافل بافلوفيتش ، فأغْمَضَتْ عيناه من التعب .

ـ نمْ ! نمْ ! تمتم بصوت مختنق .

ـ أجل ، أجل ! أجاب بافل بافلوفيتش .

ـ نم أنت أيضاً . . . كم الساعة ؟

Twitter: @abdullah_1395

- نمْ .

بعد دقيقة نادى المريض بافل بافلوفيتش مجدّداً ، فأسرع وانحنى عليه .

- أوه ! أنت . . . أنت أفضل مني ! . . .

- شكراً . نم . نمْ ! أجاب بافل بافلوفيتش هامساً . ثم استدار مسرعاً إلى أريكته . استمع المريض اليه ، وهو يمهّد سريره بهدوء ، ويخلع ملابسه ، ويطفىء الشمعة ، ثم يرقد هو الآخر ممسكاً أنفاسه لئلا يعكّر عليه رقاده [1] .

كل هذا لم يمنع من أن يفاجىء فلتشانينكوف تروزوتزكي ، بعد ربع ساعة ، منحنياً فوقه لقتله ، وقد حسبه نائماً . ليس من تصوّر سابق لهذه الجريمة ، أو ، على الأقل :

كان بافل بافلوفيتش يريد القتل ، لكنه لم يكن يدرك ذلك . أمر غير مفهوم ، لكن ، هذا هو الواقع ، فكّر فلتشانينكوف [2] .

ومع ذلك ، لم يكتفِ بهذا التفسير :

هل كان صادقاً ؟ تساءل بعد فترة .

---

(١) الأزلية مريم ، ص : ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) الأزلية مريم ، ص : ١٧٢ .

Twitter: @abdullah_1395

هل كان تروزوتزكي صادقاً في ما أبداه بالأمس نحوي من حنان ، حين كانت ذقنه ترتجف ، وحين كان يضرب صدره جزعاً ؟

أجل ، كان صادقاً كل الصدق ، ردّد في نفسه ، وهو يمعن في التفكير دونما رابط . لقد كان من الغباوة والنبل بحيث تعلّق بعشيق زوجته الذي لم يجد في مسلكه ما يعيب خلال عشرين عاماً ! لقد كان يحترمني طوال السنوات التسع التي مضت ، وأكرم ذكري ، وحفظ « تعابيري » في ذاكرته . ليس ممكنا أن يكون قد كذب البارحة ! لم يكن قوله البارحة : «لنسوِّ حساباتنا» ، ناجماً عن المودّة ؟ بالطبع ! لقد كان يحبني وهو يكرهني ، وهذا هو أعنف الحب [1].

وأخيراً :

كل ما في الأمر أنه لم يكن يعلم عندها هل سينتهي به كل هذا إلى قبلة أم إلى طعنة سكين . فإذا الحل يأتي كأفضل ما يكون : القبلة والطعنة سوّياً ، وهو أكثر الحلول منطقية [2] .

إذا كنت توقّفت عند هذا الكتيّب ، هذا الوقت كله ، فلأنه أقرب منالاً من سائر روايات دوستويفسكي ، ولأنه

---

(١) الأزلية مريم ، ص : ١٧٢ .
(٢) الأزلية مريم ، ص : ١٧٤ .

Twitter: @abdullah_1395

يتيح لنا أن نقترب ، في ما وراء المحبة والحقد ، من تلك المنطقة العميقة التي كنت أتكلم عنها ، وهذه ليست منطقة المحبة ولا العاطفة ، ومع ذلك يسهل الوصول إليها . إنها كما يخيّل إلي ، تلك المنطقة التي حدّثنا عنها « شوبنهور » حيث يجتمع كل شعور بالتآزر البشري ، وتتلاشى حدود الكينونة ، وحيث ينتفي الحسّ الفردي وحسّ الزمن ، إنها المنطقة التي كان دوستويفسكي يبحث عن سرّ السعادة فوق أرضها ، ويراه منغرساً في تربتها .

وهذا ما سنراه في المحاضرة التالية .

Twitter: @abdullah_1395

(٥)

حدثتكم في المحاضرة الأخيرة عن الطبقات أو المناطق الثلاث التي تميّز دوستويفسكي في شخصية الإنسان : منطقة التأمل العقلي ، منطقة العواطف ، وهي متوسطة ما بين الأولى وهذه المنطقة الأخيرة المُغْلقة على حركة العواطف والأهواء .

هذه الطبقات الثلاث ليست منفصلة مطلقاً وليس بينها حدود ، بل هي دائمة التداخل .

حدثتكم ، في محاضرتي الأخيرة ، عن المنطقة المتوسطة ، منطقة العواطف ، على أرض هذه المنطقة تُمثَّل المأساة ، لا في روايات دوستويفسكي فحسب ، بل في الإنسانية جمعاء . وقد أتيح لنا أن نتبيّن ما كان يبدو ، للوهلة الأولى ، منافياً للعقل : إن هذه العواطف مهما كانت جياشة ومضطرمة ، ليست ذات أهمية ، أي أنها ، بعبارة أدق لا تتوصل إلى تحريك أعماق النفس . فالأحداث ليس لها عليها أي تأثير ، فهي غير معنيّة بها . هل ثمة أدلّ على ذلك من الحروب ؟ لقد أُجريت تحقيقات حول الحرب الرهيبة التي لم يَمْضِ كثير وقت على خروجنا منها ،

Twitter: @abdullah_1395

فسئل بعض رجالات الأدب عما يرونه من أهميتها ، وما هو صداها الخُلُقي ، وما مدى تأثيرها في الأدب ؟ . . . . فجاء الجواب في غاية البساطة : إن تأثيرها كان معدوماً أو شبه معدوم .

تبصّروا ، بالأحرى ، في حروب العهد الإمبراطوري ، وحاولوا اكتشاف ما خلّفته في الأدب ، وماهيّة التغييرات التي أحدثتها في النفس البشرية . . . لا شك أن هناك شعر مناسبات يتناول مآثر نابليون ، كما هي الحال مع الشعر الكثير الذي قيل في هذه الحرب الأخيرة . لكن ، أين هو انعكاسها العميق ، وأين التبدّل الأساسي الذي تركته ؟ لا ! ليس لحدث ، مهما كان ضخماً ومأساوياً ، أن ينتج مثل هذا التأثير . لكنّ الأمر يختلف مع الثورة الفرنسية . فالحدث هنا ليس خارجياً فحسب ، وبدقيق العبارة ، ليس حادثاً ، ليس صَدْمة خارجية ، اذا صحّ التعبير . الحدث هنا ينبع من الشعب نفسه . إن الأثر الذي تركته الثورة الفرنسية على كتابات « مونتسكيو » و« فولتير »[1] و« روسّو »[2] لا يمكن تجاهله ، غير أن هذه الكتابات سبقت قيام الثورة ، ومهدّت لها . وهذا بالذات ما نلمسه في روايات دوستويفسكي . فالفكرة عنده ليست تابعة

(١ ، ٢) راجع فولتير وروسو في سلسلة « زدني علماً » . الناشر .

Twitter: @abdullah_1395

للحدث بل سابقة عليه . وغالبا ما يقوم الوجدان بدور الوسيط ما بين الفكرة والفعل .

إلا أننا نجد أحياناً أن العنصر العقلي في رواياته ، يدخل في احتكاك مباشر مع المنطقة العميقة . وهذه ليست ، بأي حال ، جحيم النفس ، بل هي ، على العكس ، سماؤها .

نقع ، لدى دوستويفسكي ، على انقلاب في القيم عجيب ، سبق لـ « وليم بلاك » ، الشاعر الإنكليزي الصوفي الكبير أن قدّم مثالاً عليه . الجحيم ، في رأي دوستويفسكي ، هو في المنطقة العليا ، منطقة العقل . يجتاح كتاباته كافةً اتجاهٌ عام ، قريب من اللاوعي ، إلى الحطّ من قيمة العقل ، وهو اتجاه مستوحى من الإنجيل .

إن دوستويفسكي لا يقدّم البراهين على أن العقل المجترّ ، لا البغض ، هو نقيض المحبّة ، بل يوحي بذلك إيحاءً . العقل عنده هو كل ما يُفردن الإنسان [1] ليقف به في وجه ملكوت الله ، والحياة الأبدية ، وفي وجه هذه الغبطة التي يحياها خارج الزمن ، وما من سبيل إليها سوى نكران الذات ، للدخول في بحر من التوحّد ليس له شطآن .

لا شك في أن هذا المقطع لـ « شوبنهور » يلقي بعض الضوء :

(١) Individualiser l'homme .

Twitter: @abdullah_1395

عندها ، يدرك أن التمييز بين من يتسبب بالألم ومن يعانيه ، ليس سوى ظاهرة ، وليس له صلة بالحقيقة في ذاتها ولا بارادتها الحيّة : هذه الإرادة ، إذ يفسدها العقل المؤتمر بأمرها ، تنكر نفسها ، وحين تُطلب لإحدى ظاهرتيها مزيداً من الراحة ، تتسبّب للأخرى بمزيدٍ من الألم . فهي ، حين تدفعها الحميّا ، تمزّق لحمها بأسنانها جاهلة أن الدم الذي يسيل انما هو دمها ، وما ذلك إلا بفعل حسّها الفردي والصراع الذاتيّ المخبوء في داخلها . صانع الألم ومتلقيه واحد . الأول يخدع نفسه حين يضعها خارج متناول العذاب . والثاني يخدعها كذلك إذ يعتبرها غير مشاركة في الإثم . لو قدّر لأعينهما أن تتفتح ، لرأى الشرير أنه إنما يحيا ، في هذا العالم الرحيب ، في قلب كل متألم يتساءل ، دون جدوى ، بما أوتيَ من عقل ، عن الغاية التي من أجلها أريد له أن يحيا ، وأن يتحمل آلاماً لا يرى أنه مستحق لها ؛ لو قدّر ذلك ، لأدرك كل بائس ، بدوره ، أن كل الشرّ الذي ارتُكب ويُرْتكب على الأرض ، انما هو وليد هذه الإرادة التي هي في جوهر تركيبه هو ايضاً ، وليس هو سوى ظاهرة ناجمة عنها ، وإنه ، بسبب هذه الظاهرة ، ومن أجل تأكيدها ، تحمّل كل ما ينتج عنها من عذابات ، وعليه أن يستمرّ في التحمّل دون تذمّر ، طالما أن وجوده انما هو صورة عن هذه الإرادة [1] .

(١) شوبنهور ، **العالم إرادة وتصوّر** ، الجزء الأول ، ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧ (ترجمة ج . أ . كانتاسوزن) .

Twitter: @abdullah_1395

غير أن التشاؤم (الذي يبدو مصطنعاً لدى «شوبنهور» بعض الأحيان)، يخلي مكانه لتفاؤل مفرط لدى دوستويفسكي؛ يقول على لسان إحدى شخصيات **المراهق**:

لو منحتني حيوات ثلاث لما كفتني [1].

وفي الكتاب نفسه:

إن شهوتك للحياة هي من القوة بحيث أنك لو وهبت حيوات ثلاث لما اكتفيت [2].

أودّ هنا أن ألج وإياكم أكثر في حالة الغبطة هذه التي يصوّرها دوستويفسكي، إلى حيث يضعنا في كل من رواياته، على مشارف حالة يتلاشى فيها، مع الشعور بالحدود الفردية، الشعور بالزمن الهارب.

يقول الأمير مويشكين في **الأبله**:

يخيَّل إليّ، في هذه اللحظة، أنني أدركت ما يعنيه الرسول بقوله الرائع: **سوف يمّحي الزّمن** [3].

إليكم أيضاً هذا المقطع البليغ من **المسكونون**:

---

(١) **المراهق**، ص: ٧٨.
(٢) م.ن.، ص: ١٤٥.
(٣) **الأبله**، ص ٢٩٨.

Twitter: @abdullah_1395

- هل تحب الأولاد ؟ تساءل ستافروغين .

- أجل ، أحب الأولاد، أجاب كيريلوف غير مكترث .

- إذاً ، تحب الحياة كذلك ؟

- نعم ! وهل في هذا ما يدعو إلى الدهشة ؟

- هل تؤمن بالخلود في العالم الآخر ؟

- كلا ! بل أؤمن بالخلود في هذا العالم . تمرّ لحظات تشعر فيها أن الزمن توقف فجأةً ، وأن الأبدية قد حلت محلّه [1] .

ثمة أمثلة أخرى لكن هذا المقطع يكفي دون شك .

كلما قمت بقراءة الإنجيل ، أذهلني الإلحاح على ترداد هاتين الكلمتين : **منذ الآن** . ولا شك أن دوستويفسكي هو الآخر قد أذهله كون الغبطة التي وعد بها المسيح ، ممكنة التحقيق مباشرة ، اذا ما تنكّرت النفس البشرية لذاتها ، وسلّمت أمرها لله : **منذ الآن** . . .

ليست الحياة الأبدية وعْداً مستقبلياً (أو ، على الأقل ، ليست

---

(١) **المسكونون** ، الجزء الثاني ، ص ٢٦٥

Twitter: @abdullah_1395

كذلك فحسب) . وإذا لم نتمكن من تحقيقها على الأرض ، فلا أمل في تحقيقها على الإطلاق . . .

إليكم هذا المقطع الرائع لـ « مارك روترفورد » من السيرة الذاتية :

حين هرمت ، بتُّ أدرك ، بصورة أفضل ، كم كان تافهاً هذا الركض المستمر وراء المستقبل ، وطغيان الغد ، وهذه السعادة الهاربة باستمرار . تعلّمت أخيراً ، بعدما فات الأوان أو كاد ، أن أعيش اللحظة الحاضرة ، وأن الشمس الساطعة التي تنيرني الآن ، هي ذاتها التي ستنيرني في الغد ، تعلّمت ألا أجعل من همّ المستقبل شغلي الشاغل . لكن شبابي كان فريسة هذا الوهم الذي تغذّينا به الطبيعة لسبب أو لآخر ، والذي يدفعنا ، في أسْطع صباحات حزيران ، إلى توقع صباحات أكثر تألقاً في تموز . لن أسمح لنفسي بالدخول في نزاع حول عقيدة الخلود ، بل أقول ، بكل بساطة ، أن بوسع الناس أن يجدوا السعادة دونما حاجة إلى هذه العقيدة ، حتى أوان الكوارث ، وأن اعتبار الخلود دوماً هو المحرّك الوحيد لأفعالنا على الأرض ، إنما هو مبالغة متأتية عن هذه الحماقة التي تسوقنا جميعاً ، وطوال العمر ، وراء أمل مؤجّل باستمرار ، بحيث يدهمنا الموت قبل أن نستظل أفياءه ساعةً واحدة [1] .

---

(١) عن الإنكليزية .

Twitter: @abdullah_1395

سأكتب عن نفسي دونما حرج : « ماذا يهمّني من الحياة الأبدية اذا لم أعِ هذه الأبدية لحظة فلحظة ! الحياة الأبدية يمكن أن تمثل فينا منذ الآن . إننا نحياها من اللحظة التي نرتضي فيها أن نموت عن أنفسنا ، وأن نحصل منها على هذا الزهْد الذي يتيح انبعاث الأبدية فينا على الفور » .

ليس ثمة تقادم زمني ولا نظام ؛ وهذا هو ، بكل بساطة ، سرّ الغبطة السامية التي يبشرنا بها المسيح (وفي الأناجيل كافة) ، حين يقول : « فإذا عرفتم هذا ، فالطوبى لكم » (يوحنا ، ١٣ ، ١٧). لم يقل : «الطوبى ستكون لكم » ، بل « الطوبى لكم » ، ففي الحاضر ، وفي هذه اللحظة بالذات ، يمكننا أن نشارك في حَفْل الغبطة .

يا لها من سكينة ! هنا ينقطع الزمان ، هنا تتنفس الأبدية . وها نحن نلج ملكوت الله .

أجل، إن فكر دوستويفسكي ، والخُلُقية المسيحية كذلك ، كلاهما يتمحْور حول هذه النقطة الغامضة ، وهي سرّ السعادة الإلهي .

يحقق الفرد الإنتصار حين يضحّي بفرديته . فكل من يتعلّق بذاته وبالحياة يخسرهما . أما الذي يقف حياتهما موقف الإهمال ، فله الحياة الحقة طالعةً من توهج الحاضر ، لا من دخان

Twitter: @abdullah_1395

المستقبل . إنه الإنبعاث في الحياة الكلية ، ومجافاة كل سعادة فردية طلباً للتوحّد الكليّ المتكامل .

لا أدلّ على هذا التوقد الشعوري ، وهذا الكبت الفكري ، من هذا المقطع (التابع للمقطع الذي قرأته عليكم منذ حين من **المسكونون**) :

ـ تبدو سعيداً للغاية ، قال ستافروغين لكيريلوف .

ـ بالفعل أنا سعيد جداً ، أجابه هذا الأخير بلهجة جد عادية .

ـ لكنك كنت غاضباً ، منذ حين ، وتخاصمت مع ليبوتين ؟

ـ إحمْ ! في الوقت الحاضر ، هدأ غضبي . لم أكن أدركت بعد أنني كنت سعيداً . هل رأيت مرّةً ورقة ، ورقة شجر ؟

ـ نعم .

ـ مؤخراً ، رأيت ورقة صفراء يتخلّلها بعض الخضرة ، كانت متأكلة الحواشي ، ويتلاعب بها الهواء . في العاشرة من عمري ، كنت أعمد أحياناً إلى إغماض عيني ، وأتخيّل ورقة خضراء ذات عروق بارزة ، وشمساً متألقة . وحين أفتح عينيّ ، كنت أظنني في حلم ، ولجمال المشهد ، كنت أعود فأطبقهما من جديد .

ـ ما معنى هذا ؟ هل هي صورة ؟

Twitter: @abdullah_1395

ـ كـ ـ كلا . . . ولمَ ؟ أنا لا أتكلم بالرموز ، إنني أتحدث عن الورقة فحسب الورقة جميلة . كل شيء حسن .

ـ متى عرفت السعادة إذاً ؟

ـ الثلثاء الفائت ، أو الأربعاء ، ليل الثلثاء أو الاربعاء .

ـ في أية مناسبة ؟

ـ لا أذكر . كان ذلك محض مصادفة . كنت أتمشّى في غرفتي . . . لا أهمية لذلك . أوقفت البندول [1] ، وكانت الساعة تشير إلى الثانية وسبع وثلاثين دقيقة [2] .

لكن ، قد تقولون : إذا ما تغلّب الإحساس على الفكر ، واقتصرت حالات النفس على هذه الحال الغامضة ، الجاهزة ، المتروكة ، للتأثيرات الخارجية ، فهل من نتيجة لذلك غير الفوضى التامة ؟ يتردّد على ألسن البعض هذه الأيام أن هذه هي النتيجة المحتومة لمذهب دوستويفسكي . إن مناقشة هذا المذهب يمكن أن تذهب بنا بعيداً ، لأنني أعلم سلفاً ما هي الإعتراضات التي ستثار في وجهي إذا ما أكّدْت لكم أن مذهب

---

(١) رقّاص ساعة الحائط .

(٢) المسكونون ، الجزء الأول ، ص : ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

Twitter: @abdullah_1395

دوستويفسكي لا ينتهي بنا إلى الفوضى ، بل ، وبمنتهى البساطة ، إلى الإنجيل . تقضي الضرورة هنا أن نتفاهم . فالعقيدة المسيحية ، كما هي في الإنجيل ، لا تصلنا عادةً إلا « مدجّنة » عبر الكنيسة الكاثوليكية . والحال أن دوستويفسكي يمقت الكنائس ، خاصة الكنيسة الكاثوليكية . فهو يريد أن تُسْتَقى تعاليم مباشرةً من الإنجيل دون غيره ، وهذا ما لا يجيزه الكاثوليكي بأي حال .

كثيرة في رسائله هي المقاطع التي تتناول الكنيسة الكاثوليكية بالنقد . وهي من العنف والتشدّد والإنتقاد بحيث لا أجرؤ على إيرادها في هذا المقام . لكنها تكشف أمامي الطريق وترشدني إلى فهم الإنطباع العام الذي يتولّد لديّ كلما قمت بقراءة آثاره قراءة جديدة ، وهو انطباع مؤداه انني لم أعرف في حياتي كاتباً أكثر قرباً من المسيحية وأكثر بُعْداً عن الكثلكة من دوستويفسكي .

لكن الكاثوليك يرفعون الصوت : عظيم ! هذا ما قمنا بشرحه لك مراراً عديدة ، ويبدو أنك أدركته بنفسك ، وهو أن ما ورد في الإنجيل ، وعلى لسان المسيح ، معزولاً ، لا يقود إلا إلى الفوضى من هنا بالذات ، حاجتنا لبولس الرسول ، للكنيسة ، وللكثلكة جملةً .

على أي حال ، فإن دوستويفسكي ، إذا لم يقدْنا إلى

Twitter: @abdullah_1395

الفوضى ، فإلى ضرب من البوذية ، أو الطمأنينية [1] (وسنرى أن هذه ليست البدْعة الوحيدة التي يعيبها عليه الأرثوذكس) . إنه يقودنا بعيداً جداً عن روما (أعني عن الرسائل الباباوية) ، وبعيداً جداً عن الأمجاد الدنيوية .

« ولكن ، هل أنت شريف أيها الأمير ؟ تهتف إحدى الشخصيات التي تجسّد أفكار دوستويفسكي وبالتالي أخلاقيته أفضل تجسيد ، على الأقل قبل أن يأتي بصورتي إلسوشا وزوسّيما الملائكيتي في **الإخوة كارامازوف** . إلام يدعونا دوستويفسكي ؟ أإلى حياة التأمل ، حياة متحررة من إسار العقل والإرادة ، منفلتة من رباط الزمان ، لا يعرف الإنسان فيها سوى المحبة ؟

قد يرى دوستويفسكي أن حياة كهذه يمكن أن تحقق السعادة ، لكنه لا يرى في هذه الحياة غاية وجود الإنسان ؛ فما أن يصل الأمير مويشكين إلى هذه الحال السامية بعيداً عن وطنه ، حتى يستشعر حاجة ملحة للعودة إليه . وحين يُفضي إليوشا الشاب للأب زوسّيما برغبته الخفيّة في أن يعتزل الحياة في الدير ، يقول له زوسّيما : « دعْ عنك هذا التفكير ، فستكون حياتك أجدى خارج الدير . إن إخوانك بحاجة إليك » .

---

(١) Boudolhisme et quietisme .

Twitter: @abdullah_1395

يقول المسيح : « لا ، ليس أن يعتزلوا العالم ، بل أن ينجوا من الشرير » .

ألاحظ هنا(وهذا سيتيح لنا التفرّس في الوجه الشيطاني لمؤلفات دوستويفسكي) ، أن معظم ترجمات التوراة ، تنقل كلام المسيح على هذا النحو : « بل أن ينجوا من الشر » ، فالمعنى ليس واحداً . إن الترجمات التي أتحدّث عنها هي ترجمات بروتستانتية ، والبروتستانتية ليس في عقيدتها مكان لا للملائكة ولا للشياطين . ما من مرة سألت أحد البروتستانتيين على سبيل التجربة : « هل تعتقد بوجود الشيطان ؟ » إلا وكان سؤالي يقع لديه موقع التعجّب والإستغراب . وكنت أدخل في حسابي أنه سؤال لا يطرحه البروتستانت على أنفسهم . وإذا أجاب فبقوله : « بالطبع ، اعتقد بوجود الشر » . وحين أحرجه ، كان ينتهي إلى الإعتراف بأنه لا يرى في الشرّ سوى غياب الخير ، تماماً كما ينشأ الظل عن غياب النور . ثمة خلاف عميق بين هذه النظرة ونصوص الإنجيل التي تشير ، في أكثر من موضع إلى قوة شيطانية لها وجودها الفعلي ، الحاضر والمتميّز .

وهذه النصوص لا تقول : « أن ينجوا من الشر » ، بل « أن ينجوا من الشرير » . إن مسألة الشيطان تحتلّ حيّزاً كبيراً من مؤلفات دوستويفسكي . البعض يعتبر دوستويفسكي مانوياً ،

Twitter: @abdullah_1395

ونحن نعلم أن مذهب الهرطوقي الكبير « مانْس »[1] يقرّ بوجود مبدأين في هذا العام : الخير والشر ، وكلاهما فاعل ، مستقل ، ولازم ـ من هنا اتصاله المباشر بمذهب زرادشت[2] . لقد رأينا ـ وألحّ على هذه النقطة ـ أن دوستويفسكي لا ينزل الشيطان في المنطقة الدنيا من الإنسان ـ مع أن الإنسان ، كل الإنسان يمكن أن يصبح فريسة له ومأوى ـ ، بقدر ما يفسح له في المنطقة العليا ، منطقة العقل . الإغراءات التي يقدّمها لنا الشيطان هي ، في رأيه ، ذات طبيعة عقلية وعلى شكل أسئلة ، ولا أبتعد كثيراً عن الموضوع إذا ما بدأت بتفحص الأسئلة التي توقف عندها القلق الإنساني طويلاً ، وعبَّر عن نفسه من خلالها : ما هو الإنسان ؟ مصدره ؟ مآله ؟ ماذا كان قبل أن يولد ؟ ما مصيره بعد الموت ؟ ما هي الحقيقة التي يمكن أن ينشدها؟» وبدقيق العبارة : « ما هي الحقيقة ؟ » .

لكن سؤالا جديداً برز مع « نيتشه » يختلف تماماً عن غيره من الأسئلة التي ما إن تتعرض لوهجه حتى تذوب وتتلاشى ، سؤال يحمل ، هو الآخر ، قلقه الذي وصل بـ « نيتشه » حدّ

---

(١) مؤسس المانوية ، ولد في بلاد فارس ، وعاش في القرن الثالث بعد المسيح .

(٢) مصلح الديانة الإيرانية القديمة . ولد في « ميديا » عاش في القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد (المترجم) .

Twitter: @abdullah_1395

الجنون : « ما هي قدرة الإنسان عامةً ؟ ما هي قدرة إنسان بمفرده ؟ »، ويرافق هذا السؤال تصوّر حاد بأنه كان في طاقة الإنسان أن يكون شيئاً آخر ، كان في مقدوره أكثر مما كان ، ولا يزال ذلك بوسعه ، وأنه ينوي الآن ذليلاً في ظل المرحلة الأولى مهملاً السعي إلى اكتمال ذاته .

هل كان « نيتشه » هو أول من صاغ هذا السؤال ؟ « لا أجزم بذلك . إن دراسة تكوّنه العقلي تكشف أنه عرف هذا السؤال عند اليونان ، وإيطالي عصر النهضة . لكن الجواب الجاهز لدى هؤلاء هو أن الإنسان مخلوق للحياة العملية ، وقد هداهم بحثهم إلى ممارسة الفعل وإلى العمل الفني . أقول هذا وفي ذهني « ألكسندر » و« سيزار بورجيا » ، كذلك « فريدريك الثاني » و« ليوناردو دوفينتشي » و« نيتشه » . كان هؤلاء من المبدعين المتفوّقين . إن مسألة التفوق لا تشغل الفنانين والعمليين من الناس ، فحياتهم ذاتها وآثارهم انما هي الجواب المباشر عنها . يبدأ القلق حين يطرح السؤال ويبقى بلا جواب ، أو حين يتقدم السؤال الجواب بمسافة بعيدة . فالذي يترك الأفكار والتخيلات تحلّ محلّ الفعل ، يُمنى بالفشل ؛ وأستشهد من جديد بـ « وليم بلاك » في قوله : « الإنسان الذي يأمل ولا يفعل يتأكله العَفَن » ، ولهذا المرض مات « نيتشه » مسموماً .

« ما هي قدرة إنسان بمفرده ؟ » سؤال لا يطرحه سوى

Twitter: @abdullah_1395

مُلْحد ، وقد فطن دوستويفسكي إلى ذلك ، وأدرك أن نفي الله هو الذي يؤدي حتماً إلى توكيد الإنسان :

« الله غير موجود ؟ إذاً . . . فكل شيء مباح » ، نقرأ هذه الكلمات في **المسكونون** ، ثم نعود فنقع عليها في **الإخوة كارامازوف** :

إذا وجد الله ، فكل شيء يعود إليه ، ولا أملك شيئاً خارج مشيئته . واذا كان غير موجود ، فكل شيء يعود إليّ وعليّ تأكيد استقلاليتي [1] .

كيف يؤكد الإنسان استقلاليته ؟ هنا ينشب القلق . كل شيء مباح . ولكن ، ما مدى قدرة الإنسان ؟

كلما طرح أحد أبطال دوستويفسكي على نفسه هذا السؤال ، أمكننا التأكد من انهياره بعد قليل . في البدء ، يظهر راسكولنيكوف الذي يكون هو أول من ترتسم لديه هذه الفكرة التي تصبح ، مع « نيتشه » فكرة الإنسان المتفوق . وراسكولنيكوف هذا هو صاحب مقالٍ هدّام يقول فيه :

ينقسم الناس بين **عاديين وغير عاديين** . على العاديين أن يطيعوا ، ويحترموا القانون ، لأنهم عاديون . أما غير العاديين

---

(١) المسكونون ، الجزء الثاني ، ص: ٣٣٦ .

Twitter: @abdullah_1395

فلهم ملء الحق في ارتكاب كافة الجرائم وانتهاك كافة القوانين لأنهم غير عاديين

وعلى أي حال ، فقد كان هذا ما اعتقده « بروفير » تلخيصاً للمقال .

ليس هذا هو المقصود تماماً ، قال راسكولنيكوف بادئاً كلامه بصوت تشيع فيه البساطة والتواضع . لقد صوّرت فكرتي تصويراً دقيقاً إلى حد ما . . . ، وإذا أردت ، فقد كانت تصويراً دقيقاً للغاية . . (نطق هذه الكلمات بشيء من الإنشراح) . كل ما في الأمر أنني لم أقل ما نسبتموه إليّ من أن غير العاديين من الناس معنيون دائماً بارتكاب مختلف أنواع الأعمال المخالفة للقانون . واعتقد أيضاً أن الرقابة ما كانت لتترك مقالاً من هذا النوع يرى النور . إليكم ، بكل بساطة ، ما قلته : « الإنسان غير العادي يملك الحق في أن يجير لضميره تخطّي بعض الحواجز ، إذا ما كان ذلك مساعداً على تحقيق فكرته التي قد تعود بالنفع على الجنس البشري بأكمله .

. . . . . .

أذكر أنني أركّز ، في ما يلي من المقال ، على أن كافة المشرّعين ، وموّجهي الإنسانية دون استثناء ، بدءاً بالأقدمين ، كانوا مجرمين بحق القانون ، فهم ، إذا أتوا بشرائع جديدة ، انتهكوا ، بعملهم هذا القوانين القديمة التي يرعاها المجتمع بعنايته ، ويحفظها عن الجدود .

Twitter: @abdullah_1395

«من الجدير بالملاحظة أن معظم أصحاب الفضل هؤلاء ، «معظم قادة الجنس البشري ، كانوا دمويين بصورة مخيفة . «بالسليجة ، ليس العظماء فقط هم الذي تقيِّض لهم طبيعتهم الخاصة دخول خانة المجرمين ـ على تمايز في ما بينهم طبعاً ـ ، بل كل الذي ترتفع بهم طبيعتهم ، ولو بقدر ضئيل ، فوق المستوى العام ، وكل الذين يقولون جديداً للإنسانية . . . بسوى ذلك ، يصعب عليهم الخروج من النفق المظلم . أما البقاء فيه فذلك ما لا يرتضونه على الإطلاق ، وفي رأيي أن الشعور بالواجب هو الذي يمنعهم من ذلك [1] .

يقول « بلاك » : « من الظلم أن نسوس الأسد بالطريقة ذاتها التي نسوس بها الثور » .

---

(١) **الجريمة والعقاب** ، الجزء الأول ، ص : ٣٠٩ ـ ٣١٠ .
لاحظوا هنا أن راسكولينكوف لا يزال على ايمانه رغم هذه المجاهرة .
« ـ هل تؤمن بالله ؟ أعذرني على هذا الفضول .
« ـ أجل ، أؤمن بالله ، ردّد الشاب وهو يرفع نظره الى بروفير .
« ـ و . . قيام اليعازر من الموت ؟
« ـ أجل . . . لمَ تسألني كل هذه الأسئلة ؟
« ـ هل تؤمن بهذا كله حرفياً ؟
« ـ حرفياً» . (**الجريمة والعقاب** ، الجزء الأول ، ص : ٣١٢) ، وهذا ما يختلف فيه راسكولنيكوف عن سائر المتفوقين من أبطال دوستويفسكي .

Twitter: @abdullah_1395

لكنّ كون راسكولنيكوف يكتفي بطرح السؤال ، بدل أن يحلّه ببساطة الفعْل ، يكشف عن افتقاره إلى شروط التفوق . وتصبح خيبته تامة . إنه لا يتحرّر لحظة من وعيه لضآلته ، لذلك ، نراه يندفع ليبرهن لنفسه عن تفوّقه .

هنا يكمن كل شيء ، يردد في نفسه . يكفي توفّر الجرأة . منذ ما وضحت هذه الحقيقة أمامي ، ناصعة كالشمس ، قرّرت أن أتجرّأ . . . وقمت بالقتل . بكل بساطة ، أردت القيام بعمل ينمّ عن شجاعة [1] .

وبعد الجريمة :

لو كان عليّ أن أقوم بالعمل من جديد ، يضيف ، فقد لا أفعل . لكن عندها ، كان قد عيْل صبري ، بتّ لا أعرف هل أنا كائن تافه كالآخرين ، أم أنا انسان بكل ما تعنيه هذه الكلمة ؟ هل أملك في نفسي القدرة على تحطيم الحواجز أم لا ؟ هل أنا مخلوق وجِل جزع أم متمتع بحقوقي ؟ [2] .

يبقى أنه لا يتقبّل فكرة إخفاقه ، ولا يقرُّ أن إقدامه كان عملاً غير سليم .

لست حقيراً إلا لأنني أخفقت ! فلو نجحت ، لضُفرتْ

(١) الجريمة والعقاب ، الجزء الثاني ، ص: ١٦٣ .
(٢) م.ن. ، ص : ١٦٤ .

Twitter: @abdullah_1395

حول رأسي الأكاليل . أما الآن ، فلا أصلح إلا لأن ألقى للكلاب [1] .

من بعد راسكولنيكوف يأتي ستافروغين أو كيريلوف ، إيفان كارامازوف أو **المراهق** .

إن خيبة كل من هؤلاء الأبطال المثقفين تعود إلى أن دوستويفسكي ينظر إلى رجل الفكر نظرته إلى إنسان غير أهل للفعْل .

في **الروح الخفيّ** ، هذا الكتاب الصغير الذي وضعه قبل **الأزلية مريم** بقليل ، والذي أرى فيه ذروة انتاجه ، أو إذا أردتم ، مفتاح آثاره جميعاً ، تتضح أمامنا هذه الفكرة بأوجهها المختلفة : « الذي يفكّر لا يفعل . . . » ، ولا يفصله سوى خيط دقيق عن الزعْم أن كل فعل انما يفترض حدّاً معيناً من خمول العقل .

ليس هذا الكتيِّب ـ **الروح الخفي** ـ من بدايته حتى النهاية سوى حوار ذاتي . إن التأكيد على أن « جيمس جويس » ، مؤلف **أوليس** ؛ هو مبتكر هذا الشكل القصصي ، كما ذهب إلى القول مؤخراً صديقنا « فاليري لاربو » إنما هو تجاوز

---

(١) **الجريمة والعقاب** ، الجزء الثاني ، ص : ٢٧٢ .

Twitter: @abdullah_1395

للواقع . فهذا التأكيد يتجاهل دوستويفسكي ، وحتى « ادغار ألن بو » . إنه يقفز ، بصورة خاصة ، فوق « براونينغ » الذي يتبادر إلى ذهني كلما قرأت الروح الخفيّ . وأرى أن «براونينغ» و« دوستويفسكي » ينتهيان بهذا الحوار الذاتي ، دفعةً واحدة ، إلى أقصى ما يمكن أن يبلغه من الدقة والتنوع .

إن مقارنتي هذين الإسمين قد تفاجىء بعض المتأدبين ؛ لكن ، يستحيل على المرء ألاّ يقارن بينهما ، ولا يمكن إلا أن يمسّه مساً عميقاً هذا الشبه الكبير ، لا في الشكل فحسب بل في النسيج ايضاً ، بين بعض مونولوغات « براونينغ » وأقصوصة دوستويفسكي الرائعة التي ظهرت في صحيفة أديب تحت عنوان كروتكايا . لكن المشترك بين « براونينغ » و« دوستويفسكي » ، أكثر من الشكل ، وطريقة التأليف ، هو التفاؤل . وهو تفاؤل لا يدنيه من تفاؤل « غوت » سوى بعض السمات الطفيفة بينما تربطه أواصر قوية بـ « نيتشه » و« وليم بلاك » اللذين ينبغي أن أحدثكم عنهما بعد .

أجل ، إن « نيتشه » ، « دوستويفسكي » ، « براونيغ » و« بلاك » ، أربعة نجوم من الكوكبة ذاتها . لم أعرف « بلاك » إلاّ من فترة وجيزة ، ولكن حين اكتشفته ، اكتشفت فيه العجلة الرابعة لـ « العَرَبة » . وكما يستشعر عالم الفلك وجود أحد النجوم ويحدّد اتجاهه قبل رؤيته بزمن طويل ، كنت أحْدس

Twitter: @abdullah_1395

بوجود « بلاك » . هل يعني هذا أن تأثيره كان قوياً ؟ على العكس ، فلم يتصل بي أنه مارس أي تأثير . فقد لبث ، حتى الآونة الأخيرة ، شبه مجهول حتى في انكلترا . إنه كالنجم البعيد القصيّ ، كالنجم المتألّق الذي لا تزال إشعاعاته في بدء تسرّبها إلينا .

أعتقد أن قراءة بعض المقاطع من **قران السماء والجحيم** ، أعمق مؤلفاته مغزىً ، تؤهّلنا لفهم أفضل لبعض ميزات دوستويفسكي .

إن هذه الجملة لـ «بلاك » ـ وهي من « أمثال الجحيم السائرة » كما يُسمّى بعض أمثاله ـ : « الرغبة غير المقرونة بالعمل تؤدّي إلى التعفّن » ، تصلح تصديراً لرواية دوستويفسكي **الروح الخفي** ، وهذه الجملة أيضاً : « لا تنتظر من المياه الراكدة سوى السموم » .

« الإنسان العملي في القرن التاسع عشر فَرْدٌ خالٍ من الميزات » ، يصرّح البطل في **الروح الخفيّ** . الإنسان العملي ، في رأي دوستويفسكي ، ينبغي أن يكون عقيم التفكير ، لأن الفكر السامي غير مسموح له أن يعمل بنفسه . فالعمل ، بالنسبة إليه ، انتقاص ومحدوديّة . العمل هو قَدَر شخص مثل بيار ستبانوفيتش أو سمردياكوف (في **الجريمة والعقاب** ، لم يكن

Twitter: @abdullah_1395

دوستويفسكي قد ميّز بعد بين صاحب الفكر ، وصاحب الفعْل) .

صاحب الفكر لا يقوم بالعمل ، بل يَسْتعمل الآخرين له . وسوف نقع في كثير من روايات دوستويفسكي على هذا التوزيع الفريد للأدوار ، هذه الصلة المحيِّرة ، وهذا التضامّ الخفيّ الذي ينشأ بين كائن يفكّر ، والكائن الذي يُنْجز بوحي منه ، وكأنه يُنْجز عنه . تذكروا إيفان كارامازوف . سمردياكوف ، ستافروغين ، وبيار ستبانوفيتش ، هذا الذي يدعوه ستافروغين « بديله » .

أليس عجيباً أن نقع في الجريمة والعقاب ، أولى روايات دوستويفسكي الشهيرة ، على ترجمة أولى للعلاقات الفريدة بين المفكر ايفان والتابع سمردياكوف ، بطلي روايته الأخيرة ، الإخوة كارامازوف ؟ إذ يحدّثنا فيها عن شخص يدعى فيلكا تابع لسفيدريغايلوف ، شنق نفسه لا ليتخلّص من عصا سيده ، بل من هزئه به وسخريته منه . « لقد كان سوادوي الطبع » ، من صنف الخادم ـ الفيلسوف . . . . « لقد ادّعى رفاقه أن القراءة بلبلت فكره [1] » .

إن كافة هؤلاء التابعين ، هؤلاء « البدلاء » والخدم الذين

---

(١) الجريمة والعقاب ، ج٢ ، ص : ١٠ و٢٤ .

Twitter: @abdullah_1395

يعملون نيابة عن المثقفين ، يقفون بمحبة وورع أمام التفوّق الجهنميّ للفكر . إن الحظوة التي يلاقيها ستافروغين في عيني بيار ستبانوفيتش لعظيمة . وعظيم أيضاً الإحتقار الذي يحظى به هذا « الدُوْن » في عيني المثقف .

هل تريد أن أخبرك الحقيقة كاملة ؟ يقول بيار ستبانوفيتش لستافروغين . كما ترى ، فإن هذه الفكرة قد خطرت لحظة على فكري (جريمة قتل شنيعة) . أنت نفسك أوحيتها إليّ ، دونما اكتراث منك بالطبع ، وانما فعلت ذلك لتزرع في نفسي الغيرة فحسب ، فأنت لم تكن جاداً حين أوحيت بها إليّ [1] .

أثناء احتدام النقاش ، اقترب بيار ستبانوفيتش من ستافروغين وأمسكه من ثنية معطفه (ربما عن عمد) ، لكن ضربة قوية على ذراعه أجبرته على التراجع .

ـ ماذا تفعل . انتبه ، ستحطّم ذراعي [2] (كان ايفان كارامازوف يواجه سمرديا كوف بأعمال غظّة من هذا النوع) .

وفي موضع آخر :

تكلم ، نيكولا فسفولودوفيتش ، وكأنك أمام الله يوم

---

(١) المسكونون ، ج ٢ ، ص : ٢٢٢ .
(٢) م.ن. ، ص : ٢٢٣ .

Twitter: @abdullah_1395

الدينونة : هل أنت مذنب أم لا ؟ أقسم أنني أثق بكلامك ثقتي بكلام الله ، وسأصحبك إلى آخر الدنيا ، أجل ! سأذهب معك إلى حيث تشاء ، سأتبعك ككلب [1] . . . .

وأخيراً :

أعلم أنني بهلول ، غير أنني لا أرضى أن تحسب أنت ، القطعة الفضلى من ذاتي ، واحداً من البهاليل [2]

يجد المثقف غبطة في السيطرة على الآخر ، لكنه ، مع ذلك ، يبقى مغتاظاً منه لأنه يرى في عمله القاصر تشويهاً لفكره .

تلقي رسائل دوستويفسكي الضوء على مصادر مؤلفاته ، خاصة كتابه المدهش المسكونون ،الذي اعتبره ذروة ما توصّل إليه دوستويفسكي من قدرة وروعة . نحن هنا أمام ظاهرة أدبية جدّ فريدة . لم يكن هذا هو الكتاب الذى كان في نيّة دوستويفسكي إنتاجه. فأثناء الكتابة، قفزت إلى ذهنه شخصية جديدة ، لم تكن واردة حتى ذلك الحين ، وأخذت تحتل شيئاً فشيئاً المقام الأول مكان البطل الأصلي الذي توارى عن حَلَبة الأحداث . « ما من عمل كلّفني مثل هذا العناء » ، يكتب في تشرين الأول ، ١٨٧٠ من درسد [3] .

---

(١) م.ن. ، ص : ٢٢٣ .

(٢) المسكونون ، جزء ٢ ، ٢٣٢ .

(٣) الرسائل ، ص : ٢٨٣ .

Twitter: @abdullah_1395

في البدء ، أي قبل نهاية الصيف المنصرم بقليل ، كنت اعتبر هذا الأمر مدروساً ومنتهياً . وكنت أنظر إليه بازدراء . ثم يأتيني الإلهام الحقيقي ، فإذا بي أتعلّق بهذا الأثر فجأة ، وأتشبث به بكلتا يدي ؛ فأروح أزيل كل ما كنت سطرته فيه من قبل . هذا الصيف ، طرأ تغيّر آخر ؛ شخصية جديدة شقّت طريقها محاولةً الوصول إلى دور **البطولة الرئيسية** للقصة ، بحيث يتراجع البطل الرئيس إلى المرتبة الثانية . كانت شخصيةً مهمة ، لكن ، دون مرتبة البطولة . سحرني البطل الجديد كلياً حتى أنني انكببت مرةً أخرى على إعادة النظر في الأثر جملةً (الرسائل ، ص: ٣٨٤) .

هذه الشخصية الجديدة التي يمنحها الآن كل اهتمامه هي ستافروغين ، أغرب شخصيات دوستويفسكي وأكثرها رهبة . في نهاية الكتاب ، يفصح ستافروغين عن نفسه ؛ يندر جداً أن تلزم شخصيات دوستويفسكي الصمت حول سرّ طبعها ، فلا تفلت منها بين لحظة وأخرى ، وعلى حين غرة ، بعض الجمل ـ المفاجآت . وهذا ما يقوله ستافروغين عن نفسه :

ما من شيء يشدّني إلى روسيا ، حيث أشعر بالغربة كما في أي بلد آخر . الحقيقة أنني وجدت الحياة هنا (في سويسرا) ، صعبة الإحتمال ، أكثر من أي مكان آخر ، لكني حتى هنا ، لم أستطع أن أكره شيئاً . ومع ذلك ، وضعت قوتي تحت

Twitter: @abdullah_1395

الإختبار . لقد نصحتني أنت بهذا (لكي اتدرّب على التعرّف إلى نفسي) . وقد اكتشفت في نفسي ، من خلال هذه التجارب ومن خلال حياتي السابقة ، قوةً هائلة . لكن كيف أستعمل هذه القوة ، وعلى أيّ شيء أمارسها ؟ هذا ما لم أعرفه مطلقاً ، وما زلت أجهله حتى الآن . بوسعي اليوم ، كما في الماضي ، إبداء الرغبة في الإتيان بعمل خيرٍ ، وأشعر بالغبطة من ذلك ، كذلك ، تساورني الرغبة في الشرّ ، وأستشعر الرضا أيضاً[1] .

سنعود ، في محاضرتنا الأخيرة ، إلى النقطة الأولى من هذه الإبانة ذات الأهمية القصوى في نظر دوستويفسكي : عدم تعلّق ستافروغين بوطنه . يكفي اليوم أن نتنبّه إلى هذا الجذْب المزدوج الذي يحيِّر ستافروغين :

يلح على كل إنسان ، يقول بودلير ، جاذبان متزامنان : واحد يشدّه إلى الله ، وآخر إلى الشيطان .

إنّ ما يهواه ستافروغين أساساً هو التطرُّف . ونسأل « وليم بلاك » تفسير هذا الطبع الغامض فيجيب : « التطرف هو وحده الحياة ، إنه النعيم الأبدي » .

لنستمع بعد إلى بعض هذه الحِكم : « درْب الغلوّ تقود إلى

---

(١) المسكونون .

Twitter: @abdullah_1395

صَرْح الحكمة » ، « إذا ثابر المجنون على جنونه صار عاقلاً » ، « الوحيد الذي يعرف القناعة هو ذلك الذي عرف قبلها الإسراف » . هذا التمجيد للغلوّ يتخذ عند « بلاك » أشكالاً في غاية الإختلاف : « زئير الأسد ، عواء الذئب ، هياج البحر والسيف البتّار هي قطع هائلة من الأبدية أضخم من أن تدرْكها العين البشرية .

لنقرأ أيضاً : « للحوض أن يمتلىء ، وللنبع أن يفور » ، و« ثمور الغضب أعقل من أحصنة المعرفة » ، وأخيراً هذه الفكرة التي يفتتح بها دوستويفسكي كتابه عن النعيم والجحيم ، والتي يأخذها عن الغير دون أن يدري : لولا التناقض ما كان تقدم : التجاذب والتدافع ، التعقّل والتهوّر ، الحب والبغض ، كلها أمور ضرورية للوجود الإنساني». وفي موضع آخر : « يتنازع الأرض الآن ، وسيتنازعها على الدوام ، هذان القطبان المتنافران اللذان لا يمكن أن يجتمعا ، والسعي إلى جمعهما هو بمثابة السعي إلى تدمير الوجود » .

أضيف إلى حكم الجحيم هذه لـ « وليم بلاك » اثنتين من عندي : « المشاعر السامية تأتي بالأدب الرديء »، « لا وجود لأثر فني دون مشاركة الشيطان فيه » . أجل ! كل أثر فني إنما هو بؤرة احتكاك ، أو هو ، إذا أردتم ، خاتم زواج يربط الأجواء العليا ، بالأجواء السفلى . ومما يقوله « وليم بلاك » أن

Twitter: @abdullah_1395

« السبب في كون « ميلتون » يصف الله والملائكة وهو في حالة ضيق ، وفي أجواء الحرية يصوّر الأبالسة والجحيم ، هو أنه كان شاعراً حقيقاً ، ومن حزب الشيطان دون أن يدري» .

ثمة فكرتان كانتا تضغطان على فكر دوستويفسكي في آن معاً : بشاعة الشر ، وضرورة وجوده (أعني بالشر الألم أيضاً) . كلما قرأت دوستويفسكي ، يحضرني مَثَلُ سيّد الحقل : « قال له أحد الخدّام : أتريد أن نذهب ونجمعه (أيْ الزؤان) ؟ فأجابه السيّد : لا دعوهما ينبتان جميعاً (القمح والزؤان) إلى الحصاد » .

أذكر أنني ، منذ أكثر من سنتين ، حين التقيت «والتر راتنو» الذي جاء للقائي في بلد محايد وأمضى معي يومين ، أخذتُ استفسره رأيه في الأحداث المعاصرة ، خاصة رأيه في البولشفية والثورة الروسية . كان جوابه أنه تألّم بالطبع للتجاوزات التي ارتكبها الثوريون ، وأنها كانت رهيبة . . . لكنه قال : « صدقني ، إن الشعب ، أي شعب ، والفرد ، أي فَرْدٍ ، لا يعي ذاته ما لم يغرق في لجة الألم ، وفي مستنقع الخطيئة » .

وأضاف : « ولأن أميركا لم تعرف الألم ولا الخطيئة ، فليس لها ذات »

وهذا ما يدفعني إلى القول أن انحناء زوسّيما أمام ديمتري ،

Twitter: @abdullah_1395

وراسكولنيكوف أمام سونيا ، ليس انحناءً أمام الألم فحسب ، بل وأمام الخطيئة أيضاً .

لا نقعنّ في خطأ إساءة الفهم . لذلك ، أكرر القول أن دوستويفسكي ، ولو أنه طرح مسألة الإنسان المتفوق بوضوح ، ولو كانت هذه الفكرة تطلّ برأسها من رواياته كافة ، فإن الغَلَبة ، في النهاية ، هي لحقائق الإنجيل . لا يمكن لدوستويفسكي أن يتصوّر طريقاً للخلاص غير طريق نكران الذات . لكنه يوحي ، من ناحية ثانية ، بأن الإنسان يكون أقرب ما يكون إلى الله ، حين يصل به الضيق إلى أقصى الحدود . عندها ، تنبجس هذه الصرخة : « إلهي ، أين الملاذ ؟ كلمتك هي الحياة الابدية » .

إنه يدرك أن هذه الصرخة لا يمكن أن تصدر عن إنسان مستقيم ، يعرف سبيله ويؤدي واجبه تجاه نفسه وتجاه الله ، بل عن إنسان ضلّ السبيل ! « قال مارملادوف لراسكولنيكوف : هل تدري ما معنى ألاّ يجد الإنسان سبيلاً يسلكه؟ لا ، إنك لا تزال عاجزاً عن إدراك هذا الأمر[1] » . وحين يتجاوز راسكولنيكوف غمّه والجريمة ، حين يتجاوز عقابه بالذات ويعتزل

---

(١) الجريمة والعقاب ، ج ١ ، ص : ٢٠ .

Twitter: @abdullah_1395

المجتمع ، عندها ، وعندها فقط ، يجد نفسه وجهاً لوجه أمام الإنجيل .

لا شك أن هناك بعض الغموض يحيط بكل ما حدثتكم به اليوم . . . لكن دوستويفسكي يشاطرني المسؤولية في ذلك . يقول « بلاك » : « نخطّ لنا الثقافة طرقاً مستقيمة ، أما الطرق المتعرّجة فتلك طرق العبقرية بالذات » .

على أي حال ، كان دوستويفسكي على اقتناع تام ـ وإنني لكذلك ـ ، بأن حقائق الإنجيل لا لَبْس فيها ولا غموض ، ـ وهذا هو المهم .

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

(٦)

أُحسّني مثقلاً بعبء الأمور التي عليّ بعْدُ أن أحدثكم عنها ، نظراً لوفرتها وأهميتها . ذلك أن كلامي على دوستويفسكي هنا ، وهذا ما أدركتموه جيداً منذ البدء ، ليس ، في الغالب ، سوى مناسبة للتعبير عن أفكاري الخاصة . وأعتذر أيضاً إذا كنت ظننت ، والحالة هذه ، أنني خطّأت أفكار دوستويفسكي ؛ ولكن لا . . . كل ما في الأمر أنني ، مثل نحلات « مونتانيه » ، انتخب من مؤلفاته ما يناسبني من شَهْد . مهما كانت الصورة مطابقة للأصل ، فإنها تحمل دائماً من ذات الرسّام ما يكاد يوازي ما تأخذه عن الأصل . لكن الأصل يبقى الأكثر بهاءً وروعةً ، وهو الذي يفسح المجال أمام التشابهات الزاخرة بالتنوع ، وينسحب على أكبر عدد ممكن من الرسوم . وقد وقفت أمام دوستويفسكي منقّباً في قسماته ، وها أنا أشعر أنني لم استنفد أوجهها جميعاً .

إلى ذلك ، فأنا مثقل بكثرة التعديلات التي عليّ أن أدخلها على محاضراتي السابقة ؛ فما أن كنت أنهي إحداها حتى يحضرني

Twitter: @abdullah_1395

للتوّ ما غفلت عن ذكره ، وما منّيت النفس بقوله .

وهكذا ، فإنني كنت أودّ ، السبت الماضي ، أن أشرح لكم كيف أن **المشاعر السامية تأتي بالأدب الرديء** ، وكيف أنه لا **وجود لأثر فني دون مشاركة الشيطان فيه** . فهذا الذي أراه أنا بديهياً ، قد ترونه أنتم منافياً للمنطق ، ويستلزم بعض الشرْح (أنا أمقت المفارقات مقتاً شديداً ، ولا أبحث عن المفاجأة ، غير أنني لا أجد حاجة للكلام اذا لم يكن لدي جديد أقوله ، مهما كان ضئيلاً ، وكل جديد يبدو دائماً بعيداً عن التصديق) .

وقد استقرّ الرأي عندي ، لكي أعينكم على تقبّل هذه الحقيقة ، أن ألفت انتباهكم إلى صورة كل من القديس « فرنسوا الأسّيزي » وأنجليكو . فإذا قيّض لهذا الأخير أن يحتل مرتبة عالية في عالم الفن ـ وقد اخترتُ كمثل لا يضاهي الصورة الأنقى في تاريخ الفن ـ ، فلأن فنه ، على الرغم من نقاوته ، كان عليه ، لكي يرقى إلى هذه المرتبة ، أن يرتضي إسهام الشيطان فيه . ما من أثرٍ فني إلا وللشيطان فيه أثر ، القديس هو « فرنسوا الأسيزي » ، لا « أنجليكو » . . لا فنّ مع القديسين ، ولا قداسة مع الفنانين.

الأثر الفني أشبه بقارورة مختومة على الطيْب الذي فيها . أتلو عليكم ، بهذا الصدد عبارة « بلاك » المدهشة : السبب في أن

Twitter: @abdullah_1395

« ميلتون » كان يرسم صورة الله والملائكة وهو في حال الضيق ، ويرسم صورة الأبالسة والجحيم وهو في أجواء الحرية ، هو أنه كان شاعراً حقاً ، ومن حزب الشيطان دون أن يدري » .

ثمة عوامل ثلاثة أساسية تدخل في نسيج كل أثر فني ، وهي الإشتهاءات الثلاثة التي تكلّم عليها الرسول : « شهوة العين ، شهوة الجسد والكبرياء » . تذكروا الكلمة التي قالها « لاكورديير » حين كان الناس يهنّئونه بالخطبة الرائعة التي فرغ لتوّه من إلقائها : « قد سبقكم الشيطان إلى ذلك » . ما كان الشيطان ليقرّ له بجمال الخطْبة ، لو لم يكن مشاركاً فيها بنفسه .

بعد أن ينتهي ديمتري كارامازوف من تلاوة قصيدة **نشيد إلى الفرح** لـ « شيلر » ، يهتف :

الجمال ، أي شيء مُرْعب هو الجمال ، أي شيء مخيف . على أرض الجمال ، يدخل الشيطان في صراع مع الله . أم ساحة المعركة فهي قلب الإنسان[1] .

لم يُفْرد فنانٌ للشيطان حيّزاً أجمل من ذاك الذي أفرده له **دوستويفسكي** في مؤلفاته ، باستثناء « بلاك » وحده الذي كان يقول ـ وهذه الجملة ينهي بها كتيّبه الرائع **قران السماء والجحيم** :

(١) الإخوة كارامازوف ، ج٣ ، ص: ٣ . (عن الترجمة الألمانية) .

Twitter: @abdullah_1395

هذا الملاك الذي تحوّل الآن إلى شيطان ، هو صديقي المقرَّب : غالباً ما كنا نقرأ التوراة سوياً حسب معناها الجهنمي أو الشيطاني ، المعنى ذاته الذي يكشف عما إذا كان الناس يسلكون المسلك الحسن .

كذلك تنبهت حال خروجي من هذه القاعة ، أنني ، حين تلوت عليكم بعضاً من حكم الجحيم المذهلة لـ « وليم بلاك » غاب عني أن أقرأ لكم ، بنصّه الكامل ، المقْطع الذي يبرّر ذكر هذه الحكم كما ورد في المسكونون . اسمحوا لي إذاً أن أعوّض هذا النسيان . ثم إن ما يمكن أن يحظى بإعجابكم ، في هذه الصفحات ، إنما هو هذا الدَمْج (وهذا الإختلاط) بين مختلف العناصر التي كنت أنوي الإشارة إليها في محاضرتي السابقة . أول هذه العناصر : التفاؤل ، هذه المحبة الشرسة للحياة ـ وهذا ما نجده في مؤلفاته كافة ـ ، محبة الحياة والكون بأسره ، ومحبة « هذا العالم الزاخر بالمباهج » الذي يتكلم عنه « بلاك » ، والذي يتسع صدره للذئب كما يتسع للحمل [1] .

ـ هل تحب الأولاد ؟

ـ أحب الأولاد ، أجل ! أجاب كيريلوف غير مكترث .

ـ إذاً ، فأنت تحب الحياة أيضاً ؟

---

(١) المسكونون ، ج ١ ، ص : ٢٥٦ وما يليها .

Twitter: @abdullah_1395

- أجل ، أحب الحياة ايضاً ، وهل في هذا ما يدعو إلى الدهشة .

- لكنك مصمِّم على الإنتحار .

لقد رأينا كذلك ديمتري كارامازوف على استعداد لأن يقتل نفسه في حُمّيا نوبة تفاؤل ، تحمله على ذلك الحماسة ولا شيء غير الحماسة :

- لماذا ، إذاً ، الخلْط بين أمرين مختلفين .
الحياة موجودة ، والموت ليس له وجود .

- تبدو في منتهى السعادة يا كيريلوف ؟

- بالفعل ، إنني في غاية السعادة ، أجاب هذا الأخير بلهجة جدّ عادية .

- لكنك كنت سيء المزاج ، منذ قليل ، وتخاصَمْتَ مع ليبوتين ؟

- إحِمْ . الآن ، هَدَأت ثورتي . لم أكن أدري عندها أنني كنت سعيداً . . . يشقى الإنسان لأنه لا يعرف أنه سعيد ، لا لأي سبب آخر . من يعرف أنه سعيد يصبح عظيماً في اللحظة ذاتها . كل شيء حسن ، اكتشفت هذا الأمر فجأة .

Twitter: @abdullah_1395

ـ والموت من الجوع ، واغتصاب ابنة صغيرة ، هل هذا حسن أيضاً ؟

ـ أجل ، كل شيء حسن لكل من يعرف أنه كذلك .

لا تلتبسنَّ عليكم هذه القسوة الظاهرة التي تتجلّى بين حين وآخر في مؤلفات دوستويفسكي ، فهي بعض من مذهبه الصوفي ، الشبيه بمذهب « بلاك » هذا المذهب الذي دفعني إلى القول أن مسيحيّة دوستويفسكي أقرب إلى آسيا منها إلى روما ، مع أن هذا التقبّل للغلّو لدى دوستويفسكي ، الذي يصبح مع « بلاك » تمجيداً ، هو ذو أصل غربي أكثر مما هو من أرومة شرقية .

لكن « بلاك » و« دوستويفسكي » ، كليهما ، مبهوران بحقائق الإنجيل . أقول هذا لئلا يُظنّ أن هذه القسوة هي مرحلة انتقالية ونتيجة عابرة لحالة يأسرها الضلال لا تلبث أن تزول .

إننا نشوّه حقيقة « بلاك » إذا قَصَرْنا بحثنا على إظهار جانبه القاسي . ففي مقابل **حكم الجحيم** المرْعبة التي أتيت على ذكرها ، أودّ لو أقرأ عليكم قصيدةً له ، قد تكون أجمل ما في ديوانه **أغنيات البراءة** ـ لكن كيف أجرؤ على ترجمة شعر بهذه الشفافية ـ حيث يبشّر بزمن تتوفّر فيه قوة الأسد على حماية ضعف الحمل والسهر على القطيع .

Twitter: @abdullah_1395

كذلك ، إذا ما تابعنا قراءة الحوار المدهش في رواية **المسكونون** ، نسمع كيريلوف يضيف :

ليسوا أخياراً طالما هم يجهلون أنهم كذلك . إذا أدركوا ذلك ، فإنهم لن يغتصبوا القاصرات مرة أخرى . يجب أن يعرفوا أنهم أخيار ، وللحال يصبحون كذلك بلا استثناء [1] .

ثم يتصل الحوار ، فإذا نحن أمام فكرة فريدة عن الإنسان الإله .

ـ وأنت الذي يعلم ذلك ، هل أنت من الأخيار ؟

ـ أجل .

ـ على أي حال ، إنني أشاطرك الرأي في هذا . تمتم ستافروغين وهو يفرك عينيه .

ـ ذاك الذي يُعْلم الناس أنهم أخيار ، هو من ينتهي به العالم .

ـ الذي أعلمهم بذلك سمّروه على الصليب .

ـ سوف يعود ، وسيكون اسمه الإنسان ـ الإله .

ـ الإله ـ الإنسان ؟

ـ الإنسان ـ الإله ؛ ثمة فرق .

---

(١) **المسكونون** ، ج ١ ، ص : ٢٥٨ .

Twitter: @abdullah_1395

فكرة الإنسان ـ الإله الذي يَعْقب **الإله ـ الإنسان** ، تقودنا إلى « نيتشه » . هنا أيضاً أودّ أن أدخل بعض التصويب على نظرية « الإنسان المتفوق » متحدّياً بذلك الرأي السائد . اذا كان شعار المتفوّق لدى « نيتشه » ـ وهذا ما يتيح لنا تمييزه عن المتفوّق في نظر راسكولنيكوف وكيريلوف ـ : « كن قاسياً » ، وهو الشعار الذي يكثر وروده كما يكثر الخطأ في فهمه ، فليست هذه القسوة موجّهة ضد الآخرين ، بل ضد نفسه ، والإشفاق الذي يتوق إلى تجاوزه هو الإشفاق على نفسه بالذات . باختصار : إن منطلق كل من « نيتشه » و« دوستويفسكي » واحد . لكنهما يصلان إلى نتيجتين مختلفتين ، بل متناقضتين ، « نيتشه » يطرح تأكيد الذات ، كهدف للحياة ، بينما يسوّغ دوستويفسكي الخضوع ، وحيث يستشرف « نيتشه » ألق الذروة لا يرى دوستويفسكي سوى السقوط .

اطّلعت على هذه الأمور في رسالة لأحد الممرضين يمنعني تواضعه من ذكر اسمه . كان ذلك في أحلك أيام الحرب ؛ لم تكن الحياة ، في عينيه ، سوى آلام مبرِّحة ، ولم يكن يطرق سمعه سوى عبارات اليأس . كتب يقول : « آه ! لو تمكّنوا فقط من إعطاء آلامهم » .

في هذه الصرخة من الوضوح ما لا يسمح باعطائها أي تفسير . سأقرنها فقط بهذه الجملة من **المسكونون** .

Twitter: @abdullah_1395

حين تروي دموعك الأرض ، حين تستدّر دموعك بنفسك ، تتلاشى كآبتك في الحال ، وتجد نفسك العزاء كله [1] .

نحن هنا أقرب ما نكون إلى « الإنقياد الوديع التام » الذي يحدّثنا عنه « باسكال » ، والذي جعله يهتف : « أيها الفرح ، أيها الفرح ، ابكِ من الفرح ! » .

حالة الفرح هذه لدى دوستويفسكي ، ليست هي التي يدعونا إليها الإنجيل . وهذه الأخيرة هي الحالة التي يتيح لنا ما أسماه المسيح الولادة الجديدة أن نلج أجواءها ، هي هذه الغبطة التي لا سبيل إليها إلا بنكران كل ما هو فردي فينا ، لأن التعلّق بالذات هو الذي يصرفنا عن الأبدية ، وعن الدخول في ملكوت الله والمشاركة في الإحساس الغامض . بنبْض الحياة الشاملة .

الحصيلة الأولى لهذه الولادة الجديدة هي عَوْدة الإنسان إلى طور الطفولة : « إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الصبيان ، فلن تدخلوا ملكوت السماوات » . وأتلو عليكم ، في هذا السياق ، هذا القول لـ « لابروبير » : « لا ماضٍ للأولاد ولا مستقبل ؛ إنهم يحيون في الحاضر » ، وهذا ما لا يقوى البالغ على فعله .

---

(١) المسكونون ، ج ١ ، ص : ١٤٨

Twitter: @abdullah_1395

« قال مويشكين لروغوجين : يخيّل إليّ أنني أدركت ، في هذه اللحظة الغاية من كلمة الرسول الرائعة : « لن يكون ثمة زمن » .

إن هذه المشاركة المباشرة في الحياة الأبدية علّمنا إياها الإنجيل حيث أن عبارة « منذ الآن » تتردّد باستمرار ، فحالة الفرح التي يحدّثنا عنها المسيح ليست في المستقبل بل في الحاضر .

ـ هل تؤمن بالحياة الأبدية في العالم الآخر ؟

ـ كلا ! بل بالحياة الأبدية في هذا العالم . تمرّ بك لحظات تشعر فيها أن الزمن توقّف فجأة مخلياً العالم للأبدية .

وقبل نهاية المسكونون بقليل ، يعود دوستويفسكي إلى حالة الغبطة هذه التي يتوصّل إليها كيريلوف .

لنقرأ هذا المقطع الذي يتيح لنا التعمّق أكثر في فكر دوستويفسكي ، ويمكّننا من عرض إحدى أهم الحقائق التي عليّ بعد أن أحدثكم عنها[1] :

ـ ثمة لحظات ـ لا تدوم أكثر من خمس أو ست ثوان متتالية ـ تشعر فيها فجأة بحضور الإنسجام الأبدي . ليست هذه الظاهرة أرضية ولا هي سماوية ، بل هي شيء فوق طاقة

---

(١) المسكونون ، ج ١ ، ص : ٣٠٣ .

Twitter: @abdullah_1395

الإنسان في «غلافه» الأرضي. على الإنسان أن ينمو فيزيولوجياً أو يموت. إنه اتجاه جليّ لا يمكن دفعه. ترى نفسك، على حين غرّة، على احتكاك مع الطبيعة، كل الطبيعية، فتقول: «أجل، هذا حق. عندما خلق الله العالم قال، في آخر كل يوم من أيام الخلق: «أجل، هذا حق، هذا حسن». ليس هذا تعطّفاً بل إنه الفرح. إنك لا تغفر شيئاً لأنه لا وجود قطّ لما تغْفره؛ إنك لا تشعر بالمحبة كذلك. لأنه شعور أعمق من المحبة. وأرهب ما فيه ذلك الوضوح المرعب الذي يتبدّى فيه، والفرح الذي يغمرك به. فإذا استمرّت هذه الحال أكثر من خمس ثوانٍ، تعجز النفس عن تحمّلها وتغيب عن الوعي. في أثناء هذه الثواني الخمْس، أعيش وجوداً إنسانياً بأكمله، وهو الوجود الذي أهب من أجله حياتي كلها، وهذا ليس بالكثير. إن احتمال هذه الحالة عشرثوان يستلزم حصول تحوّل جسماني، أظنّ أن على الإنسان أن يكفّ عن الإنجاب؛ فلم الأولاد، لِمَ التطور ما دامت الغاية مُحقّقة؟

ـ كيريلوف، هل يتم لك ذلك بكثرة؟

ـ مرة كل ثلاثة أيام، مرة في الأسبوع.

ـ هل أنت مصاب بداء النقطة؟

ـ كلا.

Twitter: @abdullah_1395

ـ ستصاب به إذاً . كيريلوف ، كن حذراً .

سمعت من يقول أن أعراض هذا المرض تكون على هذا النحو . لقد تحدّث أمامي أحد المصابين بهذا الداء بتفصيل عن الإحساسات التي تسبق الإصابة ، وحين كنت تتكلم ظننت أنني استمع إليه . حدّثني هو الآخر عن الثواني الخمس ، وقال إنه من المستحيل احتمال هذه الحالة وقتاً أطول . . .

في رواية **الأبله** ، نرى الأمير مويشكين كذلك ـ الذي تردُ عليه ، هو الآخر ، حالة النشوة هذه ـ يردّ هذه الحالة إلى عوارض الصرع الذي يلمّ به .

وهكذا ، فإن مويشكين مصروع ، كيريلوف مصروع وسمردياكوف مصروع ؛ ففي كل مؤلفات دوستويفسكي الشهيرة ، نقع على شخصية مصابة بهذا الداء : نعلم أن دوستويفسكي كان هو نفسه فريسةً لها . لذا ، فإن الإلحاح على تلقيح رواياته به ، يكشف ، كفاية ، عن الدور الذي ينسبه إلى المرض في تكوين أخلاقيته ، ورسم أفكاره .

إذا أوغلنا في الإستقصاء حول جذور كل إصلاح خلقي عظيم ، نجد دوماً سرّاً فيزيولوجياً تافها ، كشهوة في الجسد ، أو قلقٍ ، أو نقص في التكوين . هنا ، اعتذر عن استشهادي

Twitter: @abdullah_1395

بنفسي ، لأنني لن أتمكن من التحدث عن المعنى نفسه بأوضح من الكلمات التي استعملتها له في السابق [1] .

من الطبيعي أن يكون كل إصلاح خلقي عظيم ، وهو ما كان « نيتشه » يدعوه انقلاب القيم ، ناجماً عن خلل فيزيولوجي . في الحياة الوادعة ، يرتاح الفكر . وطالما هو راضٍ عن الحالة الراهنة للأمور ، فأمر تغييرها غير وارد بالنسبة إليه (أعني هنا الحالة الداخلية، لأن باعث المصلح إلى إصلاح الحالة الخارجية أو الإجتماعية مختلف تماماً ، الحالة الأولى عملية كيميائية ، أما الثانية فعملية ميكانيكية) . دوماً ، وراء كل حركة إصلاح ، انزعاج من شيء ما . وضيق المصْلح مبعثه غياب التوازن الداخلي . فالمعايير والإتجاهات والقيم الخُلُقية هي ، في نظره ، شاذة، لذا ، فإنه يعمل على إصلاحها ، وغايته أن يصل إلى توازن جديد ، وعمله ليس سوى إعادة تنظيم للفوضى الداخلية ، حسب منطقه الخاص ومعاييره الخاصة . لأن غياب التنظيم ، بالنسبة إليه ، حالة لا تطاق . ومن ثمّ ، فأنا لا أقصد بالطبع أن كل صاحب اختلال داخلي مُصْلح بالضرورة ، بل إن كل مصلح ، لكي يكون مصلحاً ، إنما هو صاحب اختلال .

لست أدري اذا كنا نعثر على مصلح واحد من هؤلاء الذين

---

(١) مختارات ، ص: ١٠١ .

Twitter: @abdullah_1395

يطرحون معايير جديدة للإنسانية ، ولا نكتشف فيه ما يسمّيه « بينه ـ سانغله » عاهة [1] .

« محمد » كان مصاباً بالصرع ، وكذلك أبناء اسرائيل و« لوثر » و« دوستويفسكي » . « سقراط » كان له شيطانه ، و« بولس الرسول » كان له « الشوكة الخفيّة في اللحم » ؛ كان لـ « باسكال » هاويته ولـ « نيتشه » و« روسّو » خبالهما .

أسمعكم تقولون : « ليس هذا بالجديد . إنها نظرية « لومبروزو » ، أو نظرية « نوردو » التي تقول إن العبقرية انما هي عُصاب [2] » . كلاّ كلا ! لا تتسرّعوا في الفهم ، بل دعوني أوضح هذه النقطة المهمة جداً :

ثمة عبقريات سليمة من كل اعتلال مثل « فيكتور هيجو » : إن التوازن الداخلي الذي ينعم به يريحه من المشاكل . أما « روسّو » فإذا نزعنا عنه جنونه ، لا يبقى منه سوى نسخة ممسوخة عن « شيشرون » . لا يقولنّ أحدٌ : « مؤسفٌ أن يكون « روسّو » مريضاً ! » ، فلولا مرضه لما حاول أبداً حلّ المشكلة

---

(١) « بينه ـ سانغله » هو مؤلف كتاب في الإلحاد عنوانه : جنون يسوع المسيح ، يرمي فيه إلى نكران أهمية المسيح والمسيحية مبرهناً أن المسيح انما كان مخبولاً وصاحب عاهة فيزيولوجية .

(٢) Névrose .

Twitter: @abdullah_1395

التي يطرحها كونه غير سويّ ، ولما حاول إيجاد التناغم الذي لا يلغي اعوجاجه هو . لا شك أن هناك مصلحين أسوياء ، لكن هؤلاء هم من المشرّعين . إن الذي ينعم بتوازن داخلي تام ، يمكنه أن يقوم بالإصلاح ، لكنه سيكون إصلاحاً خارجياً : إقامة الشرائع . أما الشاذ ، غير السويّ ، فيفلت من كل الشرائع المقرَّة سلفاً .

إن دوستويفسكي ، آخذاً العبْرة من وضعه الخاص ، يفترض وجود حالة مرضية تولِّد صيغة حياة مختلفة تحيا بها الشخصية المعنية مدةً من الزمن .

مَثَلُنا على مِثْل هذه الحال هو كيريلوف ، الشخصية التي ترتكز اليها كل العقْدة في **المسكونون** . نحن نعلم أن كيريلوف سينتحر ، ولسنا نعلم اذا كان سيفعل ذلك حالاً ، غير أن النيّة متوفّرة . لماذا ؟ لا يتضح لنا هذا الأمر إلا حين يقارب الكتاب نهايته .

ـ أن تقضي على نفسك بالموت ، فتلك نزوةٌ لا أدرك لها سبباً ، ولست من أقحمها في رأسك ، قال له بيار ستبانوفيتش [1] . كانت هذه الفكرة في رأسك قبل أن تتعرّف إليّ . وإفصاحك عنها للمرّة الأولى ، لم يكن أمامي ، بل أمام

---

(١) **المسكونون** ، ج٢ ، ص ٣٣٢ .

Twitter: @abdullah_1395

رفاق لنا في السياسة لاجئين في الخارج . يمكنك أن تلاحظ ، إلى ذلك ، أن أحداً منهم لم يحاول صنع شيء ليخلق فيك مثل هذه الثقة ، لم يكن أحد منهم يعرفك . لقد ذهبت إليهم بنفسك ، وبمبادرة ذاتية منك ، أعلمتهم بالأمر . وبعد ! ما العمل الآن ؟ فلو أننا أخذنا ، ذلك الحين ، عَرْضك التلقائي بعين الاعتبار ، لكنا وضعنا على أساسه ، وبرضاك ـ تأكد من ذلك ـ ، خطة عمل معينة بحيث لا سبيل إلى تغييرها الآن .

انتحار كيريلوف عمل لا مبرّر له على الإطلاق ، أي أن الدافع اليه ليس من خارج . اننا هنا أمام عمل « اعتباطي » يجتمع فيه كل ما يمكن تصوّره من لا معقول في هذا العالم .

منذ أن استقرّ رأي كيريلوف على الإنتحار ، لم يعد من قيمة لأي شيء . إنها حالة روحية فريدة تسمح بالإنتحار وتبرّره كما تجعله (لأن هذا العمل ، وإن كان اعتباطياً ، ليس مجرّداً عن الأسباب) غير مكترث لأن يتهم بجريمة ارتكبها غيره ورضي هو أن تنسب إليه . هذا ، على الأقل ، ما يعتقده بيار ستبانوفيتش .

يظن بيار ستبانوفيتش أنه ، بهذه الجريمة التي يعتزم ارتكابها ، انما يوحّد ما بين جماعة متآمرين وضع نفسه على رأسهم ، لكن أسماءهم تغيب عنه . وفي اعتقاده أن مشاركة كل منهم في

Twitter: @abdullah_1395

الجريمة تشعره بمسؤوليته في الجرْم ، وأن أيّا منهم لا يستطيع التملّص ولا يجسر عليه .

ـ من هو المستهدف بالقتل ؟

لا يزال بيار ستبانوفيتش متردداً . من المهمّ أن ترشد الضحية إلى نفسها .

يجتمع المتآمرون في صالة مشتركة. وأثناء الحديث بينهم يطرح سؤال : « هل يمكن أن يكون أحدنا جاسوساً ؟ » أعقَبَ هذه الكلمات اضطراب غريب ، وأخذ الجميع يتكلمون دفعة واحدة .

ـ أيها السادة ، إذا كان الأمر كذلك ، تابع بيار ستبانوفيتش ، فأنا المشبوه أكثر من غيري . بناءً عليه ، أرجوكم أن تجيبوا عن سؤال ، إذا أردتم . . . فلكم ملء الحرية .

ـ أي سؤال ، أي سؤال ؟ ارتفعت الأصوات من كل جانب .

ـ سؤال نقرّر بعده اذا ما كان علينا أن نبقى سوياً ، أو أن يحمل كل منا قبعته ويذهب في سبيله .

ـ السؤال ـ السؤال؟

ـ إذا كان أحدكم يعرف أحد المجرمين السياسيين ، هل

Twitter: @abdullah_1395

يذهب ويعلن عنه ، متحملاً كافة النتائج ، أم يقبع في منزله منتظراً ما تأتيه به الأحداث ؟ قد تختلف وجهات النظر حول هذه النقطة . والجواب يحدّد بوضوح هل نفترق أم نبقى معاً ، لا في أثناء هذه السهرة فحسب [1] .

ويشرع بيار ستبانوفيتش في طرْح السؤال ، إفرادياً ، على أعضاء هذه الجمعية السرية . لكنهم يقاطعونه :

لا فائدة من السؤال ، أجاب الجميع بصوت واحد . ليس بيننا مخبرون !

ـ لماذا يقف هذا السيد ، هتفت إحدى الطالبات .

ـ إنه شاتوف ، لماذا نهضت ؟ سألته مدام فيرْجينسكي .

كان شاتوف قد نهض بالفعل . أمسك قبعته بيده ونظر إلى فرخوفنسكي ، كأنه كان يهمّ بالتحدّث إليه ثم أمسك عن ذلك . كان وجهه شاحباً وتبدو عليه أمائر الغضب . إلا أنه تمالك نفسه ، واتجه ناحية الباب دون أن يتلفّظ بكلمة .

ـ لن يفيدك هذا في شيء ، شاتوف ! صاح به بيير ستبانوفيتش .

توقف شاتوف لحظةً على العتبة :

(١) المسكونون : ج٢ ، ص : ٨٣ ـ ٨٤

Twitter: @abdullah_1395

ـ لكن جباناً وجاسوساً مثلك يفيده ذلك .

زعق شاتوف في وجه ستانوفيتش ردّاً على تهديده المبطّن ثم انصرف .

علا الصراخ والهتاف من جديد :

ـ هذا هو الدليل [1] .

هكذا ، فإن المستهدف بالقتل قد دلّ على نفسه بنفسه ، فلم يبقَ الإسراع ، وعلى من يقع عليه الإختيار أن يلبّي النداء لقتله .

وقفة تقدير هنا أمام الناحية الفنية لدى دوستويفسكي . لقد كنت مخطئاً حين استغرقتني أفكاره ، فأطلت الوقوف عندها مهملاً الجانب الفني الرائع الذي يعرضها من خلاله .

عند هذا الحد من الكتاب يحدث أمرٌ مدهش يثير مسألة فنية خاصة . جرت العادة على أن الفعل ، عند لحظة معينة ، لا ينبغي أن ينقطع ، بل عليه أن يتسارع ماضياً إلى الهدف . لكن دوستويفسكي ، في هذه اللحظة بالذات ، أي في ذروة اندفاع الفعل يفاجئنا بانقطاعات محيِّرة للغاية . إنه يشعر أن انتباه

---

(١) المسكونون ، ج٢ ، ص ٨٥ .

Twitter: @abdullah_1395

القارىء مشدود إلى درجة أن كل ما يعرض عليه ، في هذه اللحظة ، إنما يدخل في هذا الحقل العاصف . فهو لا يخشى إذاً ، أن تؤدّي هذه الإعتراضات المفاجئة الي تراخي الفعل ، وهي التي تحتضن أكثر أفكاره كوناً. ففي الليلة ذاتها التي سيقتل فيها شاتوف تصل زوجته فجأة ، ولم يكن رآها منذ سنوات ، وهي على وشك أن تَلِد . لكن كيريلوف لا يتنبّه ، أول الأمر ، إلى حالها .

هذا المشهد ، إذا ما عولج معالجة مبتسرة ، يبدو ظاهر التنافر . إنه من أجمل مشاهد الكتاب ، وهو يؤلّف ما يسمّى في الإصطلاح المسرحي « دوراً إضافياً » ، وفي الأدب « وتَدَاً » . ها هنا تتجلّى فنية دوستويفسكي ، ويصبح بإمكانه القول مع « بوسِن » : « لم أُهمْل شيئاً قط » . ها هنا تتجلّى عظمته كفنان . إنه يغرف من كل مَعين ، ويستفيد من كل نَقْص عبْرةً . على الحركة هنا أن تتباطأ ، وكل ما يجد من تسارعها يصبح في منتهى الأهمية . ان الفصل الذي يتناول فيه دوستويفسكي الوصول المفاجىء لزوجة شاتوف ، والحوار الذي دار بينهما ، تدخّل كيريلوف ، والمودَّة التي توطَّدَت سريعاً بين الرجلين ، إنما هو ، بفضل هذه العناصر مجتمعة من أروع فصول الكتاب . اننا نعجب هنا لغياب الغَيْرة . فشاتوف يعلم أن امرأته حامل ، لكنه لا يأبه لمعرفة من هو والد الطفل

Twitter: @abdullah_1395

المنتظر . إن شاتوف يهيم حباً بهذه المخلوقة المعذَّبة التي لا تجد ما تتوجه به إليه سوى العبارات الجارحة .

والحال أن هذه المناسبة وحدها ، أنقذت الأنذال من الوشاية التي كانت تتهدّدهم ، ووفّرت لهم فرصة التخلّص من عدوّهم . إن عودة ماري غيّرت مجرى اهتمامات شاتوف ، ونزعت عنه صفة التعقل والحذر المعهودة فيه . تولّدت لديه ، مذّاك ، اهتمامات غير تلك التي تتعلق بسلامته الشخصية .

لنعدْ إلى كيريلوف : أتت الساعة التي يحسب فيها بيار ستبانوفيتش إنه سيستفيد من انتحاره . ما هو السبب الذي يدفع بكيريلوف إلى الإنتحار ؟ يسأله بيار ستبانوفيتش . لا يمكنه تحديد السبب بدقة . إنه يحاول تلمّسه . كان يودّ أن يدركه . كان يخشى أن يبدِّل كيريلوف رأيه في اللحظة الأخيرة ، وأن يفلت منه . . . لكن ، لا .

لن أؤجل ذلك ، قال كيريلوف ، سأقتل نفسي في هذه اللحظة بالذات .

الحوار بين بيار ستبانوفيتش وكيريلوف يبقى غامضاً بصورة خاصة . وهو كذلك في فكر دوستويفسكي بالذات . مرة أخرى ، إن دوستويفسكي لا يدفع إلينا أفكاره في حالتها الصرْفة ، بل يصلنا بها عبر الشخصيات التي تتكلم نيابةً عنه

Twitter: @abdullah_1395

مترجمةً أفكاره . إن كيريلوف أسير حالة مرضية شديدة الغرابة ، سينتحر خلال دقائق . كلامه نزق متنافر . وعلينا نحن ، من خلاله ، أن نكتشف أفكار دوستويفسكي .

الفكرة التي تدفع كيريلوف إلى الإنتحار هي فكرة صوفية ليس بيار في مستوى إدراكها .

إذا وجد الله فكل شيء رَهْن بوجوده ، ولا أملك شيئا خارج إرادته . وإذا كان غير موجود ، فكل شيء متعلّق بي ، وعليّ تأكيد استقلاليّتي . حين أقتل نفسي أكون قد أكّدت استقلاليتي افضل تأكيد عليّ أن أقتل نفسي رميّاً بالرصاص .

وأيضاً :

ـ الله ضروري ، وبالتالي فهو واجب الوجود .

ـ عظيم ، قال بيار ستبانوفيتش الذي كان كل همّه أن يمدّ كيريلوف بالشجاعة .

ـ لكنني أعلم أنه غير موجود ، ولا يمكن أن يوجد .

ـ وهذا صحيح أيضاً .

ـ كيف لا تدرك أنه يستحيل على الإنسان مع هاتين الفكرتين أن يستمرّ في الحياة ؟

ـ عليه أن ينتحر ، أليس كذلك ؟

Twitter: @abdullah_1395

ـ كيف لا تدرك أن في ذلكْ سبباً كافياً للإنتحار ؟ . . .

ـ لكنك لن تكون أوّل من يفعل ذلك . كثيرون قبلك انتحروا .

ـ كان لديهم أسبابهم . أما أن يقتل إنسان نفسه لا لشيء إلا ليشهد لحريته ، فهذا ما لم يحصل بعد : سأكون أنا أول من يفعل ذلك .

« لن يقتل نفسه » ، قال بيار ستابنوفيتش في نفسه مجدداً . ـ هل تعرف ؟ تابع بيار ستابانوفيتش بصوت يشوبه الضيق . لو كنت مكانك ، لعبّرت عن حريتي بقتل شخص آخر ، هكذا ، تكون قد أتيت عملاً مفيداً . أنا أدلك على أحد الأشخاص . إذا كنت لا تخاف [1] .

وفكر بيار لحظةً في أن يدفع كيريلوف ، إذا ما تراجع عن نيّة الإنتحار ، إلى قَتْل شاتوف ، بدل أن يسند الجريمة إليه دون أن يكون قد ارتكبها بالفعل .

ـ إذاً ، فليكن . لا تفعل ذلك اليوم . ثمة وسيلة لتدبُّر الأمر .

ـ قتل شخص آخر يعني تأكيد الحرية بأسفل وسيلة . هذا

---

(١) المسكونون ، ج٢ ، ص : ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

Twitter: @abdullah_1395

يناسبك أنت ، أما أنا فليس هذا من شِيَمي . أريد أن أبلغ ذروة الحرية . أريد أن أقتل نفسي [1] .

. . . عليّ أن أثبت كفري ، تابع كيريلوف كلامه وهو يذرع الغرفة بخطى واسعة . في نظري ، ما من فكرة أسمى من نفي الله . إنني أعرف تاريخ الإنسانية . اخترع الإنسان الله لئلا يقتل نفسه . هذا هو مختصر تاريخ العالم حتى هذه اللحظة إنني أول من ينكر وَهْمَ وجود الله في تاريخ الكون .

لا ننسينَّ أن دوستويفسكي مسيحي متمسك بمسيحيته ، وما يظهر لنا من كلام كيريلوف ليس سوى انهيار جديد فدوستويفسكي لا يرى الخلاص إلا في التخلي عن الذات . لكن فكرة جديدة تعلق بالذهن ، وها هو « بلاك » يقول في أحد أمثال الجحيم : « لو لم يكن ثمة مجانين ، لكنا المجانين » ، وفي مثل آخر : « كان على آخرين أن يتّصفوا بالجنون ، لكي نكون نحن غير مجانين » .

إن جنون كيريلوف المتوسط الحدّة ، تداخله فكرة التضحية . « سأكون البادىء ، سأشرّع الأبواب » .

إذا كان من الضروري أن يكون كيريلوف مريضاً ليأتي بأفكار

---

(١) م.ن. ، ج ٢ ، ص : ٣٣٧ .

Twitter: @abdullah_1395

كهذه ـ لا يقرّها دوستويفسكي كلها لأنها متمردة ـ فإن هذه الأفكار تصيب جانباً من الحقيقة ، وإذا كان من الضروري أن يكون مريضاً ليكوّن هذه الأفكار ، فذلك من أجل أن نتمكّن نحن، بَعْد، تكوينها من غير مرض.

وحده البادىء هو من ينبغي أن يقتل نفسه ، فإذا لم يبدأ هو فمن يبدأ ، ومن يشهد ؟ ! عليّ أن أقتل نفسي لأمهّد الطريق ، وأقيم الشهادة . لا أتّبع الله حتى الآن إلا مكرها . أنا تعيس لأنني مُلْزم بتأكيد حريتي . الناس جميعهم تعساء لأنهم جميعاً يخشون تأكيد حريتهم . واذا كان الإنسان لا يزال ، حتى اليوم ، على هذه التعاسة ، وهذا الشقاء فلأنه لم يجسر بعد على إبراز حريته الحقة ، واكتفى بتمرد شبيه بتمرد تلامذة المدارس .

لكنني سأعلن حريتي . وعليّ أن أؤمن أنني غير مؤمن . أنا البادىء والمنتهي بعد تشريع الباب . أنا المنقذ .

. . . . . .

لقد فتّشت ، ثلاث سنوات ، عن صفة لألوهيتي ، وعثرت عليها : إنها الإستقلال . بهذا ، أشهر تحرّري الشامل وحريتي الجديدة الرهيبة ، لأن حريتي رهيبة . سأقتل نفسي لأؤكد تمردي وأؤكّد حريتي الجديدة ، حريتي المَهُولة [1] .

---

(١) المسكونون ، ج٢ ، ص: ٣٣٩.

Twitter: @abdullah_1395

تأكدوا أنه ، مهما بدا كيريلوف هنا ملحداً ، فقد كان دوستويفسكي ، وهو يتخيّل صورته ، مأخوذاً بفكرة المسيح وضرورة موته على الصليب ، فداءً للبشرية .

ألم يضحِّ المسيح بنفسه ليتيح لنا ، نحن المسيحيين ، أن نكون مسيحيين دون أن نتعرّض للميتة عينها ؟

قيل للمسيح : « خلّص نفسك اذا كنت أنت الله » ، ـ « إذا خلصت نفسي تهلكون أنتم . إنما من أجل خلاصهم أهلك وأضحّي بحياتي » .

هذه الأسطر القليلة التي قرأتها في ذَيْل الترجمة الفرنسية لرسائل دوستويفسكي ، تلقي ضوءاً جديداً على شخصية كيريلوف :

إفهموني جيداً . التضحية الإرادية عن وعي كامل ودون أي إكراه ، التضحية بالذات من أجل الكل هي ، في نظري ، مؤشّر لتطور في الشخصية عظيم ، ودليل على التحكم بالذات ،وعلى حرية مطلقة في الإختيار . أن يبذل الإنسان نفسه ، بملء ارادته ، من أجل الآخرين ، أن يتعذّب ، ان يصعد إلى المحرقة ، كل هذا لا تُقْدم عليه إلا شخصية بلغت درجة عالية من التطور والقوة . إن مثل هذه الشخصية القوية للغاية ، المقتنعة تماماً بحقها في أن تكون هي ذاتها ، التي لا

Twitter: @abdullah_1395

تخشى على نفسها ، لا يمكنها أن تأتي بعمل لنفسها ، إن أنها لا تصلح إلا للتضحية بذاتها من أجل الآخرين ، إنهم الآخرون بشخصيات ممائلة سعيدة وحرّة . إنها سنّة الطبيعة ، والإنسان السويّ يحاول الوصول إليها [1] .

ترون إذاً أنه حتى لو بدت أحاديث كيريلوف ، للوهلة الأولى ، متنافرة بعض التنافر ، فإننا ، في النهاية ، نكتشف من خلالها أفكار دوستويفسكي بالذات .

إنني أشعر بتقصيري الشديد عن استنفاد مكنونات دوستويفسكي . مرة أخرى أقول : إن النواحي التي خصصتها بالبحث ، واعياً أو غير واعٍ ، هي تلك التي تتفق أكثر مع أفكاري ، ولا شك أن غيري يمكن أن يسلّط الأضواء على أمور أخرى .

أما الآن ، وقد شارفت محاضرتي الأخيرة على نهايتها ، تنتظرون مني ، دون ريب ، خلاصةً ما : إلى أين ينتهي بنا دوستويفسكي ؟ وماذا يريد أن يقول بالتحديد ؟

قد يذهب البعض إلى أنه يقودنا توّاً إلى البولشفية ، لما نعرفه من كراهية دوستويفسكي للفوضوية . إن كتاب **المسكونون**

---

(١) **الرسائل** ، ص : ٥٤٠ .

Twitter: @abdullah_1395

بأكمله هو بمثابة إعلان عن روسيا مصوغ بلهجة نبوية . لكن الذي يطرح « سلم قيم » جديداً في مواجهة الشرائع السائدة يعتبره المحافظون دوماً فوضوياً . ويخلص المحافظون وذوو النزعة القومية الذين لا يرون في دوستويفسكي سوى فوضوي ، إلى القول أنه لا يمكن أن يكون مفيداً في شيء . لهؤلاء أقول ، إن موقفهم هذا هو إهانة للعبقرية الفرنسية . فألاّ نقبل من الخارج ألا ما كان مشابهاً لنا ، وما يمكن أن نتعرّف فيه على منطقنا ونظامنا ، وإلى حد ما ، على صورتنا ، إنما هو خطأ جسيم . من حقنا أن ننفر من النقص ، لكن دوستويفسكي ليس من ذلك في شيء ، وكل ما في الأمر أن مقاييسه الجمالية تختلف عن مقاييسنا المتوسطية . وحتى لو كانت هذه المقاييس أكثر تشوشاً ، فما نَفْع العبقرية الفرنسية عندها ، وعلام ينطبق منطقها إن لم ينطبق على ما هو بحاجة إلى النظام ؟

أن نكتفي بتأمل صورتنا لا غير ، صورة ماضينا ، ففي هذا الخطر الأكيد ؛ وبكلام أكثر اعتدالاً وتحديداً أقول : حسنٌ أن يكون في فرنسا عناصر محافظة تَرْعى التقاليد وتقف في وجه كل ما يبدو لها اجتياحاً خارجياً . لكن هذا الوارد الجديد ، الذي تبقى ثقافتنا بدونه مجرّد شكل فارغ وإطار جامد ، ليس هو الذي يعطي هذه العناصر مبرِّر وجودها . ماذا يعرف هؤلاء عن العبقرية الفرنسية ؟ ماذا نعرف نحن غير ما كان منها في

Twitter: @abdullah_1395

الماضي : وهذه هي الحال مع الشعور الوطني ، ومع الكنيسة . إن العناصر المحافظة تعامل العبقريات كما كانت الكنيسة تعامل القديسين ، فكثيرون منهم رفضتهم الكنيسة ، أول الأمر ، ورذلتهم ، وأنكرتهم باسم التقليد نفسه الذي سرعان ما أصبحوا هم أحجار الزاوية فيه .

لقد عبّرت عن رأيي ، في مناسبات عديدة ، في شأن الحماية الفكرية ، واعتقد أنها تشكل خطراً بالغاً ، لكنني أقدّر أن محاولة تحرير الفكر من الجنسية ليست أقلّ خطورة . ما أقوله لكم ، إنما يعبّر عن رأي دوستويفسكي ايضاً . لم أقع على مؤلف يجمع بين النَزْعة الروسية الضيقة والنَزْعة الأوروبية الشاملة في آن ، مثل دوستويفسكي . إن أمانته لخصوصية الواقع الروسي هي التي أتاحت له الوصول إلى الشمولية الإنسانية وأن يداخل كلاً منا بطريقة خاصة .

«إنني روسي أوروبي هَرِم» ، هكذا يعرّف نفسه ، وهكذا يتكلم بلسان فرسيلوف في **المراهق** :

لأنه في الفكرة الروسية تتآلف المتناقضات . . . من الذي كان يتمكّن عندها من فهم مثل هذه الفكرة ؟ كنت تائهاً وحدي . لا أتكلّم عن نفسي ، بل . . . عن الفكرة الروسية . هناك ، كانت الإهانة والمنطق الصارم ، هناك ، لم يكن الفرنسي سوى فرنسي ، ولم يكن الألماني سوى ألماني ، وبأقصى

Twitter: @abdullah_1395

ما عُرف عنهما من عناد في مطلق حقبة من التاريخ . وبالنتيجة ، لم يخطء الفرنسي بحق فرنسا يوماً بمثل هذا القَدْر ، وكذلك الألماني بحق ألمانيا . لم يكن ثمة أوروبي واحد في أوروبا كلها . كنت وحدي المؤهَّل لأقول للاعبين بالنار أن حَرْق التويلري جريمة ، وللمحافظين السّفاحين أن هذه الجريمة منطقية : لقد كنت أنا « الأوروبي الوحيد » . مرةً أخرى ، أنا لا أتكلم عن نفسي ، بل عن الفكرة الروسية [1] .

ونقرأ في موضع آخر :

تمكّنتْ أوروبا من خلق النماذج النبيلة للفرنسي والإنكليزي والألماني ، وهي لا تعرف شيئاً بعد عن إنسان المستقبل فيها ، ويخيّل إليّ أنها لا تريد أن تعرف . وهذا مفهوم : هُمْ ليسوا أحراراً ، أما نحن فأحرار ، أنا ، وحيداً ، ورغم قلقي الروسيّ كنت لا أزال حرّاً في أوروبا . فلتلاحظ يا صديقي هذا الأمر : يخدم الفرنسي الإنسانية ، لكن من بعد فرنسا وشرْط أن يبقى فرنسياً قبل كل شيء . كذلك الحال مع الإنكليزي والألماني أمّا الروسي ـ الآن ، أي قبل أن يثبت في شكل نهائي ـ فهو روسيّ مخلص بقدر ما يكون أوروبياً مخلصاً : هنا يكمن جوهرنا الوطني [2] .

---

(١) المراهق ، ص : ٥٠٩ .

(٢) المراهق ، ص : ٥١١ .

Twitter: @abdullah_1395

لكنني ، في مقابل هذا ، أورد لكم هذا المقطع اللافت من **المسكونون** لأبرهن عن مدى وعي دوستويفسكي لخطر تغلّب النزعة الأوروبية على بلدٍ ما :

لم يكن للعلم وللعقل يوماً سوى دور ثانوي في حياة الشعوب ، وستبقى هذه هي الحال إلى آخر الدهر . تتكوّن الأمم وتتطوّر بفضل قوّة موجِّهة مجهولة المصدر والتفسير . هذه القوة هي الرغبة الجارفة في الوصول إلى النهاية ، وفي الوقت نفسه ، ننفي وجود نهاية . انها شهادة وجود ثابتة مستمرة لشعب من الشعوب ، ونفي للموت . إنها « روح الحياة » كما يقول الكتاب المقدس ، و« مجاري المياه الحيّة » التي تتنبّأ رؤيا يوحنا بنضوبها ، وهي المبدأ الجمالي أو الخُلُقي للفلاسفة ؛ إنها ، بكل بساطة ، « البحث عن الله » . إن كل ما تهدف إليه الحركة القومية ، لدى أي شعب ، وفي أية حقبة من وجوده ، انما هو البحث عن الله ، عن اله خاص به ، يؤمن به كما لو كان وحده الإله الحقيقي . الله هو الشخصية الجامعة لشعب بأكمله ، من بدء وجوده حتى نهايته . لم يحصل بعد أن اجتمعت الشعوب كافة ، أو البعض منها ، على عبادة الإله نفسه ، بل كان دائماً لكل شعب إلهه الخاص . حين ترى العبادات تتجه إلى التوحّد ، فاعلم أن انهيار الوفيات بات وشيكاً . حين تفقد الآلهة خصائصها المحلية تزول ، وتزول معها شعوبها ، فبقدر ما تكون الأمة قوية يكون إلهها متميّزاً . لم

Twitter: @abdullah_1395

يجد شعب حتى الآن دون دين ، أي دون فكرة عن الخير والشر . وكل شعب يفهم الخير والشرّ على هواه . ما يكاد يتوحد مفهوما كل من الخير والشر لدى عدة شعوب ، حتى تزول هذه الشعوب ، ويبدأ الفرق بين الخير والشر هو ايضا بالتلاشي والزوال [1] .

ـ أشك في ذلك ، قال ستافروغين معقباً ، لقد لقيت أفكاري لديك قبولاً حاراً . وبعد ذلك ، حوّرت فيها على هواك . إن هذا الواقع وحده الذي يشير إلى أن الله هو ، في مفهومك ، صفة تابعة للقومية . .

وأخذ يتفحص شاتوف باهتمام مضاعف ، مأخوذاً بمظهره ، أكثر مما هو مأخوذ بكلامه .

ـ وهل أحطّ من شأن الله إذا جعلته صفة من صفات القومية ، صاح شاتوف ، على العكس ، أنا أرفع الشعب إلى الله ، وهل كان الشعب يوماً غير ذلك . إنما الشعب جسد الله لا تستحقّ أمةٌ هذا الإسم إلا اذا امتلكت إلهاً خاصاً فترة طويلة من الزمن ، ووقفت به، بعناد ، في وجه الآلهة الدخيلة ،

(١) « زال سكان جزر أوقيانيا من الوجود لافتقارهم إلى أفكار ناظمة لأعمالهم ، ولمقاييس مشتركة يميّزون بها الخير من الشر » . ركلوس . الجغرافيا ، ج ١٤ ، ص : ٩٣١ .

Twitter: @abdullah_1395

وإلاّ اذا عملت على اقتحام العالم بهذا الإله لتطرد منه كلَّ إله غيره . هكذا كان ايمان كافة الشعوب العظيمة منذ بدء الخليقة ، أو على الأقل ، إيمان تلك التي تركت آثارها على جسد التاريخ ، وكانت رائدة الإنسانية . لا يمكن انكار أن حياة اليهود كانت كلها انتظاراً للإله ، وانهم تخلّوا عن الإله الحقيقي للعالم . ألّه اليونان الطبيعة ، وأطلقوا دينهم في العالم ، أي الفلسفة والفن . ألّهت روما الشعب في الدولة ، وأورثت الدولة للأمم الحديثة . أما فرنسا ، فكل ما فعلته في تاريخها الطويل ، أنها جسّدت فكرة إلهها الروماني ، وعملت على تطويرها .

الشعب العظيم ، اذا لم يؤمن أن الحقيقة انما هي ملكه وحده ، وأنه وحده مدعو إلى إحياء العالم وإنقاذه بهذه الحقيقة ، يفقد عظمته للتو ، ليصبح مادة إتنوغرافية [1] . لا يمكن لشعب عظيم حقاً أن يقنع بدور ثانوي في الإنسانية ، فحتى الدور المهم لا يكفيه . إنه يتطلع إلى الدور الرئيسي ، والأمة التي تفقد هذه القناعة تزول من الوجود .

وهذه الفكرة لستافروغين يمكن أن تصلح خلاصة لكل ما **ورد** من أفكار : « اذا فقد الإنسان تعلّقه ببلده ، فقد الله » .

(١) الأتنوغرافيا علم يبحث في خصائص الشعوب (المترجم) .

Twitter: @abdullah_1395

لو قدّر لدوستويفسكي أن يرى كيف عطّل شعبه اليوم دور الله ، فماذا تراه يقول ؟

إنه لأمرٌ مؤلم أن نتصوَّر ذلك . هل كان يتوقّع حصول ذلك ؟ هل كان يمكنه أن يَحْدس ببشاعة الحاضر وضيقه ؟

في كتاب **المسكونون** ، نتبيّن بذور البلشفية النامية . لنصغ إلى شيغالف يعرض نظامه ، ويصرّح في نهاية بحثه قائلاً :

إنني في حَيْرة من أمر المعطيات المتوفّرة أمامي ، فقد جاءت النتيجة مناقضة تماماً للمقدمات التي انطلقت منها . انطلقت من الحرية اللامحدودة ، وانتهيت إلى الطغيان اللامحدود [1] .

فلنصغِ بعد إلى بيار فرخوفنسكي :

ستكون فوضى وانقلابات لم يعرف العالم لها مثيلاً. ستغرق روسيا في الظلام ، وستبكي إلهها القديم [2] .

إنه لمن التسرّع، إنْ لم يكن من غير الجائز، أن ننسب إلى المؤلف الأفكار التي تعبّر عنها شخصيات رواياته أو قصصه. لكننا نعلم أن دوستويفسكي إنما يعبّر عن أفكاره عبر هذه الشخصيات مجتمعة . . . وكم من مرة يتوسّل كائناً لا وزن له

---

(١) المسكونون ، ج٢ ، ص : ٧٤ .
(٢) م.ن. ، ص ٩٧ .

Twitter: @abdullah_1395

ليصل بنا، عَبْره، إلى حقيقة يعلّق عليها أهمية كبرى. أليس من يقف وراء شخصية ثانوية في الأزلية مريم ليتحدّث عما يسمّيه «داء روسيا» فيقول:

رأيي الخاص، اننا في روسيا، ليس لدينا، في الوقت الحاضر، إنسان يستحق الإعتبار. وينبغي الإعتراف انها كارثة رهيبة أن تخلو حقبة كاملة من الزمن من شخص يستدعي الإحترام... أليس كذلك [1]؟

أعلم جيداً أن دوستويفسكي، وسط هذه الدياجير التي تتخبَّط فيها روسيا اليوم، لم يكن ليفقد الأمل. وقد يعرض على فكره (وهذه الفكرة تبرز في رواياته وفي رسائله أكثر من مرة)، ان روسيا هذه الأيام إنما تضحّي بنفسها على طريقة كيريلوف، وأن هذه التضحية قد تحمل الخلاص لسائر أوروبا، وللإنسانية جمعاء.

---

(١) الأزلية مريم، ص: ١٧٧.

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

مُلْحــق

١[1]

والآن ، ثمة حادثتان تشهدان على كل هذا الفن التوجيهي ، أعود بعد روايتهما إلى إنهاء القصة ، لئلا ينقطع السياق .

شهر تموز ، أي قبل رحيلي إلى بترسبورغ بشهرين ، أرسلتني ماريا ايفانوفنا في مهمة ، ليس مهما ذكر غرضها ، إلى ناحية قريبة . في الحافلة التي أقلّتني إلى موسكو ، لفت انتباهي شاب أسمر ، حسنُ الزيّ ، لكن على شيء كثير من القذارة ، وذو وجه مليء بالبثور . كان يغادر القطار عند كل محطة ، ويهرع إلى الحانة ليتناول ماء الحياة[2] . وفي المقصورة ، التمّت حوله زُمْرة من مُدْمني المزاج وقلة الأدب . وقد أدهشت هؤلاء قدرة هذا الشرّيب، فراحوا يتفننون في دَفْعه إلى شرب المزيد . بين هؤلاء جميعاً ، كانت الحماسة آخذة بتاجر بدأت الخمرة تدبّ في رأسه ، وبرجل طويل مائع يلبس زيّاً ألمانياً ، وهو خادم ثرثار تفوح من فمه رائحة نتنة . أما الشاب الذي لا يرتوي فلم يكن كثير الكلام . كان يستمع إلى جلبة رفقائه ، وعلى شفتيه ابتسامة بليدة تقطعها أحياناً ضحكة تأتي في غير محلها دائماً ؛

(١) من المراهق ، ص : ٢٢ .

(٢) مشروب مُسْكر .

Twitter: @abdullah_1395

وعندها كانت تصدر عنه مقاطع غامضة من مثل «تور... لور... لو...» واضعاً أحد أصابعه على طرف أنفه، وهذا الأمر كان يفرح التاجر والخادم للغاية، ويدخل البَهْجة إلى قلوب الجميع. دنوتُ من الشاب، وهو طالب منقطع عن دراسته الجامعية، والواقع أنني لم أنفر منه سرعان ما رفعت الكلفة بيننا، فضرب لي موعداً التاسعة من مساء ذلك اليوم على بولفار تفر.

أتيت في الوقت المحدّد. وكذلك صديقي الشاب. وهذا ما حدث: لقد لمحنا سيّدة محترمة، ودون أن ننبس بكلمة، مشى أحدنا عن يمينها، والآخر عن اليسار. وببرودة كلية، وكما لو كنا نجهل وجودها بيننا، استرسلنا في حديث فاحش أبدعت فيه أيما ابداع، على الرغم من أنني لم أكن أعرف عن الجنس إلا لفظه (أحاديث الطفولة العذبة!)، ولم أكن أدري كيف يُمارس. ذعرت المرأة وأسرعت في سيرها، فما كان منا إلا أن جاريناها في السرعة متابعين الحوار. ماذا يمكن أن تفعل؟ ليس هناك شهود، والشكوى إلى الشرطة هي دوماً أمرٌ مستحب..

انصرفنا إلى هذه المداعبات الرديئة ثمانية نهارات متتالية. هل كنت أهو؟ لست أدري. (أول الأمر، كان يمكن لهذه التسلية أن ترضيني لتلقائيتها، وعلى أي حال، فقد كنت أكره النساء...). رويت مرّة للطالب أن «جان ـ جاك» يصرّح في اعترافاته أنه كان، إبّان المراهقة، يكمن في إحدى الزوايا ويَعْرض رجولته أمام أعين العابرات المشدوهة، فكان جوابه لي: «تور ـ لور ـ لو». كان جهله

Twitter: @abdullah_1395

مطبقاً ولا يأبه لشيء البتة . كنت ساذجاً حين ظننته يملك بعض الأفكار ، فقد كان تفننه في افتعال الفضائح ذا رتابة قاتلة . بدأ غباؤه يزعجني شيئاً فشيئاً حتى انقطعت علاقتي به في النهاية . وهذه هي المناسبة :

كنا قد أحطنا ـ بوقاحة كعادتنا ـ بصبيّة تحتُّ الخطى على البولفار المعتم . كان عمرها لا يزيد عن الستة عشر عاماً ، وربما كانت تكسب رزقها بعرق جبينها ؛ لا ريب أن والدتها تنتظر في البيت ، وهي أرملة بائسة مثقلة بهموم العائلة . . . هذا ما أحسست به في نفسي . . . كنا مسترسلين في حديثنا القذر . . . وكانت هي تندفع في الليل كحيوان مطارد . فجأة ، توقفت لاهثة ، وبحركة من يدها ، أزاحت الخمار الذي يلفّ وجهها الهزيل الذي لمعت فيه عيناها بغتةً ، وقالت :

ـ أوه ! يا لكما من نذلين !

اعتقدت انها ستنخرط في البكاء . لكنها ، وبكل عنف ، بادرت الطالب بصفعة لم تعرف دويَّها سُحْنةُ نذلٍ من قبل . حاول أن يتشبث بها ، فأمسكته حتى هربت .

حين بقينا وحدنا أخذنا نتشاجر ، فرحت أكيل له كل ما أضمره له من نعوت الخساسة والحقارة ؛ أخذ يشتمني (كنت أفضيت إليه أنني كنت طبيعياً في صغري) ، وراح كل منا يبصق في وجه الآخر . . . ومذّاك لم أره ثانيةً .

Twitter: @abdullah_1395

تملّكني غَيْظ شديد ، لكن حدّته ذهبت في اليوم التالي ، وفي اليوم الثالث نسيت كل شيء . لم أذكر هذه الحادثة بوضوح إلا في بترسبورغ . كدت أبكي من الخجل ، ولا تزال هذه الذكرى تعذّبني حتى اليوم ؛ كيف سمحت لنفسي بالانحدار إلى هذه الدناءات ، بل كيف تمكنت من نسيانها ؟ أصبح الأمر واضحاً الآن . إن « الفكرة » ؛ إذ تعرّي كل ما ليس منها من الدلالة ، تمدّني سلفاً بالعزاء عن الآلام التي استحقّ ، وتحلّني من أحطّ أنواع الخطايا . هكذا ، كانت هذه الفكرة ، بالنسبة إليّ بمثابة حاضنة ، لكنها كانت حاضنة مُفْسدة .

الحادثة الثانية .

أول نيسان من السنة الفائتة ، جاء بعضهم لقضاء السهرة عند ماريا ايفانوفنا بمناسبة عيدها . دخلت أغريبين مسرعةً وهي تقول أنها عثرت للتو على طفل لقيط أمام المطبخ . هرع الجميع لتقع أعينهم على طفلة عمرها ثلاثة أسابيع أو أربعة ، تصرخ في قعر سلة أمسكت بالسلّة وحملتها إلى المطبخ ، الى جانب السلة ، علقت بطاقة كتب عليها : « أيها المحسنون الكرام ، إرأفوا بالصغيرة أرينيا . لقد نالت المعمودية . سنصلّي دائماً من أجلكم . نتمنّى لكم السعادة في يوم العيد هذا . ـ أناس لا تعرفونهم » .

أحزنني موقف نيكولا سيميونوفيتش الذي كنت أكنّ له الكثير من الإحترام . فقد بدت القسوة على قسمات وجهه ، وقرّر أنه ينبغي حمل الطفلة إلى المأوى في الحال ، رغم كونه لم يرزق أولاداً . انتزعتها

Twitter: @abdullah_1395

من السلّة حيث تفوح رائحة حوضة ، أخذتها بين ذراعيّ وأعلنت تكفّلي بها . اعترض نيكولا قائلاً : لا حلّ غير المأوى . إلا أن كل شيء تمّ حسب ما رغبت .

وفي ناحية أخرى من الساحة ذاتها ، كان يقطن نجّار هَرِم سكيّر مع زوجته التي لا تزال على شبابها وقوتها . كانت قد توفّيت لهذيت البائسين حديثاً طفلة رضيعة كانت وحيدتهما بعد سنوات ثمانٍ من الزواج . وللمصادفة السعيدة كانت هي الأخرى تدعى أرينيا . أقول « سعيدة » لأن هذه المرأة التي اقبلتْ الى المطبخ تتفحّص لُقْيتنا ، رقّ قلبها لهذا الاسم . لم يكن حليبها قد نضب بعد ، فحلّت صدارها ووهبت أرينيا الجديدة ثديها . هل ترضى بأن تعتني بالطفلة اذا وفّرت لها المال ؟ لم تجبني في الحال ، لأن عليها أن تسأل زوجها ، لكنها ، على أي حال ، ستحتفظ بالطفلة تلك الليلة . في الغد ، اتفقت مع الزوجين ، ودفعت مقدَّماً عن الشهر الأول ثمانية روبلات لم يتوانَ الزوج عن انفاقها في الخمّارة . وقد ضمنني نيكولا سيميونوفيتش على الوفاء بتعهداتي . أردت أن أرجع له الروبلات الستين التي أملك فرفض ، الأمر الذي أدّى إلى إزالة كل أثر للنزاع البسيط الذي نشب بيننا .

كانت ماريا ايفانوفنا تلزم الصمت . لكنها كانت ، ولا شك ، مندهشة في قرارة نفسها ، لتحمّلي هذا العبء الثقيل . لم يسمح أحد لنفسه بتمرير أية دعابة بهذا الشأن ، وقد أثّرتْ فيّ هذه الرقّة .

كنت أهرع إلى بيت داريا روديفونوفنا ثلاث مرات في اليوم . وفي

Twitter: @abdullah_1395

خلال أسبوع ، منحتها، خفيةً عن زوجها ثلاثة روبلات ، وبثلاثة أخرى اشتريت أغطية وأقمطة . لكن ، بعد عشرة أيام من بدء أبوّتي ، مرضت الصغيرة ، فأحضرت لها طبيباً ، ومكثت وإيّاه طوال الليل نحاول اعطاءها الدواء . في الغد ، صرّح الطبيب أنها لن تتعافى . ورداً على استفساراتي التي هي أقرب إلى التأنيب ، أجاب : « وهل أنا الله ! » كانت أنفاسها تضيق ، والرغوة تطفو على فمها . المساء نفسه ، توفيت الصغيرة ، توفّيتْ وعيناها السوداوان الكبيرتان عالقتان في وجهي ، وكأنهما أدركتا كل شيء . لماذا لم أفكر بتصويرها ميتة ؟ الليلة تلك ، لم أبكِ فحسب ، بل رحت انتحب من اليأس ؛ لم يسبق أن حصل لي مثل هذا من قبل . كانت ماريا ايفانوفنا تحاول تهدئتي برقة . النعش صنعه النجار بيده ، وغُيِّبت ارينيا في التراب . . . هذه الأمور لا تغيب عن فكري . . .

لقد حملتني هذه الحادثة على التفكير . لا شكّ أن أرينيا لم تكلّفني كثيراً ؛ فكل ما أنفقته عليها من المسكن إلى الطبيب إلى النعش إلى الأزهار ، لم يتعدَ الثلاثين من الروبلات . لقد عوَّضت هذا المبلغ قبل رحيلي عن موسكو بزمن يسير بتوفير قسْم من الأربعين روبلاً التي أرسلها إليّ فرسيلوف لتقوم بنفقة السفر ، وببيع بعض الحاجات الطفيفة . هكذا ، بقي رأسمالي كما هو . « ولكن ، قلت في نفسي ، إذا بقيت أتسكع على الطرقات ، فستكون نهايتي وشيكة » .

هذه خلاصة مغامرتي مع الطالب : تستطيع « الفكرة » أن تجعل كل شيء من حولي مظلمًا، وأن تفقدني القدرة على الإحساس بالواقع .

Twitter: @abdullah_1395

هذه خلاصة مغامرتي مع أرينيا : إن الإهتمامات الأساسية لـ « الفكرة » تتقلّب مع هبّات ريح العاطفة .

خلاصتان متناقضتان ، وكلتاهما صواب .

٢ (١)

ـ ما هي الخدمة التي يمكن أن أؤديها لك ، أيها الأمير الموقّر، فقد ناديتني . . . الآن ؟ سأل لبْدف بعد فترة صمت .

صمت الأمير دقيقةً ثم أجاب :

ـ هو ذاك ! كنت أود محادثتك عن الجنرال و . . . عن السرقة التي وقعت ضحيتها .

ـ كيف ؟ أية سرقة .

ـ كفى تجاهلاً ! كأنك لا تعرف شيئاً . آه ! يا إلهي ، ما هذا التجاهل ، لوكيان تيموفيتيش ؟ المال ، المال ، الأربعثمة روبل التي فقدتها من محفظتك، ذلك اليوم ، وأتيت تخبرني عنها صباحاً قبل رحيلك الى بترسبوغ . هل فهمت أخيراً ؟

ـ آه ! الأربعثمة روبل ، قال لبْدف بصوت فاتر ، وكأن النور بدأ

---

(١) **الأبله** ، ج ٢ ، ص: ٢٢٨ وما يليها .

Twitter: @abdullah_1395

يتسرّب إلى ذهنه . أشكرك أيها الأمير على اهتمامك الصادق . ولكنني . . . وجدتها منذ زمن بعيد .

ـ وجدتها ! آه ! شكراً لله .

ـ هذا الإهتمام لا يصدر إلا عن قلب نبيل . لأن أربعمئة روبل ليست قضية مهمة بالنسبة إلى رجل فقير مثلي يكسب عيشه من عمله الشاق . . وعائلته كبيرة .

ـ لا أتكلّم عن هذا ! صرخ الأمير ، ثم تابع في الحال : أنا مرتاح ولا شك لأنك عثرت على مالك . ولكن ، كيف كان ذلك ؟

ـ بأسهل ما يمكن ؛ كانت تحت الكرسيّ التي ألقيت فوقها معطفي . وواضح أن المحفظة سقطت من جيبه على الأرض . .

ـ تحت الكرسي ؟ كيف ؟ لا يمكن . قلت لي أنك فتّشت كل مكان ، وفي كل الزوايا ؛ كيف لم تنظر إذاً حيث كان عليك أن تنظر أولاً ؟

ـ الواقع أنني نظرت . اذكر جيداً انني نظرت . زحفت على الأربع ، وتحسّست المكان بيدي . ارجعت الكرسيّ إلى الخَلْف غير مصدِّق عينيّ . ألفيت المكان خالياً . ومع هذا تابعت البحث . إنه عجز اعتاد عليه الانسان . فحين يريد العثور على شيء معيّن بأيّ ثمن . . حين يفقد شيئاً يؤلمه فقده ، يرى المكان خالياً ولا وجود لأي شيء ، ومع هذا ، يعيد النظر خمس عشرة مرة . .

Twitter: @abdullah_1395

ـ أجل ، ليكن . لكن ، كيف يحدث هذا ؟ . . . أنا لا أفهم دائماً ، تمتم الأمير مذهولاً . في البداية ، قلت إنك بحثت في هذا المكان ولم تجد شيئاً ، ثم ، فجأة ، وُجدت المحفظة فيه .

ـ نعم ، وُجدتْ فيه فجأة !

نظر الأمير إلى لبْدف نظرة غريبة .

ـ والجنرال ؟ تساءل الأمير على حين غرّة .

ـ ما به ، الجنرال ؟ سأله لبْدف متجاهلاً .

آه ! يا إلهي ؛ أسألك عما قاله لك الجنرال حين عثرت على المحفظة تحت الكرسيّ . لقد بحثتما سوياً ، أول الأمر .

ـ في البداية ، نعم . ولكني اعترف أنني أخفيت عنه ، وآثرت أن يبقى جاهلاً أنني عثرت على المحفظة وحدي .

ـ لكن ، لماذا ؟ . . . هل اختفت النقود ؟

ـ فتّشت المحفظة . كان كل شيء في مكانه . لم يضع روبل واحد .

ـ كان عليك أن تخبرني ، عقّب الأمير مفكراً .

ـ خشيت ازعاجك ، أيها الأمير ، وأنت مستغرق في انطباعاتك الخاصة ، والغريبة ربما . على أي حال ، أنا نفسي تصرّفت كأنني لم

Twitter: @abdullah_1395

أعثر على شيء . بعدما تأكدتُ أن المبلغ لم يُمسّ ، أقفلت المحفظة وأعدتها إلى مكانها تحت الكرسي .

ـ ولكن ، لماذا ؟

انخرط لِبْدف في الضحك .

ـ هذا لأنني أردت أن أمضي في البحث أبعد من ذلك ، أجاب وهو يفرك كفاً بكف .

ـ والمحفظة هناك الآن ، منذ أول أمس ؟

لا . لا . لم تبقَ هناك سوى أربع وعشرين ساعة . كما ترى ، كنت أرغب ، إلى حد ما ، أن يجدها الجنرال هو أيضاً . فقد قلت في نفسي : إذا كنت أنا قد عثرت عليها أخيراً ، فلماذا لا يلاحظ الجنرال ايضاً وجود جسم ظاهر يمكن رؤيته بسهولة تحت الكرسي ؟ عدّلت وضع الكرسيّ مرات كثيرة ، لكي تبرز المحفظة جيداً ، لكن الجنرال لم يرها . استمرّ هذا أربعاً وعشرين ساعة . واضح أن الجنرال شارد الذهن كثيراً الآن . تراه يحدّث ، يروي القصص ، يضحك . وفجأة ، يغضب مني دونما سبب . أخيراً غادرنا الغرفة . تركت الباب خلفنا مفتوحاً عن عمد . كان مرتبكاً وكأنه يريد أن يتكلّم . كان قلقه على المحفظة التي تحوي هذا المبلغ الكبير من المال . لكنه اغتاظ فجأة ولم يقل شيئاً . ما كدنا نسير في الشارع خطوتين حتى تركني فجأة وانصرف ، ولم نلتقِ حتى المساء .

Twitter: @abdullah_1395

ـ لكنك استعدت محفظتك أخيراً ؟

ـ كلا ، غابت تلك الليلة من مكانها تحت الكرسي .

ـ إذاً ، أين هي المحفظة الآن ؟

عند سماعه هذه الكلمات ، انتصب لبْدف فجأة بكامل قامته ونظر إلى الأمير بمرح :

ـ إنها هنا ، أجاب ضاحكاً ، وُجدت فجأة داخل هُدْب معطفي . انظر ؛ انظر بنفسك ؛ المسها .

في الواقع ، كان الجيب الأيسر من المعطف ينفتح ، من الناحية الأمامية ، بصورة جليّة ، على ما يشبه الكيس الذي يمكن أن نتحسّس فيه محفظة من الجلْد لا شك أنها مرقت من جيب مثقوب إلى داخل بطانة المِعْطف .

ـ سحبتها من داخل البطانة لاتفحصها ، فألفيت النقود فيها بالتمام . أعدتها إلى المكان نفسه ، ومنذ صباح الأمس مازلت أحملها هكذا في هُدْب المعطف ، اتنّزه وإياها وتتنّزه هي على ساقيّ .

ـ ولا تلاحظ شيئاً ؟

ـ ولا ألاحظ شيئاً ، همْ ، همْ ، هه ! تصوَّر ، حضرة الأمير المحترم ، ـ رغم أن الموضوع لا يستحق منك هذا الإهتمام ـ إن جيوبي تبقى دائماً في حالة جيدة ، وفي إحدى الليالي ، فجأة ، يطلع

Twitter: @abdullah_1395

هذا الثقب! أردت أن أتبينّ الأمر ، وحين تفحّصت الشق ، بدا لي وكأن أحدهم قد افتعله بسكّين ؛ أمرٌ لا يصدق !

ـ والجنرال ؟

ـ البارحة ، لم يسكن غضبه طوال النهار ، واليوم كذلك لا يزال سيّء المزاج . يغمره أحيانا فرح عنيف أو تدهمه حساسية مُفْرطة . ثم ينتابه فجأة غضب مخيف . أنا لا أصلح للمعارك أيها الأمير . بالأمس ، كنا سوياً ، وبالصدفة ، برز الإنتفاخ الشاذ في معطفي فتغيَّر الجنرال عليّ ، وحنق مني . لم يعد ينظر إليّ وجهاً لوجه ما لم يكن سكراناً أو مسكوناً بنوبة حنو ، وذلك منذ زمن . لكنه البارحة ، نظر في وجهي مرتين ، فشعرت بالبرودة تنساب في عروقي . باختصار ، سأستعيد المحفظة غداً ، وحتى ذلك الحين ، سأمضي معه سهرةً قصيرة بَعْد .

ـ لِمَ تعذّبه كل هذا العذاب؟ صرخ الأمير في وجهه .

ـ أنا لا أعذّبه أيها الأمير . أنا لا اعذّبه. اجاب لبْدف بحرارة .

إنني أحبه محبةً صادقة ، واحترمه . ولقد اصبح الآن عزيزاً عليّ أكثر من اي وقت مضى. صدّق أو لا تصدّق، بدأت أعرف قيمته أكثر من السابق .

تلفّظ بهذه الكلمات بلهجة حادّة ، وصادقة لم يستطع الأمير معها أن يمسك غيظه .

Twitter: @abdullah_1395

ـ تحبه وتعذّبه هذا العذاب ! هاك ما حدث : لقد رتّب الأمر بحيث يجعلك تعثر على ضالّتك ، فوضع المحفظة تحت الكرسيّ ، ثم في المعطف ، ليلفت انتباهك إليها ، وبهذا يقدّم البرهان الجلّي على انه لا يريد أن يغدر بك . لكنه يرجوك أن تعذره . إسمع : إنه يطلب الغفران . انه يعتمد على رقة مشاعرك ، ويؤمن بصداقتك. فكيف تخضع رجلاً مستقيماً كهذا ، إلى مثل هذه المهانة ؟ !

ـ مستقيم جداً ، أيها الأمير ، إنه مستقيم جداً ، ردّد لبدف فيما كانت عيناه تلمعان ، وأنت وحدك ، أيها السامي النبل ، تستطيع أن تصدر حُكْماً منصفاً كهذا ! لذا ، فإنني مكرِّسٌ نفسي لك حتى العبادة ، مهما زخرتْ هذه النفس بالعيوب . هذا قراري . سأستعيد المحفظة الآن، في هذه اللحظة بالذات ، لا غداً . هاك النقود كلها . خذها ، يا صاحب السموّ ، واحفظها الى الغد . غداً ، أو بعد غد ، آخذها منك .

ـ لكن ، انتبه . لا تذهب إليه الآن وتخبره أنك وجدت المحفظة ـ دعْه يرَ أن هُدْب معطفك أصبح خاوياً ، وسيدرك الأمر .

ـ ماذا ؟ أليس من الأسلم أن أخبره أنني وجدتها ، واتصرّف كأن الشك لم يساورني حتى الآن ؟

ـ كلّـ ـ لا ، قال الأمير مفكراً ، كلّـ ـ لا ، لقد تأخّرت ، أصبح الأمر أكثر خطراً الآن . الأفضل ألا تخبره بشيء . كن مهذباً معه . . ولكن . . لا يبدُ عليك أنك . . . و . . . أنت تعرف . . .

Twitter: @abdullah_1395

ـ أعرف أيها الأمير ، أعرف أنني سأجد الكثير من العناء في تنفيذ هذا المخطط . فذلك يلزمه قلبٌ كقلبك . ثم انني مغتاظ الآن . فمعاملته لي فيها الكثير من الغَطْرسة ، تراه يقبّلني وهو يتحبب ، ثم ينقلب فجأة إلى إهانتي وتحقيري بسخريته . لقد اكتفيت . سآخذ المحفظة ، وأتعمدّ ابراز هذب معطفي أمام عيني الجنرال . ههْ ، ههْ ! إلى اللقاء ، أيها الأمير ، لا بدّ أنني أزعجك وأشغلك عن مشاعر جزيلة الأهمية في ذاتك .

ـ لكن ، استحلفك بالله أن تلزم الصمت كالماضي .

ـ بالسر ، بالسر !

رغم أن المسألة انتهت عند هذا الحدّ ، فقد استغرق الأمير في صمت لم يعرفْ مثله من قبل . كان ينتظر ، بفارغ الصبر ، حلول موعد اللقاء مع الجنرال ، في الغد .

Twitter: @abdullah_1395

فهرس

« دوستويفسكي » من خلال رسائله ٧
١ - ١٥
٢ - ٤٢
الإخوة كارامازوف ٥١
كلمة أُلقيتْ في « فيو - كولومبيه » ٦٥
محاضرات أُلقيت في « فيو - كولومبيه » ٧٣
١ - ٧٥
٢ - ١١١
٣ - ١٣٧
٤ - ١٥٩
٥ - ١٨٩
٦ - ٢٢١
مُلحق ٢٥٧

منشورات عويدات ٩٠١/ ١٩٨٨

Twitter: @abdullah_1395

ANDRE GIDE

DOSTOÏEVSKI

Texte traduit en arabe

par

Elias Hanna Elias

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

دوستويفسكي

@ketab_n

زدني علماً

- الاخفاق / جان لاكروا (١٨) . . . .
- الأخلاق والحياة الاقتصادية / فرنسوا سلييه (١٢٦) . .
- الذين يحضرون غيابهم / هاني الزعبي (١٠١) . . . .
- الانسان ذلك المعلوم / الدكتور عادل العوا (١٩) . . .
- الانسان المتمردُ / البير كامو (٥٥) . . . .
- اينشتين / الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا (١٧٠) . .
- باسكال / اندريه كريسون (٣٣) . . . .
- برغسون / اندريه كريسون (١٢) . . . .
- البنيوية / جان بياجه (١٥٤) . . . .
- تاريخ العرقية / جان بوارييه (٧٥) . . . .
- تأملات ميتافيزيقية / رنيه ديكارت (١٤) . . . .
- تقريظ الفلسفة / ميرلو بونتي (١٧٥) . . . .
- تيار دوشاردان / جان كارلس (٥٦) . . . .
- الثقافة الفردية وثقافة الجمهور / لويس دوللو (١٠٩) . .
- الجمالية الفوضوية / اندريه رستسلر (٧) . . . .
- الجمالية الماركسية / هنري آرفون (٩١) . . . .
- حلول فلسفية / عبد الجبار الوائلي (١٢٣) . . . .
- حوار الحضارات / روجه غارودي (١) . . . .

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth – Paris